الأستاذ العلاّمة
الشيخ حسن مكّي العاملي

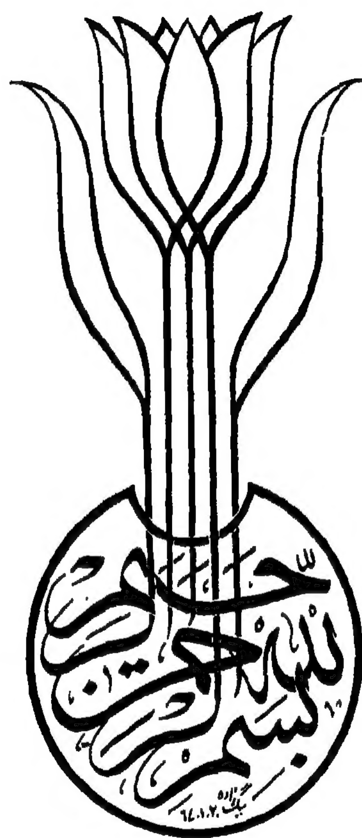
بداية المعرفة

منهجيّة حديثة في علم الكلام

الدار الإسلاميّة
بيروت

بداية المعرفة

منهجية حديثة في علم الكلام


بسم الله الرحمن الرحیم

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف: ٨١٦٦٢٧
ص.ب: ١٤/٥٦٨٠ - تلكس: ٢٣٢١٢ غندير
فرع ثاني: حارة حريك - شارع دكاش - هاتف: ٨٣٥٦٧٠ - ص.ب: ٢٥/٢٠٩

كلمة المؤلّف

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله القادر الذي إذا آرتَمَتِ الأوهامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ ، وحاول الفِكْرُ المُبَرَّأُ من خَطَراتِ الوساوِسِ أنْ يَقَعَ عليه في عميقات غيوب ملكوتـه ، وتَوَلَّهت القلوب إليه لتَجْرِيَ في كيفيّة صفاته ، وغَمَضَت مـداخل العقـول في حيث لا تَبْلُغُهُ الصفات لِتناوُلِ عِلْمِ ذاته ، رَدَعَهـا وهي تجوب مهـاوي سُدَفِ الغيوب ، مُتَخَلِّصَةً إليه سبحانه ، فَرَجَعَتْ إذ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بـأنه لا يُنـالُ بِجَوْرِ الإعتساف كُنْهُ معرفته ، ولا تَخْطُرُ ببالِ أُولي الرويّات خاطرةٌ من تقدير جـلال عزّته(١) .

والصـلاة على رسولـه الأمين المصطفى ، وأهـلِ بيته خلفـائِه الأطهـار النجباء .

كنت قـد لاحظت ـ وعـانيت ـ أثنـاء دراستي العقـائـديـة في الجـامعـة الإسلامية ، ثم فيما بعد أثناء تدريسي فيها لهذه المـادة لعدّة سنـوات ، وجود قصـور فيها عن تلبيـة ما هـو المطلوب منهـا ، خـاصـة في هـذه الأزمنـة التي

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة الأشباح ، الخطبة ٩١ . (طبعة عبده، ص ١٦٢) .

توسّعت فيها أبواب المعارف ، وارتدت كلُّ معرفة ثوبَ علم مستقل بحيـاله .

ويتمثّل هذا القصور على صعيدين :

الأول : الموضوعات .

الثاني : المنهجة .

أمّا على الصعيد الأول ، فاختصار الكـلام فيه ، أنّ المـطلوب من مادّة العقـائد الإسـلاميّة إعـطاء موضـوعات منحصـرة في إطار الإلهيـات بـالمعنى الأخص ، أعني ما يرجع إلى الصانع وصفاتـه وأفعالـه ، لا غير . ليبقى لهـذه المادة مجالها المفتوح للإتساع في أفقها دون خلطها بسائر المواد كالمنـطق ، والفلسفة ، والإلهيات بالمعنى الأعم ، والتفسير ، والحديث ، ومادة العقـائد المقـارنة بالعقائد اليونانيّة والغربية ، وغيرها .

ولكن كتب الكلام القديمة ، وكثيراً من الحـديثة ، لم تـراع هذا المَيْـز الموضوعي ، بل أدخلت موضوعات من تلك في هذه ، فأحدثت نوع تشويش وخلط في أذهان الطالبين وسدّت الباب أمام التركيز الفكري على هذا المجال بعينه ، وأعاقته ـ بالتالي ـ عن التطور المرجو .

وأما على الصعيد الثـاني ، فيمكن تبيّن القصور فيـه في عدّة جـوانب ، أبـرزها : التـرتيب المنطقي للمبـاحث ، الذي ينبغي أن يبـدأ بـإثبـات وجـود الصانع ثم صفاته ثم أفعاله المتمثّلة بـإرسال الأنبيـاء وإقامـة خلفائهم ، ليؤدّوا للناس تكاليفهم ، ثم معاد الناس إليه تعالى للحساب .

وأمـا التقسيم القديم لأصـول الدين ، الـذي يُعَنْـوِن التـوحيـد والعـدل كأساسين مستقلين إضافةً إلى النبوة والإمامة والمعاد ، فهـو أقرب إلى التقسيم الثقـافي والتوجيهي ، منـه إلى التقسيم المنهجي لمباحث علم الكـلام ، لأن التـوحيد هـو فرع من الصفـات السلبية ، والعـدل فـرعٌ من الصفـات الفعليّـة ـ أعني ـ الحكمة .

وإنما ركّز القدماء على العدل كأصل من أُصول الدين ، لِما ساد القرونَ

الأولى من نزاع بين الأشاعرة والمعتزلة حول قبح صدور القبائح منه تعالى وعدمه ، حيث قالت المعتزلة بالأول ، والأشاعرة بالثاني . فالتجأ المعتزلة إلى التركيز على العدل بجعله من أصول الدين ، لما له من أهمية قصوى في إثبات جملة من مسائل الأصول الحسّاسة .

والآن حيث زالت تلك المغمعة والحميّة الكلامية ، صار واجباً إدراج كل مطلب في بابه ، حتى تتّضح الصورة المنهجيّة المتناسقة لموضوعات علم الكلام لدى دارسيه . ولذلك أدرجنا بحث العدل والفروع الأخرى المترتّبة على الحكمة في مباحث الصفات . وهو الذي اقترحناه ونهجناه في كتابنا الموسّع « الإلهيات » .

وإضافة إلى هذين القصورين ، هناك قصور في الترتيب بين الكتب الكلامية التي يمر عليها الطالب في مرحلته الدراسيّة ، حيث ينبغي أنْ تتدّرج من المختصر إلى الواسع ، والأسهل إلى الأعمق .

هذه الأمور دفعتني في وقت سابق ، إلى تدوين كتاب الإلهيات الموسّع ، ليُدَرَّس تدريساً خارجياً على الطلاب ، أعني بكيفيّة إلقاء المدّرس البحث عليهم ، ليقوموا هم بجُهْدِهِمُ الخاص وتوجيه الأستاذ ، بقراءة المطالب التي تلقّوها ، عن الكتاب ، وتدارسها .

ثم أحسست بضرورة إيجاد كتاب مَتْنِيٍّ أَخْصَر ، ليكون في المنهج الدراسي سابقاً لذاك الكتاب ، فتريّثت في وضعه بعض الوقت ، لانشغالي بكتابات أُخرى ، حتى جاء الطلب ثم الإصرار من جانب بعض المسؤولين الأفاضل في الحوزة العلميّة ، فشجّعني ذلك على البدء بالعمل ، مستعيناً بالله العليّ القدير .

ولقد تقيّدت في هذا الكتاب بعدة أُمور ، لابأس بالإشارة إلى أهمها :

١ ـ راعيت في الكتابة أداء المطالب بالأُسلوب الحديث للكتابة العربيّة ، فهذا هو فرض الزمان ، والتلكأ عنه رجوع إلى الوراء ، وصدٌّ

لمحصّلي الحوزات والجامعات الإسلامية عن مواجهة مجتمع العصر .

٢ ـ أداء حدود الحقائق المطلوب تعريفها ، بدقة ، وبالمقدار المطلوب .

٣ ـ وضع مقدّمات مفيدة لا بدّ لطالب العقائد من الاطّلاع عليها .

٤ ـ إختيار الضروري من المباحث المطلوب معرفتها في هذه المرحلة ، وترك ما زاد إلى مرحلة أُخرى .

٥ ـ في بعض المواضيع التي طُرِحَتْ فيها نظريات مختلفة ، بحثنا أشهرها ، وربما أشرنا في الهامش إلى الأخرى .

٦ ـ إدراج بحث العدل في مباحث الصفات الفعلية ، وبالتحديد الحكمة ، وجعله أحد الفروع التي تترتّب عليها . واخترنا من الفروع أهمها المناسب لهذه المرحلة .

٧ ـ فصل الدليل عن المدّعى ، ليكون البحث أقرب للإدراك والإستيعاب .

راعينا هذه الأمور إضافة إلى التبويب والعنونة لرؤوس المطالب ، ليخرج الكتاب واضحاً سهل التناول .

أرجو من الله تعالى قبول هذا العمل المتواضع ، وجعله مناراً لأهل الهداية ، بمحمد وآله ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

حسن مكّي العاملي
الهاشمي المطّلبيّ
٢٩ذو الحجّة الحرام
مختتم العام ١٤١١هـ

مباحث الكتاب

* مقدّمات
* الفصل الأول : وجوب المعرفة
* الفصل الثاني : إثبات الصانع
* الفصل الثالث : صفات الصانع
* الفصل الرابع : النبوّة
* الفصل الخامس : الإمامة
* الفصل السادس : المعاد

مقدّمات

المقدمة الأولى : تعريف علم الكلام

المقدمة الثانية : غاية علم الكلام وفوائده

المقدمة الثالثة : مرتبة علم الكلام

المقدمة الرابعة : أسماء هذا العلم

المقدمة الخامسة : نظرة عامّة إلى تاريخ المذاهب والفرق الكلاميّة

المقدمة الأولى

تعريف علم الكلام

نُعرِّف علم الكلام بتعريفين ، أحدهما مُنْتَزَع من ملاحظة جُملةِ ما يُبحث في هذا العلم من الموضوعات والثاني مُنتزع من ملاحظة الغاية المرجوة غالباً من البحث في هذا العلم .

التعريف الأوّل : « علم الكلام هو العلم الباحث في إثبات وجود خالق الكون ، وصفاته ، وأفعاله » .

فالموضوعات التي يُبحث حولها في علم الكلام هي :

١ ـ وجود صانع للكون .

٢ ـ ما يتصف به ذلك الصانع من صفات كماليّة في ذاته كالعلم والقدرة والحياة . وما يتنزه عنه من صفات نقص ، كالشريك والجسمية . وما يتصف به من صفات فعلٍ كالكلام والعدل .

٣ ـ تَجَلّيات أفعاله في عوالم الخِلقة الدنيوية والأخروية مما يرجع إلى التكليف ونتائجه ، وهي تندرج تحت ثلاثة عناوين رئيسية :

أ ـ النبوة .

ب ـ الإمامة .

ج ـ المعاد .

التعريف الثاني : « علم الكلام هو علمٌ يُقْتَدَر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير ، بإيراد الحُجَج ودفع الشُّبَه » .

والمراد من الإقتدار : القدرة التامة ، ولذا عُبِّر به دون القدرة . والمقصود من القدرة التامة هو حصول مَلَكَةِ إيرادِ الأدلة على العقيدة ، ودفع الشبهات المستحدثة الواردة عليها .

والمراد بالدينية : المنسوبةِ إلى دين محمد (صلى الله عليه وآله) ، سواءٌ أكانت صواباً أم خطأً . فيدخل فيه علم أهل البِدَع ، الذي يقتدرون معه على إثبات عقائدهم الباطلة ، فإنه أيضاً من علم الكلام .

والمراد من الحجج : الأدلة والبراهين ، إما العقلية ، أو النَّقليَّة . فيأتي بها المتكلم ليثُبت ما يدّعيه من العقائد ، ثم يَنْبري لِذَبّ الشُّبه والإشكالات التي قد تَرِد عليها .



غاية علم الكلام وفوائده

لا بُدّ لكل علم من فائدة ، وإلاّ كانت دراسته عبثاً . وتُذْكَر فوائد العلم عادةً في أوّله ، ليزداد الطالب رغبةً فيه .

إن لعلم الكلام غايتين :

الأولى ـ غاية تنويرية : والمراد منها تطوير الفهم الإيماني للفرد المسلم ، والرقي به في إدراك مضمون عقيدته بتعميق اطلاعه على حدود المفاهيم الإعتقادية التي وردت في الكتاب والسنة نحو ما يرجع إلى : « الخالق » ، « صفات الخالق » ، « العدل الإلهي » ، « القضاء والقدر » ، « البَداء » ، « عصمة الأنبياء » ، « إمامة الأئمة » ، « الثواب والعقاب » ، وأمثال ذلك ، لتتسع آفاق معرفة المسلم ويزداد يقينه بصحة ما يحمله له الإسلام من مبادىء .

الثانية ـ غاية دفاعية : وهي الغرض الأصلي الذي دفع إلى تأسيس هذا العلم وتدوينه ، وكان الوازع الرئيسي لتوسيع مطالبه من مسائل معدودة ، إلى دائرة وسيعة من المسائل ، ما زالت تتسع حتى أيامنا هذه لتُجابِهَ كافّة التيّارات الفكرية المُسْتَجِدّة .

والمراد من هذه الغاية ، نصرة العقيدة الإسلامية ، والدفاع عن دين

الإسلام ، وحفظ إيمان المسلمين بمنع الشبهات من التطرّق إلى أذهانهم .

ولدراسة علم الكلام فوائد خمس :

الفائدة الأولى ـ بالنظر إلى الطالب في قوتّه النظرية ، ومعرفته الفكريّة . وهي : الرُّقيُّ به إلى ذروة اليقين .

وقد قال الله تعالى في شأن أهل العلم في كتابه الكريم : ﴿ **يَرْفَعِ الله الذينَ آمنوا مِنْكُم والذين أوتوا العِلْمَ دَرجاتٍ** ﴾[1] . فإنّه أفْرَدَ العلماء وخَصَّهم بالذِّكر ، مع اندراجهم في المؤمنين ، رفعاً لمنزلتهم . أو يقال : إن التقدير : « يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات » .

الفائدة الثانية ـ بالنظر إلى تكميل الغير ، وهي : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجّة ، وهداية الضالين بإزالة الشبهة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحُجَّة .

فإنّ الناس بين :

مسترشدٍ ، متطلّب للحقيقة متعطِّشٍ إليها ، فيُرْشِدُه المتكلم وعالم العقائد إلى مَعين الحق وطريقه الواضحة بالأدلة والبراهين التي تزرع اليقين والطمأنينة في نفسه .

وضال ، لشُبُهاتٍ استغَرقتْ عقله ، فيهديه المتكلم إلى جادّةِ الصواب ، ويزيل شبهاته ببيان وَهْنها وبُطلانها .

وضال معاندٍللحق ، مع معرفته بأحقيّته ، فهذا تُقام عليه الحجج الدامغة لتكون قاطعةً لمادّة ضلاله ، ومبطلةً لادعاءاته ومبادئه أمام الناس والأجيال الآتية ، وبهذا يتحقق تكميل الغير في هذا القسم .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١١ .

الفائدة الثالثة ـ بالنظر إلى الدفاع عن الإسلام ، وهي : حفظ قواعد الدين عن أن تُزَلْزِلَها الشُّبُهات .

والشُّبُهات تجد لنفسها مُتَنَفَّساً في كل عصرٍ ومِصْر ، وتُهَدِّد كيان الدين الإسلامي الحنيف .

فمن تلك الشبهات :

أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يُدْرِكَ أكثر مما يراه ويلمسه ويعايشه بحواسه ، وأما ما هو واقع خلف إطار الحس وغير مشهود له ، فهو بعيد عن إطار المعرفة وينبغي أن يُشْطَب عليه .

وأنَّ الإنسان لا يمكنه أنْ يدرك أيّة معرفة عملية مما ينبغي فعله أو تركه عن طريق عقله باستقلاله ، وإنما السبيل لإدراك ذلك هو ما يَرِد من الشَّرْع لا غير .

وأنَّ الإنسان مجبورٌ في كلِّ أفعاله وحركاته وسَكَناته ، لا اختيار له في شيء منها .

وأن التوسل إلى الله تعالى بالصالحين والأولياء ، وتقبيل أضرحتهم ، وزيارة مقابر موتى المسلمين ، شِرْكٌ بالله تعالى .

وأنّ الوحي نوعٌ من النبوغ العقلي والتفوُّقِ الذهني في الإنسان ، وليس ثمرة اتصال الموحى إليه بالله تعالى . .

وغير ذلك الكثير من الشبهات التي لولا الجهود المخلصة المستمرة لعلماء الكلام في ذّبها وإبطالها لانحرفت أصول الإسلام عن إطارها الذي جاءت به الرسالة الخاتمة ، ولأضحى كسائر الأديان السماوية التي حوّرت تعاليمها وانحرفت عن مبادئها الأصوليّة .

الفائدة الرابعة ـ بالنظر إلى فروع الإسلام الشرعية ، وهي : أنّه تُبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

بيان هذه الفائدة : إنه ما لم يَثْبت وجود خالق للكـون ، عالم ، قـادر ، حكيم ، غيـر عابث في فعله ، وأنّـه كلف الناس بتكاليف بَيَّنَهـا لهم بواسـطة الكتب السمـاوية وتعـاليم الـرسـل ، لم يُتصـور علمُ تفسيـر ولا علم فِقـهٍ ولا أُصوله ، ولا سائر العلوم الإسلامية ، فإنها كلّها متوقفة على علم الكلام .

الفائدة الخامسة ـ بـالنظر إلى الطالب ، لكن في قوتـه العملية ، وهي : تصحيح النية في العبادات ، إذ بها يُرجى قبول الأعمال .

بيان ذلك : إن العبادات تتوقف في صحتهـا على قصد التقـرب بها إلى المعبود ، ولا يمكن التقرب إلى شيء لا نعرفه . فالعبادةُ فَـرْعُ معرفـةِ المعبود بجماله وجلاله ، وأسمائه وصفاته وأفعاله .

وبتوضيح أوفر : إن التقّرب المعنوي إلى الخالق ، لا ينقدح في النفس إلّا بعد معرفتـه بما يتّصف بـه من كمالات ـ ولـو بوجـه عام ـ ولا يكفي مجـرد معـرفة أنـه موجـود ، لأن التقّرب ليس لقلقـة لسان ، بـل حالـة فنـاء ذاتي في محضر المتقرّب إليه ، بمعنى أن يستشعر العبد ، في حالات التقرّب ، عظمة المعبود وأنه مليك أمره في مبدئه ومعـاده ، ومدبّـر أمره فيمـا بينهما في جميـع شؤونه الحياتيّة .

وهذه المعرفة تقدّمها مباحث علم الكلام .

*****

المقدمة الثالثة

مرتبة علم الكلام

إذا وقفت على الفوائد التي ذكرناها لعلم الكلام ، تتّضح لديك المرتبة العظيمة التي يحتلها هذا العلم بين سائر العلوم ، بل منها يُعلم أنه رأس العلوم وأشرفها .

وزيادة في التأكيد والإيضاح لأهمية ومرتبة هذا العلم الشريفة ، نورد جملة من آيات الكتاب العزيز وروايات العترة الطاهرة في هذا المجال .

الكتاب

يقف كل تالٍ لكتاب الله ، على المرتبة الجليلة التي يتربع عليها علم الكلام . ونحن نقتطف فيما يلي بعض الآيات المرشدة إلى ذلك .

١ ـ لقد استعمل نوح في مواجهة قومه الكافرين به ، أُسلوب الجدال في الدين لإثبات ما جاءهم به ، وإبطال أقاويلهم ، ودَأب على ذلك حتى ضجّوا منه ، كما يقول تعالى : ﴿ قالوا يا نوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا . . . ﴾[1]

---

(١) سورة هود : الآية ٣٢ .

٢ ـ وذكر تعالى أنّ إبراهيم(عليه السلام) حاجّ كافراً في الله تعالى ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذي حاجَّ إبْراهيمَ في ربِّهِ أن آتاهُ اللّهُ المُلْكَ إذ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيي ويُميتُ ، قالَ أنا أُحيي وَأُميتُ ، قال إبراهيمُ فإنّ الله يَأْتي بالشَّمْسِ من المَشْرقِ ، فَأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الذي كَفَرَ ، واللّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظالِمينَ ﴾[١] .

٣ ـ وحاجّ إبراهيم قومَه مستدلاًّ بأَفولِ الشمس والقمر والنجوم بعد طلوعها ، على عدم ربوبيّتها . ثم حاجّوه بِقَهر الآلهة وسَخَطها ، فأجابهم بحجّة مضادةٍ ، وقد مَجّد القرآن وفَخّم هذه الحجة بقوله :

﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا[٢] آتيناها إبراهيمَ على قَوْمِهِ ، نَرْفَع دَرَجاتٍ مَنْ نشاءُ إنّ رَبَّكَ حَكيمٌ عليمٌ ﴾[٣] .

٤ ـ أَمَرَ الله تعالى نبيَّه بِجدال مخالفيه بقوله :

﴿ وَجادِلْهُمْ بالتي هي أَحْسَن ﴾[٤] .

٥ ـ كما أمره تعالى باستنطاق الكافرين بما لديهم من أدلة لإبطالها ، فقال :

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ من عِلْمٍ فَتُخْرِجوهُ لنا ﴾[٥] .

٦ ـ وأَذِنَ الله تعالى للمسلمين بمُجادلة أهل الكتاب ، مُتَّبِعين أُسلوب البرهان الصحيح والمنطق السليم فقال :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

(٢) من المفسرين من جعلها إشارة إلى مجموع حجج إبراهيم(عليه السلام) على قومه سواء التي ابتدأهم بها أم التي أجاب بها حججهم وشبهاتهم ، ففسّر « حُجَّتَنا » بـ(حججنا) .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٨٣ .

(٤) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٥) سورة الأنعام : الآية١٤٨ .

﴿ وَلا تُجادِلوا أَهْلَ الكتابِ إلاّ بالتي هي أَحْسَن ﴾[1] .

هذا ، وإن في كثيرٍ من الآيات القرآنية إستدلالاتٍ منطقية على مبادىء العقيدة الإسلامية الحقّة ، وإبطالاً لشبهات المشركين وأهل الكتاب . بل جَعَلَ القرآنُ الكريم البرهان والدليل ، السبيل الوحيد المُقْنع لتبنّي عقيدةٍ من العقائد ، دون التقليد الذي ذَمَّه في عدّةٍ من آياته ، كما سيأتي .

كلُّ هذا يُرْشدنا إلى مقام وأهمية الإستدلال والمجادلة في إحكام بُنيان العقيدة ، وهو السبيل الذي يسلكه علم الكلام .

السنة

حَثَّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على مناظرةِ أهل الباطل والمعاندين ، لإثبات العقيدة ودفع شبهاتهم . كما بَجّلوا (عليهم السلام) رجالات هذا العلم ، من أصحابهم الذين أُوتوا المقدرة على المجادلة ونُصْرة المذهب .

وفيما يلي ننقل بعضاً من هذه الروايات .

١ ـ عن النَّضْر بن الصباح ، قال : كان أبو عبد الله الصادق(عليه السلام) يقول لعبد الرحمن بن الحجاج : « كلّم أهل المدينة ، فإنّي أُحبّ أن يُرى في رجال الشيعة مثلُك »[2] .

٢ ـ قال الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام) لمحمد بن حكيم : « كلّم الناس ، وبَيِّن لهم الحق الذي أنت عليه ، وبَيِّن لهم الضلالة التي هم عليها »[3] .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص١٣٦ ، الحديث ٤٢ . نقلاً عن خصال الصدوق .

(٣) تصحيح الإعتقاد ، للشيخ المفيد ، ص٢٠٢ (المطبوع مع أوائل المقالات) .

٣ ـ سأل هشام بن الحَكَم الإمام الصادق(عليه السلام) عن أسماء الله تعالى واشتقاقها فأجابه ثُمّ قال له :

* « أَفَهِمْتَ يا هشام فَهْماً تدفَعُ به وتناضِلُ به أعداءنا والمتّخذين مع الله عزّ وجل غيره » .

* قال هشام : « نعم » .

* فقال عليه السلام : « نَفَعَكَ الله به وثَبَّتك يا هشام » .

* قال هشام : « فوالله ما قَهَرَني أحدٌ في التوحيد ، حتى قُمْتُ مقامي هذا »(١) .

٤ ـ قال يونس بن يعقوب : وَرَدَ رجلٌ من أهل الشّام على الإمام الصادق(عليه السلام) يريد مناظرة أصحابه .

* فقال لي أبو عبد الله(عليه السلام) : يا يونس لو كنت تُحْسِنُ الكلامَ كَلَّمْتَه .

* فقلت : يا لها من حَسْرة .

* فقال لي : أُخرج فانظر من ترى من المتكلّمين ، فأَدْخِلْهُ .

فأدخلْتُ حمران بن أَعْيَن ، والأحول الطاقي ، وهشام بن سالم ، وقَيْس بن الماصر .

وكان المجلس منعقداً في خيمة صغيرة في طرف الحرم يستقر فيها الإمام(عليه السلام)أياماً قبل الحج ، فأخرج الإمام(عليه السلام) رأسه من خيمته ، فإذا هو ببعير يَخُبّ ، فقال(عليه السلام) : هشام وربّ الكعبة .

فوَرَدَ هشام بن الحَكَم ، وهو أوّل ما اختطّت لحيته ، فوسّع له

---

(١) الكافي ، ج١ ، كتاب التوحيد ، باب المعبود ، ص٨٧ ، الحديث٢ .

الإمام(عليه السلام) وقال : **ناصرنا بقَلْبه ولسانه ويده .**

ثم أمر الإمام(عليه السلام) أصحابه واحداً واحداً بتكليم الشامي ، وكان هشام بن الحكم أجودهم في المناظرة ، حتى انتهى الأمر إلى إيمان الشامي .

وعندها التفت الإمام(عليه السلام) إلى أصحابه ، وشرع يبيّن لهم مرتبة كلٍّ منهم في المجادلة ، حتى انتهى إلى هشام بن الحَكَم ، فقال له :

« مثلك فليكلم الناس »[1] .

٥ ـ وقال الإمام الصادق(عليه السلام) ، عندما بلغه موت محمد بن الطيّار : « رحم الله الطيّار ، ولقّاه نَضْرَةً وسُروراً ، فلقد كان شديدَ الخصومة عنّا أَهْلَ البيت » [2] .

٦ ـ إجتمع إلى الإمام أبي محمد الحسن بن عليّ العَسْكري قومٌ من مواليه والمُحبّين لآل محمد (صلى الله عليه وآله) ، وقالوا له : « يابن رسول الله ، إنّ لنا جاراً من النُّصّاب يؤذينا ويحتجّ علينا في تفضيل الأول والثاني والثالث على أمير المؤمنين(عليه السلام) ، ويورد علينا حججاً لا ندري كيف الجواب عنها والخروج منها» .

فقال(عليه السلام) لبعض تلامذته : « مُرّ بهؤلاء إذا كانوا مجتمعين يتكلمون ، فتستمع إليهم ، فيَسْتَدعون منك الكلام ، فتكلّم وأَفْحِم صاحِبَهم ، واكسر عَرَبَه[3]، وفُلَّ حَدّه[4]، ولا تُبْق له باقية » .

---

(١) الكافي ، ج١، كتاب الحجّة ، باب الإضطرار إلى الحجّة ، ص١٧١ ، الحديث ٤ والحديث مُفَصّل ، نقلناه باختصار وبعض التصرف ، فراجعه فإن فيه فوائد .

(٢) رجال الكشّي ، ص٣٤٩ ، رقم٦٥١ . وبحار الأنوار ، ج٢ ، ص١٣٦ ، الحديث ٤١ .

(٣) عَرَبَه : أي شدّته في الكلام حيث يتكلم بالقبيح .

(٤) الحدّ : طرف السيف الماضي . قوله : فُلَّ حَدَّه ، كناية عن كسر شوكته .

فـذهب الرجـل ، وحضر المـوضع وحضـروا ، وكلّم الرجـلَ فـأَفْحَمـه وصَيَّره لا يدري في السماء هو أو في الأرض .

قالوا : ووقع علينا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، وعلى الرجل والمُتَعَصِّبين له من الغمّ والحزن مثل ما لحقنا من السرور . فلمّا رجعنا إلى الإمام(عليه السلام) ، قال لنا :

« إنّ الذين في السماوات لَحِقَهم من الفَـرَح والطرب بِكَسْـر هذا العـدوّ لله أكثـر مما كـان بحضرتكم . والـذي كـان بحضـرةإبليس وعُتـاة مَـرَدَتـه من الشياطين من الحُزْن والغمّ ، أشدّ مما كان بحضرتهم .

ولقـد صلّى على هذا العبـد الكـاسر لـه ، مـلائكـةُ السمـاء والحُجُب والعرْش والكُرْسي ، وقابَلَها الله تعالى بالإجابة ، فَأَكْرَمَ إيابَهُ وأَعْظَمَ ثوابَه .

ولقـد لَعَنَتْ تلك الأمـلاك عَـدُوّ الله المكسـور ، وقـابَلَهـا الله تعـالى بالإجابة ، فَشَدَّد حسابَهُ وأطالَ عذابَه » (١) .

والأخبار الواردة عن أئمـة أهل البيت(عليهم السـلام) في مجال الأمـر والحثّ على منـاظرة المخـالفين لإثبـات العقيـدة الحقّـة وإبـطال شُبهـاتهـم ، وتعظيم متكلّمي المذهب ، كثيرة ، وما ذكرناه كان نماذج منها .

دفـع شبهـة

قــد جــاء في بعض الأخبــار النهي عن الخــوض فـي المـجــادلات العقـائديـة ، وفي بعض آخر النهي عن الكـلام في الذات الأحَـدَية ، فَتَـوهَّم البعضُ من ذلـك حُرْمَـة علم الكـلام . ولكنـه فَهْمٌ خـاطىء ، نـاتـجٌ عن قِلَّةِ التدَبُّر ، وعدم المراجعة إلى سائر رواياتهم (عليهم السلام) .

---

(١) الإحتجاج ، للطبْرَسي ، ج١ ، الفصل الأول ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، ط الأعلمي ١٤٠١هـ .

والنـاظر في الـروايات يـدرك أنّ لهذا النهي وجـوها عـدّة ، نذكـر لـك أهمها :

أ ـ مَوْقِعُ التَّقِيَّة الذي كان فيه الشيعة في بعض أنحاء البلاد الإسلاميـة ، وفي بعض الأزَمات ، مثل أزمة خلق القرآن .

روى محمـد بن عيسى بن عُبَيْـد اليَقْـطيني ، أَنّـه كتب الإمـام الهـادي عليَّ بن محمـد بن علي بن موسى الـرِّضا (عليهم السـلام) إلى بعض شيعته ببغداد :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، عَصَمَنـا الله وإيّاكَ من الفِتْنَـة ، فَإنْ يَفْعَـلْ فَقَـدْ أَعْظَمَ بهـا نِعْمَةً ، وإن لا يَفْعَـل فهي الهَلَكَة . نحن نـرى أَنَّ الجدالَ في القرآنِ بِدْعَةٌ اشتركَ فيها السـائل والمُجيب . . . »[1] .

ب ـ إنّ النهي كان لطائفةٍ لا تُحْسِن الكلام ، فيُخشى إنحـرافها بـإقامـة الحجة الباطلة عليها .

روي عن الصـادق (عليه السـلام) أنّـه نهى رجـلاً عن الكـلام ، وأمـر آخر . فقال لـه بعض أصحابـه : « جُعِلْتُ فداك ، نَهَيْتَ فـلاناً عن الكـلام ، وأَمَرْتَ هذا به ؟ ! » .

فقال (عليه السلام) : « هذا أَبْصَرُ بالحُجَجِ ، وأَرْفَقُ منه »[2] .

قال الشيخ المفيد (رحمه الله) في ذيـل هذه هـذه الروايـة : « فَثَبَتَ أَنَّ نَهْيَ الصـادقين (عليهم السـلام) عن الكـلام ، إنّمـا كـان لـطائفـةٍ بِعَيْنِهـا لا تُحْسِنُـه . ولا تهتدي إلى طُـرُقِه ، وكـان الكـلام يُفْسِـدُهـا . والأمـر لـطائفـةٍ أخرى ، لأنّها تُحْسِنه وتَعْرِفُ طُرُقَه وسُبُلَه »[3] .

---

(١) التوحيد ، للصدوق ، باب القرآن ، ص ٢٢٤ ، الحديث ٤ .

(٢) تصحيح الإعتقاد، ص٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

ج ـ النهي عن الكلام في إثبات أُصولٍ مغايرةٍ للأصول التي جاءت في تعاليم أهل البيت(عليهم السلام) .

ففي رواية يونس بن يعقوب ، التي تقدم شطر منها ، جاء :

* فقلت لأبي عبد الله(عليه السلام) : « جُعِلْتُ فِداكَ ، إنيّ سَمِعْتُكَ تَنْهى عن الكلامِ وتقولُ : وَيْلٌ لأصحابِ الكلام ، يقولون هذا يَنْقادُ ، وهذا لا ينقادُ ، وهذا ينساقُ وهذا لا ينساقُ ، وهذا نَعْقِلُه وهذا لا نَعقِلُه » .

* فقال أبو عبد الله(عليه السلام) : « إنّما قلت : " فَوَيْلٌ لهم إنْ تركوا ما أَقولُ وذَهَبوا إلى ما يريدون " »[1] .

د ـ إنّ النهي عن الكلام في الله عزّ وجلّ إنما يختصّ بالنهي عن الكلام في تشبيهه بخَلْقِه وتَجْويزه في حُكْمه . وأمّا الكلام في توحيده ونفي التشبيه عنه والتنزيه له والتقديس فمأمورٌ به ومرغوب فيه ، وقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وأخبار متظافرة[2] .

هذا ، ولم يزل الأئمة(عليهم السلام) أنفسهم ، يناظرون في دين الله سبحانه ويحتجون على المخالفين ، وأعداء الله من الزنادقة والملحدين ، ويشرحون المسائل الإعتقادية لأصحابهم وطُلاّب الحقّ واليقين ، ما استطاعوا وسَنَحَتْ لهم الظروف ، وفي ذلك ما يزيل كلَّ إبهام حول ضرورة علم الكلام من جهة ، ومرتبته وأهميّته من جهة أُخرى .

وقد دوِّنَت مجاميع حديثيّة ضخمة في مناظرات الأئمة (عليهم السلام) ، منها :

ـ كتاب الكافي ، لمحمد بن يعقوب الكُلَيْني ، المُتَوفى سنة ٣٢٩هـ .

---

(١) الكافي ، ج١ ، كتاب الحجّة ، باب الإضطرار إلى الحجة ص١٧١ ، الحديث ٤ .

(٢) تصحيح الإعتقاد ، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

ـ كتاب التوحيد ، لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه ، الصَّدوق ، مُتَوفى سنة ٣٨١هـ .

ـ كتاب عيون أَخبار الرضا ، له أيضاً .

ـ كتاب الإحتجاج ، لأحمد بن علي بن أبي طالب الطبَرْسي ، المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري .



المقدمة الرابعة

أسماء هذا العلم

للعلم الباحث في المسائل الإعتقادية أسماء مختلفة . نذكر فيما يلي أشهرها .

الأول . علم اصول الدين

للوقوف على صدق هذه التسمية ، لا بُدّ من بيان أُمور أربعة ، وهي :

أ ـ ما هو الدين في اللغة ؟

ب ـ ما هو الدين في الإصطلاح ؟

ج ـ ما هو المراد من الدين في المقام ؟

د ـ وجهُ كونِ هذا العلم أُصولاً ؟

أما الأمر الأول ، فإن للدين في اللغة معنيان : الجزاء والإلتزام . وقد جاء المعنيان كلاهما في المروي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من قوله : « كما تَدين تُدان » .

أي بحسب ما تلتزمه من عقيدةٍ أو سيرة ، تُجازى يوم القيامه وتُحاسَب .

وأما الأمر الثاني ، فإن الدين في الإصطلاح العام يطلق على مجموعة

العقائد ، والمفاهيم ، والأحكام ، والأخلاق ، التي يحملها مذهب ومنهج معين .

والمراد من العقائد : مجموعة المفاهيم النظرية الراجعة إلى خالق الكون وصفاته وأفعاله .

والمراد من المفاهيم : مجموعة التصورات والأفكار الخاصة التي يحملها هذا المذهب ، لجملة من الموضوعات الفردية والإجتماعية ، كالعلاقة الزوجية ، والحُرِيَّة ، والإقتصاد ، والدولة ، والسياسة ، والدفاع ، وغير ذلك .

والمراد من الأحكام : مجموعة التكاليف العَمَلية الي يُلزم بها هذا المذهب أتْباعه ، كالعبادات الخاصة ، وطُرُق المعاملات وقيودها .

والمراد من الأخلاق : مجموعة القِيم والمُثُل العليا التي يحملها كلُّ إنسان في باطن فِطرتَه ، وأعماق روحه ، فيُثيرها له المذهب ، ويُرْشده إليها عبر تعاليمه الحِكَميّة ؛ كالعِفّة ، والتواضع ، والإرفاق بالمُعْدَمين والإحسان إليهم ، والعدل بين الناس وإعطاءِ كلّ ذي حقٍّ حقَّه .

والمتدين هو الملتزم بهذه الأمورِ على الصعيدين الفكري والعملي .

وأما الأمر الثالث ، فالمراد من الدين في قولنا : « أُصول الدين » ، هو خصوص المفاهيم والأحكام والأخلاق ، فإنّ الذي يشكّل أساسها ويبعث إليها هو العقائد والإلتزامات الفكرية حول الخالق وما يرجع إليه من صفاته وأفعاله ، كما سيظهر لك في الأمر الرابع التالي .

وأما الأمر الرابع ، وهو وجه تسمية هذا العلم بـ(أصول الدين) فهو أنّ التزام الإنسان ـ فكراً ـ بالمفاهيم التي يحملها له الدين ، وتقيّده ـ عملاً ـ بالأحكام التي يُلزمه بها ـ وهي لا تخلو من المشقّات ، وترك ملذّات الحياة ـ لا بُدّ له من حُجّة ودليل قاطع يُلزمه باعتناقه وامتثالها ، وبدون هذا الدليل لا يستقيم عنده شيء من تلك الإلزامات أصلاً .

وليست هذه الحُجّة إلاّ ثبوت أن للكون خالقاً ، يتّصف بصفات الجمال والكمال ويتنزّه عن صفات النقص والحاجة ، وأنّه حكيم لا يعْبث ، أرسل رسولاً مُؤَيَّداً بالمعجزات الدالة على صدقه ، وأنزل معه تكاليف وأحكام ومبادىء ومفاهيم ومُثُل وأخلاق ،وأقام خلفاء من بعده لبيانها للناس ، وأنه وَعَدَ على امتثالها الجنة والسعادة الخالدة ،وأَوْعَد على مخالَفتها النار والعذاب .

وحيث إنّ هذه الحُجّة أشبه بالأُسُس والأصول التي يُبنى عليها البناء ولا يستقر بدونها ، لأنّ هذه يُبنى عليها صَرْح الإيمان والعمل الصالح والمعارف الإسلامية ، سُمّيت بـ(أُصول الدين) .

الثاني ـ علم التوحيد والصفات

من الواضح أن هذه التسمية أطلقت عليه بالنظر إلى أبرز موضوعاته التي تقدّم ذكرها .

الثالث ـ الفقه الأكبر

الفقه في اللُّغة هو الفهم والمعرفة . والذي ينبغي على الإنسان معرفته بالدرجة الأولى ، إثنان :

١ ـ الأحكام العملية الفرعية التي تضبط كلَّ أعماله وتصرّفاته .

٢ ـ المسائل الإعتقادية .

وحيث إنّ الأُولى تبتني على الثانية ، كما عرفت ،كانت الثانية أشرف وأهم ، فلذلك سميت الأُولى بـ(الفِقْه الأصغر) ، والثانية بـ(الفِقْه الأكبر) .

الرابع ـ علم النظر والاستدلال

سُمّي بذلك لأنه يعتمد في عُمْدة مسائله ، مثل : إثبات الصانع ،

وحكمته ، ووحدانيّته ، ولزوم بِعثة الأنبياء ، وخلافتهم بالنصّ ، على الأدلة العقليّة .

الخامس ـ علم الكلام

وهو أشهر الأسماء المُتَداوَلَة لهذا العلم . وقد ذكروا في سبب تسمية هذا العلم بـ(علم الكلام) ، وجوهاً كثيرة ، نأتي فيما يلي بأبرزها ، ونطرح البقية لوَهْنها .

١ ـ لأنّ المتقدِّمين كانوا يُعَنْوِنون فصولَ مباحثهم بالكلام ، فيقولون : (كلامٌ في التوحيد) ، (كلامٌ في القدرة) ، (كلامٌ في العدل) ، إلى غير ذلك ، فلمّا كَثُر لفظ (الكلام) في بحثهم ، سُمِّي بـ(علم الكلام) .

٢ ـ لأنّ الماهِرَ في هذا العلم . المُسْتَحضِر لقوانينه ، تصير له قُوّة الكلام مع الغير والمجادلة في الأمور العقلية وغيرها .

٣ ـ لأنّه لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم ، كما يقال للأقوى من الكلامَيْن : هذا هو الكلام .

٤ ـ لأنّه لابتنائه على الأدلة القطعية ، أشدّ العلوم تأثيراً في القلب وتَغلْغُلاً فيه ، فَسُمِّيَ بـ(الكلام) إشتقاقاً من الكَلْم ـ بسكون اللام ـ وهو الجَرْح .

٥ ـ لأنّ أشهر مسألة بحث عنها في هذا العلم ، واختلفت فيها آراء الباحثين في العقائد الإسلامية هي مسألة كونه تعالى متكلماً ، ومعنى الكلام الإلهي ، وقِدَمِه أو حدوثه .

وقد اشتدّ النزاع في هذه المسألة إلى درجة كَفّرت الطوائف الإسلامية بعضها الأخرى ، وأُريقت بسببه دماءٌ كثيرة ، بما هو معروفٌ في التاريخ باسم (محنة القرآن) .

وقيل إنها أوّل مسألة طُرحَت على بساط البحث الكلامي ، ولكنّه خطأٌ ، كما سيظهر في المقدمة التالية .

٦ ـ وزُعم أنَّ وجه تسميته بـ(عِلْم الكلام) ، ما رُوي عن مالك بن أنس(٩٥ ـ ١٧٩هـ) أنّه قال : « إيّاكم والبِدعَ ؟ » .

قيل له : « يا أبا عبد الله ، وما البدع ؟ » .

قال : « أهل البِدعَ ، الذين يتكلّمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان » .

وأيضاً مأخوذٌ مما رُوي عن أبي حنيفة(٨٠ ـ ١٥٠هـ) من أنه قال : « لَعَنَ الله عَمْرو بن عُبَيْد ، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام » .

ولكن هذه النسبة إنْ صَحّت ، لا تَدُلّ على ذلك ، لأنه إن كان المراد أنّ سبب التسمية بهذا الإسم ، مُجَرّد مجيء لفظ (الكلام) في حديثهما بقصد الإشارة إلى المباحث الإعتقادية عموماً ، فإنّه قد ورد ـ كما تقدّم ـ في كلام الصادق(عليه السلام) كراراً ، قاصداً به المسائل الإعتقادية عموماً ، كقوله لعبد الرحمن بن الحجاج : « كلّم أهل المدينة » .

وقوله ليونس بن يعقوب : « يا يونس ، لو كنت تُحْسِنُ الكلام ، كَلَّمْتَه » .

وقوله له : « أُخرج فانظر من ترى من المتكلّمين ، فأَدخله » .

وقوله لهشام بن الحكم : « مثلُك فَلْيُكَلّم الناس » .

والصادق(عليه السلام) (٨٣ ـ ١٤٨هـ) متقدّم على مالك ، وأُستاذُ أبي حنيفة . فكان الأَوْلى كونه مأخوذاً من كلامهُ .

وإن كـان المراد إطـلاق (الكلام) إصـطلاحاً على مجمـوعة المسـائل العقـائـديـة المعـروفـة بِنَسَقِهـا المنهجي ، وبمـا هي علمٌ مستقـلٌ لـه فَنُّـه وقواعده ، فهو قد ظَهَـر في كلامِ المتأخّرين عنهم . وقيل إنـه أوّل ما وَرَد في كتب الجاحظ المُتوفّى سنة ٢٥٥ هجرية .

٧ ـ إنَّه سُمِّي بعلم الكلام ، لأنّ مشـائخ المعتـزلة كـانوا ذوي قـرائـح خَصْبَـة ، وكفاءاتٍ خـاصة في نَضْـد القريض وآرتجـال الخُطَب في المسـائل الإعتقـادية والمُنَـاظرة فيهـا ، حتى بلغوا الـذّروة واعتلوا السِّنـام في البـلاغة والفصـاحة ، فَسُمِّيت صنـاعتهم ـ نظراً إلى أوصـافهم وخصـوصيـاتهم هـذه ـ بـ(الكلام) ، وسُمُّوا هم بـ(المتكلمين) .

ثم شـاع استعمال هـذا الإسم ، حتى صـار يُطلق على كـل بـارع في المنـاظرة في المسـائـل الإعتقـاديـة (متكلمـاً) ، وعلى العلم البـاحث عنهـا بـ (علم الكلام) .

هذه أبرز الإحتمالات التي ذكرت في وجه التسمية بـ(علم الكـلام) ، وقد تَمَسّك بكلٍّ منها قومٌ ، والمشهور هـو الوجـه الخامس ، وإن كـان الأخير غير بعيد .



نظرة عامة إلى تاريخ المذاهب والفرق الكلامية

أوّل بذور التفرقة

إن أوّل بذور التفرقة بين المسلمين بُذرت يوم السقيفة، يوم وفاة الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله) واستغلال شَطْرٍ من المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة إنشغال بني هاشم بتجهيز النبيّ الأكرم ، ليستأثروا بالسُلطة والحكومة على المسلمين .

فكانت مسألة خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أوّل مسألة عقائدية يُختلف فيها ، إلاّ أن النقاش فيها ـ في ذلك الحين ـ لم يكن بصورة الجَدَل الكلامي ، بل كان بصورة احتجاج فاطمة الزهراء(عليها السلام) وعلي بن أبي طالب(عليه السلام)وأصحابه، في مواضع مختلفة ، على أحَقيّة عليٍّ بالخلافة ، وطَرْحهم في المجامع ـ كلّما سَنَحَت الظروف ـ آيات الذكر الحكيم وأحاديث النبيّ الكريم التي ألقاها في مواقف عديدة والتي تشير إلى أفضلية عليٍّ (عليه السلام) وتَقَدُّمه على سائر المسلمين ، وتَنصّ على خلافته وإمرته للأُمّة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ثم حدثت بعد ذلك جملة من الحوادث ، لم يأخذ البحث فيها طابع النقاش والجدل الكلامي إلاّ بعد مدة من الزمن ، بصورة : حكم الخروج عن

طاعة الإمام وحاكم المسلمين ، هل يخرج المذنب بذلك عن الإيمان أو لا ؟ وهل تُقْبَل توبته أو لا ؟ .

ومن تلك الحوادث ، محاصرة الثوار المسلمين من أهل مصر والمدينة ، قصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وقتلهم إياه فيه . وخروج طلحة والزبير وعائشة إبنة أبي بكر عن طاعة أمير المؤمنين عليٍّ(عليه السلام) ، وقتالهم إياه في معركة الجمل . وتمرُّد معاوية بن أبي سفيان ، والي الشام في خلافة عثمان ، عن إطاعة عليٍّ أمير المؤمنين ، ومحاربته إياه في صفين .

وفي خِضَمِّ هذه المَعْمَعَة وما تلاها ، ظَهَرَتْ آراءٌ إعتقادية ومذاهب كلاميّة كثيرة جداً نستعرض أُمّهاتها بعد أنْ نشير إلى أبرز العوامل التي مَهّدَت لحدوث هذا التشتُّت الفِكري في الأُمة ، وأذْكَتْ نارَه وأجّجَتْ أوارَها .

عوامل التشتت الفكري

العامل الأول : تَخَلُّف المسلمين عن العمل بوصايا الكتاب والرسول في أهل بيته .

العامل الثاني : منع كتابة الحديث النبوي .

العامل الثالث : إنتشار المستسلمين من الأحبار والرُّهبان والملاحدة .

وفيما يلي نُبَيّن بإيجاز كلاًّ منها .

العامل الأول ـ الابتعاد عن آل البيت

لقد مَجّدَ الكتاب العزيز أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) في آياته المباركات . فعرّفهم بأنّهم مُطهّرون عن كلِّ رِجْس[1] ، وأنّهم أولياء

---

(١) قوله تعالى : ﴿ إنّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ . (الأحزاب : ٣٣) .

المُؤْمنين[1] ، وأَمَرَ بِمَوَدَّتِهم جاعلاً إيّاها أجْر الرِّسالة[2]، وروى فضائلهم الخُلُقية وتحدث عن نفسياتهم الكاملة[3] ، وآياته تَقْرَعُ أسماعَ المُسلمين لَيْلَ نَهار .

ولم يَنْفكّ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) مُنْذُ بُعِثَ إلى أنْ لَحِقَ بِرَبِّه ، يوصي بأهل بيته ، ويُقَدِّمُهم على سائر المسلمين ، ويُعَرِّفُهم بأنّهم أوعية العلم ، ومعادِنَ الحكمة ، وأنّهم أمانٌ للأمة من الإختلاف[4] ، وأنّ الهداية معهم والضلالة في مخالَفَتهم[5] ، ويُقْرِنُهم بالقرآن الكريم ويَعْدِلُهم به[6] ، ويوصيهم بموالاة علي بن أبي طالب ـ أخيه ورَبيبه وصهْره وباب مدينة علْمه وصاحب رايته ـ من بعده ، في مواقف عديدة ، كان أعظمها أمام حشود هائلة من المسلمين ، قبل رحلته ، في غدير خُمّ ، بل لم ينصرف حتى أَخَذَ العهد عليهم بموالاته ، فأدخل المسلمين على عليٍّ يبايعونه بإمرة المؤمنين من بعده[7] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ إنَّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسولُهُ والذينَ آمنوا الذينَ يُقيمونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزَّكاة وهُمْ راكِعونَ ﴾ (المائدة :٥٥) . والمراد علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أسْأَلُكُم عليهِ أجراً إلاّ المَوَدّة في القُرْبى ﴾ (الشورى : ٢٣) .

(٣) سورة الدهر .

(٤) قوله (صلى الله عليه وآله) : « النجوم أمانٌ لأهل الأرض من الغَرَق وأهْلُ بيتي أمانٌ لأمّتي من الإختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب ، اختلفوا فصاروا حزب إبليس » . (مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٤٩) .

(٥) قوله (صلى الله عليه وآله) : « ألا إنّ مَثَل أهل بيتي فيكم كَمَثَل سفينة نوح ، مَنْ ركبها نجا ، ومَنْ تخلّف عنها غرق » (مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٥١) .

(٦) قوله (صلى الله عليه وآله) : « إني تاركٌ فيكم الثَّقلين إن تَمَسَّكْتُم بهما لَنْ تضلّوا بعدي أبَداً : كتاب الله وعترتي أهْلَ بيتي ، فلن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض فانظروا كيف تَخْلُفُوني فيهما » .

(٧) واقعة الغدير وحديث الثَّقلَيْن ، متواتران لدى الفريقين ، وقد أُلِّفَتْ فيهما كُتُب كثيرة ، أجلها « الغدير » لِلعلاّمة الأميني في أحد عشر مجلداً . وكتاب عبقات الأنوار ، للسيد حسين حامد الهندي .

ولكنَّ عـواملَ النِفـاق من جهـة ، والحسـد لبني هـاشم وعليٍّ من جهـة ثانية ، وحُبّ السلطة والرئاسة من جهة ثالثة ، حالَتْ دون تحقيقِ هذه الغاية ، فما أَنْ رَحَل الرسول الأكرم حتى بدأت المأساة :

لقـد نَبَذَ المسلمـون كتاب الله ووصـايا رسـولـه في أهـل البيت وراءهـم ظِهْرِيًا ، وكـأَنّ شيئاً من ذلـك لم يكن ، واستأثـروا بالسُّلْطة ، وضَيّقـوا عليهم وهَدَّدوهم وتَوَعَّدوهم ، ثم شَرّدوهُم وطاردوهم وفَتَكوا بهـم .

ولـم يكن بِدْعاً حصول ذلك من صحابة الرسول، كيف وقد تَخَلّفـوا عنه في مواقِعَ شتى إبان حياته ، وكثيراً مـا عانى منهم ،ونزلت في نقريعهم آيـاتٌ من الذكر الحكيم .

لقـد كان أقـلُّ ما تفتـرضه هـذه العنايـة من جانب الله جـلَّ جـلالـه ، ورسوله الأكرم (صلى الله عليه وآله) بآل البيت(عليهم السلام)، الرجُوع إلى معارفهم ، والإستهداء بتعـاليمهم في جميع المجـالات الشرعيـة والفِكريـة ، وهو ما كان سيحفظ ـ على الأقل ـ وِحدة الأمّةِ فِقْهياً وعقائِدياً .

ومن الـطبيعي أنْ يؤدي التَّجافي عن آل الـرسـول كليّـةً ، إلى التشَـرْذُم الفِكري في الأُمة ، وهو ما حصل فعلاً .

العامل الثاني ـ منع كتابة الحديث

ومما زاد في الطِّين بَلّة ـ بعد وفاةِ الرَّسول الأكرم ـ نَهْيُ بعضِ الصَّحابـة أُولى النُّفـوذ ، عن كتـابـة الحـديث ، راوين في ذلـك روايـات عن الـرسـول الأكرم ، أو معلّلين إياه ببعض الأعذار الواهِيَة ، التي يبدو أنّها جميعها تهـدف إلى تحقيق بعض الغايات السياسية الخفيّة التي لا تخفى .

لقـد رووا عن رسول الله (صلى الله عليـه وآله) أنّـه قال : « لا تَكْتُبـوا عنّي ، ومن كتب عني غيـر القـرآنِ فَلْيَمْحِـه » .(١)

---

(١) سُنَن الذارمي ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

ورووا أنّه ورد يوماً على أصحابه ، وهم قُعود يكتبون ما سمعوه من حديثه .

فقال : « ما هذا ؟ تكتبون ؟ » .

قالوا : « ما نَسْمَعُ منك » .

فقال : « أكتابٌ مع كتاب الله ؟ » .

فقالوا : « ما نسمع » .

فقال : « أُكْتُبوا كتابَ الله ، وامْحَضوا كتابَ الله ، أكتابٌ غيرُ كتاب الله ، خَلِّصوه » .

قال أبو هريرة : « فَجَمَعْنا ما كَتَبْنا في صعيدٍ واحد ، ثم أحرقناه بالنار »[1] .

وعلّلوا ذلك النهي وأوّلوه بتأويلات :

منها : أنّ الصَّحابة كانوا أُمِّيّين ، لا يكتُب منهُم إلاّ الواحد والإثنان ، وإذا كَتَبَ لم يُتْقِن ولم يُصِبِ التَّهجّي . فحيثُ إن الرسول الأكرم خشي عليهم الغَلَط فيما يكتبون ، نهاهم[2] .

ومنها : أنّه نهى أَصحابه عن الكتابة ، لِئلاّ يعتمد عليه الكاتب ، فتضعُف حافظته ، فَيُهْمِله ويرغب عن العمل به[3] .

ومنها : أنَّ النهي إنما هو عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفةٍ

---

(١) سُنَن الدّارمي ، المقدمة ، ص ١١٩ .

(٢) ذكره إبن قُتَيْبة(م ٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مختلف الحديث) ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ . ط مصر ١٣٢٦هـ .

(٣) ذكره الحسين بن عبد الرحمن الرامهرمزي (توفي نحو ٣٦٠هـ) لاحظ تصدير (تقييد العلم) ، ص ٩ .

واحدة لئلا يختلط به ، ويشتبه على القارىء[1] .

ومنها : أنَّ النهي إنما كان خَشْيَة أَنْ يُتَّخَذ مع القرآن كتابٌ يضاهى به[2] .

وغير ذلك من التأويلات الباردة .

ولم يقف الأمر عند اختلاق هذه المرويّات ، بل تعدّاه إلى المنع القهري عن كتابة أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله) ، بواسطة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

فقد بلغ عمر أنَّ في أيدي الناس كُتُباً ، فاسْتَنْكَرها وكَرِهها ، وقال : « أيُّها الناس ، قد بلغني أنّه قد ظَهَرَت في أيديكم كُتُبٌ ، فأَحَبُّها إلى الله أعْدَلُها وأَقْوَمُها ، فلا يُبْقِيَنّ أَحَدٌ عنده كتاباً إلاّ أتاني به فأرى فيه رأيي » .

فظنوا أنّه يريد أنْ ينظر فيها ويُقَوِّمَها على أمر لا يكون فيه اختلاف فأَتَوْه بكتبهم ، فأحرقها بالنار ثم قال : « أُمْنِيّة كأُمْنِيّة أهلِ الكتاب »[3] .

فصارت هذه سنةً جارية ، وانقطع تدوينُ الحديث إلى أنْ تولّى عمر بن عبد العزيز(٦١ ـ ١٠١هـ) الخلافة سنة ٩٩هـ ، فأَحَسّ بضرورة تدوين الحديث ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن حزم : « أُنْظُر ما كان من حديث رسول الله ، فاكتُبْه ، فإنّي خفت دُروس العِلْمِ وذهاب العلماء »[4] .

ورغم ذلك، بقيت رواسب الحظر السابق حائلة دون القيام بما أمر به الخليفة ، فلم يُكْتَبْ شيءٌ من أحاديث النبي الأكرم إلاّ صحائف غير منظَّمة

---

(١) ذكره حمد بن محمد الخطابي البستي (٣١٧ ـ ٣٨٨هـ) ، معالم السنن ،ج٤ ، ص ١٨٤ .
(٢) ذكره ابن عبد البَرّ (م ٤٦٣هـ) ، جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ٧٠ .
(٣) تقييد العلم ، للخطيب البغدادي ، ص٥٢ .
(٤) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص٢٧ .

ولا مُـرَتَّبة[1] . إلى أنْ قـامت دولـة العبـاسيين ، فشـرع المحـدِّثـون وعلمـاء الإسلام في سنة ١٤٣هـ ، بتدوين الحديث .

فإذا كان هذا تاريخ تدوين الحديث وانتشاره ، يتبين بسهولة ما هي حالة هذا الحديث الذي لم يُكتب طوال قـرنٍ ونصف من الزمن . حـاسِبْهُ بـمنـطق العقل ، وتأمّل حاله مع تَرَصُّد الأعـداء بالإسـلام للنيل من عقيـدته ، ونبيِّـه ، ورمـوزه . ومع وجـود الرغبـة الجشعة لكـل حاكم ليبـرِّر سُلطانَه ، وظُلْمَـه ، واستبداده[2] .

العامل الثالث ـ إنتشار الأحبار والرهبان والملاحدة

لقد أَوجد إبعـادُ أَهل البيت عن السـاحة القيـاديّة والفكـريّة من جهـة ، وحظر تدوين الحديث طوال تلك المدة المديدة من جهة ثانية ، فرصةً ذهبيـة لا تُفَوَّت ، لمن يريـدون أنْ ينخروا عـظام الدين الإسـلامي في فكره وعقيـدته . فَهَبَّ المتـظاهرون بـالإسلام من الأحبـار والرُّهبـان والمَلاحِـدَة ـ بكل حـريّـة وبشكـل مريب ـ يَتَصَـدُّون للرواية بلسـان الـرسـول الأكـرم مـا يحلو لهم من الأسـاطير والخرافات التي تمسّ في الصميم أُصـول إعتقـادات المسلمين في ذات الباري تعالى ، وصفاته ، ومـلائكته ، وكتـابه ، وأَنبيـائه . ودسـوا أُلوف الأحـاديث المكـذوبـة في هـذا المجـال . فتلقـاهـا كثيـر من المسلمين تَلَقِّي المُسَلَّمـات ، ووجـدت أمـامهـا طـريقـاً معبَّــدةً للولـوج في صحـاح السُّنَـة

---

(١) إشتهر عند أهل السنة أنّ أول من دَوّن العلم إبن شهاب الزّهـري ، المتوفى عـام١٢٤هـ . مع أنّهم يـرون أنّ لعليٍّ (عليه السـلام) صحيفة معلّقـة في سيف ، عليها حَلْقـة حديـد ، فيهـا أحكـام الله تعالى أخـذها من النبيّ الأكـرم . (لاحظ تقييد العلم ، للبغـدادي ، ص٨٩) .
واتفقوا على أنّ الرسول الأكرم أذن لـ(عبد الله بن عَمْرو بن العاص) بكتابة أحاديثه ، فكان يكتبها ويقيّدها . (المصدر السابق ، ص٨٢ ـ ٨٥) .

(٢) وقد طوينا الكلام عن تحليل هذا المنع عقلاً وروايةً وغايةً ، ونتركـه إلى موضـع آخر ، بـإذن الله تعالى .

ومجاميعهم الروائية ، فتمسكوا بها من حيث لا يشعرون .

وقد أحدث ذلك خَلَلاً خطيراً في فَهْم مبادىء العقيدة ، الأمر الـذي جَرّ إلى ظهـور عشرات المـذاهب والآراء الغريبـة ، التي تناقض كـلّ المنـاقضـة المبادىء التي جاءت في القرآن ، حسب ما بَيّنها عليٌّ(عليه السـلام) والأئمة من آل بيت النبوة .

ومن أبرز شخصياتهم :

كَعْب بن مـاتِـع الحِمْيَـري ، المعـروف بـ« كعب الأحبـار » (تـوفي عـام ٣٤هـ) . من كبار علمـاء اليهود في اليمن ، أسـلم في زمن أبي بكـر ، وقَـدِم المدينـة في دولة عمـر ، فـأخـذ عنـه الصحـابـة كثيـراً من أخبـار الأمم السالفة .

تميم بن أوس الـداري ، (توفي عـام ٤٠هـ) . أسلم سنة ٩ ، وانتقـل إلى بيت المقدس بعد مقتل عثمان وتَرَهّب هناك .

وعبد الله بن سلام الإسرائيلي (توفي عام ٤٣هـ) .

وطاووس بن كيسان الخَوْلاني (٣٣ ـ ١٠٦هـ) .

ووَهْب بن مُنَبِّه الصَّنْعاني (٣٤ ـ ١١٤هـ) وقـد كان كثيـر الإخبار عن الكتب القـديمة ، عـالماً بـأساطيـر الأوّلين ، ولا سيما الإسـرائيليـات . كـان يقول : « سمعتُ إثنين وتسعين كتاباً ، كلّها أُنزلت من السماء ، إثنان وسبعون منها في الكنائس وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلاّ قليـل . ووجدت في كلِّها أنَّ من أَضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئـة فقد كفـر » . ولاّه عمر بن عبـد العـزيز قضـاء صنعاء . كتب كتـاباً في (القـدر) . قيل ثُمّ نَـدِمَ عليـه . وقـد امتُحن في كِبَر سِنّه وحُبِس .

و لَبِيد بن الأعْصَم اليهودي ، وابنُ أُخْتِه طالوت .

وعبد الكريم بن أبي العَوْجاء . قال المرتضى في أمـاليه : « لمـا قَبَضَ

محمد بن سليمان ، وهو والي الكوفة من قِبَل المنصور ، عبد الكـريم بن أبي العوجاء ، وأحضره للقتل ، وأيقن بمفارقة الحياة ، قال : « لئن قتلتموني فقد وضعتُ في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة »[1] .

وعبد الله بن المُقَفَّع المجوسي (١٠٦ ـ١٤٢) .

وأبو شاكر الدِّيصاني .

ووهب بن كبير أبو البَخْتَري (توفي عـام ٢٠٠هـ) كان قـاضياً وضّـاعاً للحديث . قال ابن سعد : إنّه كان يروي المُنْكَرات . وقال أحمد بن حنبل : هو أكذب الناس . وقال ابن الجارود : كان عامة الليل يضع الحـديث . وقال فيه المعافى التميمي :

وَيْـلٌ وَعَـوْلٌ لأبي البَخْتَـري ‏ ‏ ‏ ‏ إذا توافى الناسُ في المَحْشَـر

أمهات المذاهب الاعتقادية

الخوارج : أوّل فرقة كلامية

لقد أعقب انشقاق الخوارج عن جيش عليٍّ(عليه السلام) بعد خـديعة التحكيم في معركةِ صِفّين ـ أعقب مباشرة ـ طرح أوّل مسألةٍ كلامية على بِساط الجَدَل الكلامي بين المسلمين ، وهي مسـألة حُكْمِ مُـرْتَكِب الكبائـر ، ومـا يتفرع عليها . وقد تَوَلّى من نجا من الخوارج بعد معركة النُّهْروان عام ٣٩هـ ، التـرويج لهـا ، والمناظـرة فيها ، فكـانت بذلـك أوّلَ مسألـة كلاميـة بالمعنى المصطلح ، وكانت (الخوارج) أوّلَ فرقة كلاميّة تظهر في الإسلام .

وهكذا سجلت الفترة الواقعة ما بين أواخر خـلافة عليٍّ(عليـه السلام) وأوائـل سَلْطَنـة معـاوية بن أبي سفيـان ، بـداية المجـادلات الكـلاميـة بين

---

(١) أمالي المرتضى ، ج ١ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

المسلمين وانعقاد مجالس المناظرة في المدينة والبصرة ودمشق وغيرها من المدن الرئيسية آنذاك .

وقد انشعب الخوارج إلى فِرَقٍ عديدة ، أبرزها : العَجارِدة ، والأزارِقَة ، والنَّجْدِيَّة ، والصُّفْرِيَّة ، والإباضِيَّة ، وانقسمت هذه بدورها إلى فروع كثيرة[1] .

ورغم اختلاف الخوارج فيما بينهم وتَشَتُّت مذاهبهم ، إلاّ أنهم اشتركوا في مسائل ثلاث :

١ ـ إكفار علي (عليه السلام) ، وعثمان ، والحَكَمَيْن ، وأصحابِ الجمل ، وكلٍّ من رضي بالتحكيم .

٢ ـ إكفار مرتكبي الذنوب .

٣ ـ إيجاب الخروج على الحاكم الجائر .

وكان لكلٍّ من رؤساء هذه الفرق الخوارجيّة مجالس كلامية خاصّة ، يُثْبِتون فيها آراءهم ، ويحتجون لها من الكتاب والسنة .

وسرعان ما شهدت المدن الإسلامية انعقاد مجالس كلاميّة مضادة لمخالفي الخوارج في الرأي ممن يتمسكون أيضاً بالكتاب والسُّنة ويتحمَّسون لِرَدِّ بِدَع الخوارج وأضاليلهم . وكان أشهرها مجلسَيْ محمد بن الحَنَفِيّة (٢١ ـ ٨١هـ) والحَسَن بن يَسار البَصْري (٢١ ـ ١١٠هـ) الذي كان

---

(١) ذكروا من فرق الخوارج :

العجاردة ، والصّلتية ، والحازميّة ، والشعيبيّة ، والميمونيّة ، والمعلوميّة ، والخلفيّة ، والمجهوليّة ، والحمزيّة ، والثعالبيّة ، والمعبديّة ، والأخنسيّة ، والشيبانيّة ، والزياديّة ، والرشيديّة ، والمكرميّة ، والثعالبيّة الخلّص ، والأزارقة ، والنُّجديّة ، والعطويّة ، والفديكيّة ، والصّفريّة ، والإباضيّة ، والحفصيّة ، واليزيديّة ، والحارثيّة ، والإبراهيميّة ، والواقفيّة ، والضَّحّاكيّة ، والبيهسيّة ، والعوفيّة ، والشبيبيّة (وهم مرجئة الخوارج) ، والأصوميّة ، واليعقوبيّة ، والشُّمراخيّة .

يقول بأنّ مرتكبي الكبائر مؤمنون إلاّ أنهم فسقوا بارتكابهم الكبائر .

المعتزلة

وقد شَهِدَتْ هذه الفترة تَشَكُّلَ مذهبٍ فكريٍّ هام ، كان له فيما بعد تأثيرٌ كبيرٌ على مجرى الأحداث العقائدية والسياسية في المجتمع الإسلامي ، وهو مذهب (المعتزلة) .

ومؤسِّسُ هذه الطائفة هو الشيخ واصلُ بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١هـ) الذي كان من أبرز تلامذة الحسن البصري ، ولازم مجلسه مدّة من الزمن ، حتى إذْ تكونت لديه آراء تغاير آراء أُستاذه ، ترك مجلسه ، واعتَزَله . وما لَبِث أن انضمّ إليه الشيخ عَمْرو بن عُبَيد(٨٠ ـ ١٤٤هـ) فتعاونا على وضع أُسُس هذه الحركة الفكرية . وقيل لهما ولأتباعهما معتزلون ، لأنّهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري .

وكان اعتزال واصل بن عطاء يدور على أربع قواعد :

١ ـ نفي الصِّفات (الخبرية) .

٢ ـ القول بالقَدَر (أي الإختيار) .

٣ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين .

٤ ـ إيجاب الخلود في النار على من ارتكب الكبيرة .

وما عَتَم واصل بن عطاء عن ذلك ، حتى نشر مذهبه في الآفاق إذ أَوفد أَصحابه إلى المغرب وخراسان واليَمَن والجزيرة والكوفة وأرمينية . وبرزت فرقة (المعتزلة) بقوة على ساحة الفكر الإعتقادي الإسلامي .

وقد انشعب المعتزلة ـ بنحو عام ـ إلى مدرستين : مدرسة البصرة ، ومدرسة بغداد . ولكلٍّ من المدرستين منهجها الخاص في تحليل المسائل الإعتقادية .

كما تفرّعوا إلى فرق عديدة ، تبعاً لأكابر متكلّميها ، أبرزها : الواصليّة ، والعَمْرويَّة ، والهُذَيليّة ، والنَّظّاميَّة ، والبِشْرِيَّة ، والثُّمامِيَّة ، والخَيّاطِيّة ، والكَعْبِيَّة ، والجُبّائيّة ، والبَهْشَمِيّة .(١)

أهل الحديث

وفي تلك الفترة ، انتشر الفقهاء والمفتون في حواضر العالم الإسلامي : في المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والشام ، ومصر ، والقَيْروان ، والأندلس ، ثم بغداد .

وهؤلاء وإن اختلفوا في الأحكام الفقهيّة ، وفي طريقة الإستنباط الفقهي بين أهلِ قياسٍ ،وغيرهم(١)، ولكنّهم في باب العقائد كانوا يتبعون مسلكاً واحداً وهو : تحريمُ المناظرات الكلاميّة ، وعدم التجاوز في باب الإعتقادات عن الأحاديث التي رواها الصحابة والتابعون الأوائل عن الرسول الأكرم ، وإعدام العقل في هذا المجال ، وهؤلاء عُرِفوا بـ(أهل الحديث) .

وقد كانوا مع ذلك على مرتبتين في التعامل مع تلك الأحاديث :

فريقكانوا يلاحظون آسانيدها ورواتها ، ويؤلفون بين متونها ، وهم على درجات في ذلك .

وفريق آخر كانوا يأخذون بالغثّ والسَّمين منها بلا تمييز . ويَجْمُدون

---

(١) ومنها : الخابِطِيّة ، والحدثيّة، والمعمريّة ، والمُرْدارية ، والهشاميّة ، والإسكافيّة ، والجعفريّة ، والحائطيّة ، والجاريّة ، والجاحظيّة ، والشيطانيّة ، والأسواريّة .

(٢) وقد ظهر خلال القرون الهجريّة الأولى مئات المجتهدين ، وكان الناس يرجعون إليهم في مسائلهم الشرعية .وأما المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة الآن وهي : المالِكيّة والحَنَفيّة والشافِعِيّة والحَنْبَلِيّة ، فإنها لم تأْخذ رسميَّتها ويُمْنَع من العمل إلاّ بآراء أصحابها دون غيرهم من المجتهدين ، إلاّ في القرن السابع الهجري وبالتحديد سنة ٦٦٥هـ ، (لاحظ الخطط المقريزية ، ج ٢ ، ص٣٤٤ . ط دار صادر) .

على حرفيّة متونها وإنْ تَضَمَّنَت تجسيماً أو تنقيصاً . يأخذونها أخْذَ المُسَلَّمات معتقدين لزوم الإيمان بها مع التوقّف في معانيها ، وهؤلاء عرفوا بـ(الحَشْوِيّة) .

الإماميّة[1]

كما شَهِدَتْ تلك الفترة تَشَكُّلَ تفكيرٍ إسلامي خالص يستمد أُصوله من أئمة أهل بيت النبوة(عليهم السلام) ، وبالأخصّ الإمامَيْن محمد الباقر (٥٧ ـ١١٤هـ) ، وجعفر الصادق (٨٣ ـ١٤٨هـ) عليهما السلام . فَتَلَقّى أتباعهم تعاليمهم وضبطوها ، وناظروا فيها ، وأسّسوا حركة الفكر الإمامي ، التي لا تزال قائمةً على أُصولِها التي نشأت عليها ، إلى يومنا هذا[2] .

(١) وهم القائلون بإمامة الأئمة الإثني عشر من آل الرسول : علي بن أبي طالب . والحَسَن بن علي ، والحُسَيْن بن علي ، وعلي بن الحُسَيْن زَيْن العابدين ، ومحمد بن علي الباقر ، وجعفر بن محمد الصادق ، وموسى بن جعفر الكاظم ، وعلي بن موسى الرضا ، ومحمد بن علي الجواد ، وعلي بن محمد الهادي ،والحسن بن علي العسكري ، ومحمد بن الحسن المهدي المُنْتَظَر الذي لا يزال حياً يُرْزق ينتظر إذن الله تعالى له بالخروج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً .
وأما سائر مذاهب الشيعة التي ذكرها المؤرخون ـ وكثيرٌ منها مُخْتَلَق لا حقيقة له ـ فقد انقرضت وطغى عليها الزمن ، ولم يبق منها سوى الزَّيْدِيّة في اليمن ، وهم يتبعون في العقائد المذهب الأشعري ، والإسماعيلية في بعض النواحي ، ولهم آراء غامضة وأفاعيل مُنْكَرَة .

(٢) وقد التقت الإمامية ، والمعتزلة في بعض المبادىء واختلفتا في أُخرى :
فمن أبرز ما التقتا فيه : القول بالتحسين والتقبيح العقليَّين الإستقلاليَّيْن ، وما يتفرع على هذا الأصل من حكمته تعالى ولزوم العدل عليه ، وإنتفاء العَبَث عن فعله . ولهذا أُطلق عليهما إصطلاح (العَدْلِيّة) .
ومن أبرز ما أختلفتا فيه : أن الإمامية تقول بلزوم نصب الإمام نصّاً من الرسول الأكرم وأنّه علي بن أبي طالب، والمعتزلة تُنْكره. والإمامية تنفي الجبر والتفويض وتقول: أمرٌ بينهما، والمعتزلة تقول بالتفويض والإمامية تقول بأنّ المؤمن لا يخرج بالفسق عن الإيمان ، والمعتزلة تقول هو لا مؤمن ولا كافر بل في منزلة بين المنزلتين .

ومن أشهر متكلمي الإمامية في عهد الأئمة :

هشام بن الحَكَم ، وكان شديد الوَلاء والمحبة لأئمة أهل البيت ، وجُلموداً في المناظرة والإحتجاج لإمامتهم وأُصول مذهبهم ، ولذلك لم يَرَ المعاندون أمامَهم طريقاً للوقيعة به سوى نسبة بعض الآراء الزائفة إليه ، كالغلو والقول بالجسمية والتشبيه والحلول والجبر وغير ذلك ، ولا حقيقة لشيء من ذلك[1] .

ومحمد بن علي بن نعمان مُؤْمِنُ الطاق ، وهشام بن سالم الجَواليقي ، ومحمد بن حكيم ، ومحمد بن الطيّار ، وابنه حمزة ، وعلي بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفَضْل بنّ شاذان .

المرجئة

وفي تلك الفترة ظَهَر تفكيرٌ إعتقادي خطير ، يرى تقديم الإيمان على العمل ، ويقول بكفاية المعرفة والإعتقاد القلبي في الفوز بالجنّة والسعادة الأخروية ، من دون أنْ يَضُرّ به التقصير في الطاعة والعمل أو حتى تركه وإهماله . فمن مات على التوحيد ، لا يَضُرُّه ما اقترف من المآثم ، فإنّ كلّ ما دون الشرك مغفور ، وقيل إنّ أول من قال به هو (غيلان الدِّمَشْقِيّ) .

وقد عُرِفَ أصحابُ هذا الرأي بـ(المُرْجِئة) من الإرجاء بمعنى التأخير وإعطاء المُهْلة ، كما جاء في قوله تعالى ـ حاكياً به قول فرعون ـ : ﴿ أرْجِهْ وأخاهُ ﴾[2] ، أي أَمْهِلْهُ وأخّره ، فإنهم يُؤَخّرون العمل في الأهمية عن النيّة

---

(١) وقد كتب علماء الشيعة قديماً وحديثاً في دفع التُّهم عنه ورفع الشبهات حول بعض آرائه .
ومِمن كتب من المتأخرين : الشيخ عبد الله نعمة (هشام بن الحكم)، والسيد محمد رضا الحسيني الجلالي (مقولة جسم لا كالأجسام) ـ تراثنا ـ ربيع الثاني ١٤١٠هـ . فمن أراد التوسع فليلاحظهما .

(٢) سورة الأعراف : الآية ، ١١١ . وسورة الشعراء : الآية ٣٦ .

والإعتقاد . وقد يكون مُشْتَقاً من الرّجاء ، لأنهم يرجون الثواب من الله تعالى لأصحاب المعاصي .

وقد نفذت هذه الفكرة إلى الكثير من المتكلمين ، حتى قال بها بعض متكلمي الخوارج والمعتزلة والمُجبرة .

ولهذا ينقسم المُرْجئة إلى قسمين :

مُرْجِئَة خالصة ، وذكروا من فرقها : اليونسية ، والغَسّانيّة ، والثَّوْبانيّة ، والتُومَنيّة ، والعُبَيْديّة ، والصالِحِيّة .

وغيرها ، وهي الفرق الكلامية الأخرى التي ترى في جملة أفكارها الإرجاء . وقد عد مؤرخوا الملل والنحل الفقيه أبا حنيفة ، وتلميذه أبا يوسف من رجال المرجئة(١) .

المجبرة والمجسّمة والنّجاريّة

وفي تلك الفترة أيضاً ظهرت مذاهب إعتقادية تحمل أفكاراً متميزة ، أبرزها ثلاثة مذاهب :

المُجْبِرَة : وهؤلاء كانوا يُصَرّحون جهراً بأن الإنسان مجبورٌ في أفعاله كلِّها ، ولا قدرة له على شيء منها ، كما لا يكتسب شيئاً من نتائجها . فالإنسان مجرد آلة عمياء تحركها يد الله تعالى ، في كل أفعاله الحَسَنة والشِّريرة .

وأوّل فرقة صرحت بهذا الجبر الخالص هي (الجهمية) أتباع الجهم بن صفوان (قتل سنة ١٢٨هـ) .

---

(١) الملل والنحل ، للشهرستاني ،ج١، ص ١٣٠ ، بتخريج بَدْران . ولاحظ : رجال الكشي ، الرقم ٢٣٢ ، ص ١٩٠ .

ومن فرقهم : الضرارية ، والبكرية ، والبطيخية ، والصباحية ، والفكرية ، والخوفية .

المُجَسّمة : وهؤلاء كانوا يصرّحون بأنّ الله (جل جلاله) جوهر ، وجسم من الأجسام ، وجاؤوا في ذلك بافتراءات شنيعة . وقد تبع هذا الرأي خلق كثير من عُبّاد الشام .

وأول من قال بهذه المَقولة هو محمد بن كرّام (تُوفّي عام٢٥٥ أو ٢٥٦هـ)،وكان إماما لطائفتي الشافِعيّة والحَنَفيّة .

وانقسمت الكرّامية إلى اثنتي عشر فرقة ، أُصولها ستة : العابديّة ، والتّونية ، والزَّرينيّة ، والإسحاقية ، والواحدية ، والهَيْصَمِيّة .

٣ ـ النَّجّاريّة : وهم أتباع الحسين بن محمد النَّجّار (توفي عام ٢٣٠هـ) . وهؤلاء جمعوا بين عقائد أهل الحديث وعقائد المعتزلة[1] ، ولذا عُدّوا فرقة مستقلة برأسها .

فقد وافقوا أهل الحديث في الجَبْر مع الكَسْب وتأثير القدرة الحادثة . ووافقوا المعتزلة في نفي الصفات ، ونفي الرؤية ، وخَلْق القرآن .

* الفتن الدموية ومحنة خلق القرآن

كان من الطبيعي أنْ يَنْجَرّ هذا التنافر العقائدي بين الفرق الإسلامية ، وما استتبعه من استفزاز وتكفير وعمىً عن تطلّب الحقيقة ، إلى حدوث الإحتكاك والتصادم بين المسلمين .

لقد ماج العالم الإسلامي بالفتن والثورات ، وعانى ويلات الحروب الداخلية والمحن ، سنين مديدة من الزمن ، منشؤها اختلافات في الفكر والعقيدة ، وخاصة في الإمامة ، والقَدَر،وخَلْق القرآن .

---

(١) من دون أن يسلكوا منهجاً فكرياً خاصّاً ، كما فعل الأشعري ، على ما سيأتي .

ونحن نطوي الكلام عن تلك المحن ، ونكتفي بالإشارة إلى محنة خلق القرآن لأنّها مهدت لحدوث إنقلاب فكري كبير في عقائد أهل السنة ، يتمثل باضمحلال مذهب المعتزلة ، وتأسيس المذهب الأشعري .

لقد كانت مسألة قدم كلامه تعالى ، أو حدوثه ، مطروحة في الأوساط الكلامية منذ أوائل القرن الثاني لكنها لم تكن لتتجاوز مجالس المناظرة والإحتجاج : المعتزلة يقولون بحدوث الكلام ، وأهل الحديث وغيرهم يقولون بقدمه .

وظلت الحال على تلك حتى أواخر ذلك القرن ، عندما اشتدّ ساعد المعتزلة باعتناق الخلفاء العباسيين لآرائهم الإعتقادية ، فاشتد النقاش في المسألة واحتدم ، حتى كانت سنة ٢١٨هـ ، عندما بدا للمأمون (١٩٨إلى٢١٨هـ) الخليفة العباسي السابع ـ بإيعاز من وزرائه المعتزلة ـ أنْ يَدْعُوَ الناسَ بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن وحدوثه ، فكتب إلى الآفاق باستجواب جميع الفقهاء والعلماء ، فَمَن لم يُقرّ بها ضُرِبَتْ عُنُقُه .

وَخَلِفَهُ المَعْتَصِم (٢١٨ الى ٢٢٧هـ) والواثق (٢٢٧إلى ٢٣٢هـ) على هذه السيرة . فَطُورد الفقهاء ، واعتُقِلوا ، وعُذِّبوا ونُكِّل بهم ، فمنهم من أقرّ ومنهم من أصر على رأيه وصمد ، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل . وابتُلِيَ عامّة الناس بذلك ، فأُريقت دماءٌ كثيرة .

إلى أن مات الواثق سنة ٢٣٢هـ ، واستلم المتوكل (٢٣٢ إلى٢٤٧هـ) السلطة ـ وكان موالياً لأهل الحديث ـ فانقلبت الدائرة على المعتزلة ، وابتدأ الضغط والتضييق على متكلميهم ، إذ كتب المتوكل إلى الآفاق بمخالفة القائلين بالإعتزال . ومن حينها بدأت شمسهم بالأفول ، حتى ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِم الأيّام .

الأشاعرة

وفي أواخر القرن الثالث الهجري ، إنشَقّ عن الشيخ أبي علي الجُبّائي (المتوفى عام ٣٠٣هـ) ـ وهو من أساطين المعتزلة ـ تلميذُه أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ) ، وأعلن براءته من الإعتزال في مسجد الكوفة ، إذ رَقى كُرْسِيّاً يومَ الجُمُعة ، ونادى أمام الناس بأعلى صوته :

« من عَرَفَني فَقَدْ عَرَفَني ، ومن لَمْ يَعْرِفْني فأنا أُعَرِّفُه نفسي ، أنا فلانُ بنُ فلان، كنتُ قلتُ بِخَلْقِ القُرآن، وأنّ الله لا يُرى بالأبصار، وأنّ أفعال الشَّرِّ أنا أَفْعَلُها ، وأنا تائِبٌ مُقْلِعٌ ، مُعْتَقِدٌ للرّدّ على المعتزلة » .

ثم قام بإنشاء مذهبٍ إعتقاديٍّ جديد ، جَمَع فيه بين الطريقة العقليّة في التفكّر الإعتزالي ، وما ورد في ظواهر الأحاديث التي يرويهاأهل الحديث والحَشْوية ، فَعَدَّل معتقداتهم ، ودَعَمَها بالبراهين النظريّة ، مما جعل مذهبه يلاقي رواجاً لدى عامّة الناس والسُّلُطات الحاكمة ، حتى غدا المذهب الرسميّ للدولة ، وطغى على سائر المذاهب الإعتقاديّة الأُخرى . ولا يزالُ إلى يومنا الحاضر ، المذهَبَ الرسميّ الإعتقادي لأكثر أهل السُّنّة[1] .

السلفيّة

لقد أوجد المنهج العقلي الذي سَلَكه الأشعري وأتباعه في تعديل عقائد أهل الحديث ، شعوراً بالإمتعاض لدى بعض فقهاء أهل الحديث من الحنابلة ، وأدّى إلى حصول بعض ردّات الفعل السَّلْبيّة والمجابهات بين الطَّرَفَيْن ، بين الفِئَة والأخرى .

وفي أواخر القرن السابع الهجري ، إنْتَفَضَ أحد فقهاءِ الحنابلة ، وهـ

(١) من أبرز الأفكار التي طرحتها الأشاعرة : الكلام النفسيّ ، والبَلْكَفة ، والجَبْر مع الكَسْب ، وإنكار لزوم العدل على الله تعالى .

أَحمـد بن عبد الحليم المعـروف بـ« إبن تَيْمِيّة » الحَـرّاني الـدِّمَشْقي (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) ، منتصـراً للحنابلة المتعصّبين على المـذهب الأشعـري الـرائج . فقـام بإحيـاء بعض عقائـد أهل الحـديث ، وبالأخص مـا يرجـع إلى التشبيـه والصِّفات الخبريـة عامـة ، من دون أي توجيـه وتصرّف . وهـاجم التأويـلات التي ذكرها الأشاعرة في كتبهم حول تلك الأحاديث .

ولم يكتف إبن تيمية بذلك ، بل أدخل في عقائـد السلف أُموراً لا يُـرى منها أثر في كتبهم ، فَعَدّ السفر لزيارة الرسول الخاتم بِدْعَةٍ وشِرْكـاً ، كما عـدّ التبرك بآثـاره والتوسـل به وبـأهل بيتـه والصالحين ،أشياء مضادة للتـوحيد في العبـادة . وأنكـر كثيـراً من الفضـائـل الـواردة في آل البيت ، والمـرويـة في الصِّحاح والمسانيد حتى في مُسْنَد إمامِهِ أَحمد . وقام بترويج الفكرة العثمانية التي تعتمـد على التنقيص من الإمام عليّ(عليـه السلام) ، وإشـاعـة بُغْضِـه وعناده ، وأسّس بذلك حركة (الفِكْر السَّلَفي) .

ولكن الـرياح المُـدَمِّرة عصفت بـه من كل جـانب ، وقابـل المحققـون وفقهاء المذاهب منهجه بالطَّعْن والرد الشديدَيْن . فأَفْرَد البعضُ في الوقيعة بـه تآليف حافلة ، وضمن البعضُ الآخر كُتُبَهُ ما يزيف آراءه ومعتقـداته ، ويُعَـرِّفه للمسلمين بِبِدَعِه وافتراءاته .

فلم يتأثّر بدعوته إلاّ القليل من تلامذتـه ، كإبن القَيِّم الجَـوْزِيَّة (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) ، وبعض الأتباع في الشام وقليـل في مصر . ولـذلك خمـدت بذرة الضلال ، ولكن إلى حين .

الوهابية : السلفية الحديثة

ظلت بذرة الضلال مـدفونـة في الكتب وزوايا المكتبـات ، إلى أن جاء الزمان بـ« محمد بن عبد الـوهاب النَّجْـدي » (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) في القرن الثاني عشر ، فحذا حَذْوَ ابن تيميّة ، واتَّبَع طـريقَتَه ، وأحيـا ما دَثَـره الدهـر ،

ودعـا إلى السَّلَفِيّة من جـديد ، ولكن بعصبيـة وتعنُّت شديـدين ، فَكفَّر عـامّة المسلمين ممن ليسوا على طريقته ، ودعا إلى إزالة ما يراه بِدَعاً ، بقوة السيف والنار .

فلمـا انتشر أمـره في نَجْد ، إسْتَغَـلّ الفُرْصـة أُمراء نجـد من آل سعـود للسيطرة على شبه الجزيرة العربية ، فأعلنوا اعتناقهم لمذهبه ، وأمالـوا الناس إليهم ، وخـاضوا مـع المسلمين حـروبـاً داميـة ، حتى تمكنـوا بعـد الحـرب العالمية الأولى وتقسيم البلاد العثمانية ، من السيطرة رسمياً على شبه الجزيرة العربية وإقامة مملكة على أُسُس الإعتقاد " الوهابي السلفي " .

الوضع الراهن

ينقسم المسلمون الآن ، من الناحية العقائدية ، إلى مذهبين رئيسيّين :

١ ـ الإماميّـة .

٢ ـ الأشعريّـة .

وتـوجد مـذاهب إعتقاديّـة متفرقـة في بعض نـواحي البـلاد الإسـلاميّـة أبرزها :

ـ الزيديّة ، في اليمن .

ـ الاباضيّة من الخوارج ، في سلطنة عُمان .

ـ الوهّابيّة ، في الحجاز .

ـ الإسماعيليّة ، في شمالي أفريقيا والهند .

كما بدأ يظهر أخيراً توجّـه نحو الفكـر الإعتزالي المنقـرض ، في بعض أوساط المثقّفين من أهل السنّة . إضافـة إلى ابتلاء الأمـة ببروز فكـرة الإرجاء

على نطاق واسع ، نتيجة تأثير الأفكار الإلحاديّة والإنحلاليّة الغربية ونفوذها في العالم الإسلامي .

****

هذه لمحة تاريخيّة عامة عن ظهور علم الكلام ، وأبرز مذاهبه الفكرية مُنْذ ظهر إلى يومنا هذا .



الفصل الأوّل
وجوب المعرفة

وجوب معرفة أصول الدين

إن معرفة خالق الكون وصفاته وأفعاله ، أمر يوجبه العقل والنقل .

والعُمْدة في إثبات ذلك هو الأدلة العقلية ، وأما النقلية فنذكرها من باب الإستئناس والتأييد وزيادة البصيرة . إذ يستحيل أن يكون الدافع إلى وجوب المعرفة هو النقل دون العقل ، كما زعم أهل الحديث والأشاعرة ، لأنّ النقل قبل المعرفة ، لا حُجِّيّة فيه أصلاً ، فكيف يكون دافعاً وموجباً للمعرفة ؟ .

١ ـ الأدلّة العقلية

الدليل الأول ـ لزوم شكر المنعم

إن للعقل النظري أحكاماً يحكم بها على الأشياء من ملاحظتها بما هي هي ، أي بالنظر إلى ذواتها وماهياتها فقط ، وبِغَضّ النظرِ عن ملاحظة أية مصلحةٍ شخصية أو نوعية قد تُصاحبها . يُدْرِك ذلك كلُّ الناس ، مهما اختلفت بيئاتهم وأفكارهم .

فمن تلك ، حكم العقل بلزوم شكر معطي النعمة ، وثنائه على ما أولاه من معروف ، ومجازاته على ما أظهره من تودّد وتلطّف .

ولا يكون هذا الشكر ملبيّاً لذاك النداء الفطري ، إلاّ إذا كان بما يناسب

حال المشكور ، وإلاّ فلو كان دون مقامه ، لم يكن شكراً ، بل ربما عُدّ إهانـة واستخفافاً .

وعلى هذا ، فلا بُدّ من معرفة المُنْعم تمام المعرفة ، ثم أداء شكـره بما يناسب شأنه ومقامه .

إذا اتضح لك ذلك ، فاعلم :

أننـا نرى في الـوجود حـولنا ، وفي أنفسنـا ، من أسباب تيسيـر الحيـاة وتوفير المعاش، ما لا يُعدُّ ولا يُحصى ، وهذه كلها خيرات ونعم ، أَنْعَمَها علينا مُنْعِمٌ كـريم ، فتوجب عقـولنا علينـا شُكْرَ مُنْعمهـا ومُفيضها . ولكنّ الشكـرَ لا يكون إلاّ بما يناسب حال المنعم ، لئلا يقع هنـاك إجحاف وتقصيـر في شكره ـ وهو قبيحٌ مذموم ـ فنبحث ـ إذن ـ عنه بالتأمُّل والتفكُّر ، والنظر والإستدلال ، لنَعْرِفه بما أمكن ، بجماله وعظمته وجلاله ، فنؤدّي شُكْرَه قَدْرَ طاقتنا والميسور لنا .

***

الدليل الثاني ـ لزوم دفع الضرر

من جملة ما يحكم به العقل الفطري ، لزوم دَفْع كلِّ إنسان جميعَ أنواع الضرر والألم والأذى عن نفسه ، ماديّةً كـانت أم نفسية . ويُقَبِّـح على الإنسان أن يَتْـرُكَ نَفْسَه فـريسةَ العـذاب ، وأسيـرة الضَّيـاع ، وهـو يجـد لهـا مخلصـاً ومهـرباً ، ويملك قـدرة وطاقـة ينجو بهـا إلى هناء الـراحـة وجَنَّـة الـطُّمَـأْنينـة والسعادة .

والإنسـان عنـدمـا يبلغ أوان إدراكـه وتفتُّـحَ وَعْيـه ، يـرى المجتمعـات البشرية التي يعيش فيها ـ وفيها أهل الصلاح والتعقل والدرايـة ـ تتخبط بالآراء المتناقضة والمذاهب المختلفة ، وكلّ طائفة من الناس تدعو إلى مذهبها وترى أنّ فيه النجاة والسعادة ، وتُحَذِّرُ من مخالفته وترى فيه الهلاك والشقاوة .

وفي خضم هذه الأجواء ، يقف الإنسان مرعوباً في نفسه ، مضطرباً في

باطنه ، وليس أمامه إلاّ أن يسلك طريقاً يؤمّن له النجاة ـ كما يدفعه إليه عقله ـ دفعاً لهذا الخوف والألم النفسانيين :

فإمّا أن يعتقد بجميع المذاهب . ولكنه مستحيل ، لأنها متناقضة في دعاويها فإنّ كلاًّ منها يُبطل الآخر ويخطِّؤه . فلا بُدَّ له ـ إذن ـ أن يختار أحَدَها .

فهذا الذي يختاره ، إمّا أن يختاره عن هوىً وتقليد ومتابعة عمياء للغير ، فإنه حينذاك لن ينجو مما كان فيه من حالات الخوف والإضطراب والعذاب النفسي .

وإما أنْ يختاره عن دليل مقنع ، وبرهان واضح وقاطع لكلِّ شكٍّ ورَيْبة ، فعند ذاك يندفع عنه خَوْفُه ، ويزول ألَمه ، ويأْمن في أجواء العقائد المتضاربة ، وهو المَتَعَيِّن .

ومن هنا يَظْهر أنَّ العقلَ كما يُلزِم الإنسان بالمعرفة ، يُلزمه أيضاً بأن تكون عن دليلٍ وبرهان يقيني ، لا عن تقليد ومتابعة عَشْوائِيّة .

***

الدليل الثالث ـ المعرفة ضرورة فكرية

إن في هذا الكون ، وهذه الحياة التي يحياها الإنسان ، ظواهر طبيعية مختلفة :

ففي السماء نجومٌ وكواكب ونَيازك . وفي الجوِّ سَحابٌ ورَعْد وبَرْق ومطر . وعلى الأرض جبال وأدغال وأنهار وبحار ، وفيها الطيور والسباع والحيتان والبشر . والجميع في حالة تَغَيُّر وتَبَدّل ، ونُمُوٍّ وفَناء .

ومن بين جيمع هذه الموجودات يبرُز الإنسان كموجود متميز ، ذي قوة عاقلة مُفَكِّرة ، يعمل ويَكْدح ويناضل لأجل البقاء ، ويموت ويولد مثله .

وعندما بيدأ الإنسان بِوَعْي ذاتِه ووجوده ، ويَجِد نفسَه واقعاً بين جميع

هذه المتغيِّرات الكونيّة ، تَخْتَلِج في باطن نفسه أسئلة تطالبه بإلحاح شديد بالجواب عنها ، بحيث لا يمكنه أن يمر عليها بلا اكتراث ، وهي :

١ ـ من أين أتَيْتُ ؟ .

٢ ـ ولماذا أتيتُ ؟ .

٣ ـ وإلى أين أذْهَب ؟ .

فهو يتساءل في السؤال الأول عن مبدأ الوجود . وجوابُه بإثبات الخالق ووَحْدانيّته .

ويتساءَل في الثاني عن الغاية من خَلْقِه . وجوابُه بإثبات حِكْمة الخالق ، وبَعْث الرسل بالتكاليف والشرائع .

ويتساءَل في الثالث عن النهاية التي يؤول إليها بعد موته . وجوابه بإثبات المَعاد والعالَم الأُخروي .

وهذه الأسئلة تطرحها النفس البشرية من صميمها ، من دون اختصاص بطائفة من البشر ، وفي جميع الظروف البيئيّة والإجتماعية . وجوابُها يشكِّل لُبَّ المعارف العقائدية .

***

٢ ـ الأدلّة النقليّة

وتنقسم إلى قسمين :

القسم الأوّل : الآيات الحاثّة على التفكّر

الآيات الواردة في الحثّ على التأمّل والتفكّر ، تهدف إلى بيان الطرق والوسائل التي توقظ عقل الإنسان وفِطْرَتَه ، ويَتَنَبَّه بها إلى الحقائق والمعارف التي يتساءل عنها ، ويَتَطَلّب جوابَها .

وهـذه الآيات تـدعـو الإنسـان إلى التفكُّـر في ظـواهـر الخَلْق والكـون المحيط به ، التي قسّمها القرآن إلى قسمين :

آيات آفاقيّة : وهي تَعُمّ كلَّ ما يحُيط بالإنسـان من مظاهـر الوجـود ، إنْ في الأرض أوْ في السماء .

وآيات أنْفُسيّة : وهي المتجلّية في خِلْقة الإنسان العجيبة ، على جميع الأصعدة : بدنه وجسمه ، وروحه ومعنوياته .

قال الله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنـا في الآفاق وفي أَنْفُسِـهِمْ ، حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّه الحَقُّ** ﴾[1] .

والآيات الآمرة بالتفكر ، والحاثّة عليه ، كثيرةٌ ، نذكر منها :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ **قُلِ انْظُروا ماذا في السَّمواتِ والأَرْضِ . .** ﴾[2] .

ففي هذه الآية ، يأمر الله تعالى نبيَّه بأنْ يُنْذِر الناسَ بقوله : أُنظُروا مـاذا في السموات والأرض من المخلوقات المختلفة المتنوعة البديعة ، وما يسودها من نَـظْم وانضبـاط عجيبين ، والتي تُشَكِّـل كـلُّ واحـدةٍ منهـا ، فضــلاً عن مجمـوعها المنسجم المتنـاسق ، آيةً تـدعو إلى الإيمـان بالصـانع ووَحْـدانيته وعِلْمه وقُدْرته وحِكْمَته .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكّروا في أَنْفُسِهِم ، مـا خَلَقَ الله السموات والأَرْضَ وما بَيْنَهُما إلاّ بالحَقّ وأَجَلٍ مُسَمىً** ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **في أنفسهم** ﴾ ،إما ظرفٌ ، والمعنى هـو : أَوَلَم يتفكّروا في حال الخلوة ، لأنّ في تلك الحال يتمكن الإنسـان مِنْ نَفْسِه ، ويَحْضُـرُه ذِهْنُه ، وَيَسْتَجمع طاقاته الفكرية .

---

(١) سورة فُصِّلَت : الآية٥٣

(٢) سورة يونس : الآية ١٠١ .

(٣) سورة الروم : الآية ٨ .

أو متعلَّق التفكّر ، فيكون المعنى : أَوَلَمْ يتفكـروا في أمر أنفسهم كيف هي مخلوقة ، وما فيها من الدقـة والإحكام في البُنْيـان والإنسجام بين أعضـاء البـدن وخلايـاه وأنسجته ، التي لمّـا تـزل أسـرارهـا تتجلّى مـع تقـدّم العلوم وتطورها .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ ، أي لغايةٍ وهَدَفٍ ، لا باطلاً وعَبَثاً .

فهذه الآية تَحُثّ على التفكّر ، وتؤكد على ضـرورة التدبّـر في خلق الله تعـالى وصُنْعه ، وتقـول إن هذا التفكـر يوصـل الإنسان إلى إدراك حِكْمَـةَ الله تعالى ، وانتهاء الوجود إليه تعالى .

ج ـ قولُه تعالى : ﴿ قُلْ سيـروا في الأَرْض فانْـظُروا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ، ثُمَّ الله يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(1)] .

قال العلامـة الطبـاطبائي (رحمـه الله) : « الآية أمْـرٌ للنبيّ (صلى الله عليه وآله) أنْ يخاطِبَهم بما يُتِمُّ بِـهِ الحُجَّة عليهم ، فيُـرْشِدُهم إلى السَّيْـر في الأرْض لِيَنْـظُروا إلى كيفيّـة بـدْءِ الخَلْقِ وإنشـائهم على اختـلاف طبـائعهم ، وتفـاوتِ ألوانهم وأشكـالهم ، من غيـر مِثـال سـابقٍ ، وحَصْـرٍ أو تحـديـد في عددهم ، ففيه دلالةٌ على عَدَم التحديد في القُدْرة الإلهية . فهـو يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخرة ، كما أَنْشَأَ النَّشْأَةَ الأُولى »[(2)] .

د ـ قـولـه تعـالى : ﴿ أفَـلا يَنْـظُرونَ إلى الإبِـلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وإلى السَّمـاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإلى الجبـالِ كَيْف نُصِبَتْ * وإلـى الأرضِ كَيْـفَ سُطِحَتْ ﴾[(3)] .

فها إنّك تُـلاحظ في هذه الآيـات الحثّ الأكيد على النـظر والتأمـل في

---

(1) سورة العنكبوت : الآية ٢٠ .

(2) الميزان في تفسير القرآن ، ج ١٦ ، ص ١١٧ .

(3) سورة الغاشية : الآيات ١٧ ـ ٢٠ .

العلامات والظواهر التي ذَكَرْتُها ، لِما فيها من الدلالة على رُبُوبيّةِ الله تعالى وتَدْبيره لهذا الكون ، المُقْتضي للزوم اتخاذه ربّاً ، وعِبادَتِه وَحْدَه .

ومن المعلوم أنّ مُجَرَّدَ المشاهدة ليس هو المطلوب ، وإنما المطلوبُ مشاهدةُ تفكُّر وتَدَبُّر ، تَتعقَّبُها معرفةٌ كونيّةٌ بِمُنْشِيءِ هذه الظواهر ومُدَبِّرها . وهو ما يُسَمّى عند الفلاسفة الإسلاميين بـ« الإستدلال الآيَويّ » وهو الإستدلال بالآية على ذيها ، وبالأثر على مُؤَثِّره[1] .

وغير ذلك من الآيات .

القسم الثاني : الآيات الدالّة على كون المعرفة العقائدية عن دليل

جاء في الذكر الحكيم جملة من الآيات التي تَذُمّ وتُقَبِّحُ ما ذهب إليه الكُفّار من اعتناق العقائد الباطلة . ومُسْتَنَدها في هذا الذمّ ، سلوكُهم ذلك الطريق بلا بيِّنَةٍ ولا برهان ، بل متابعةً عمياء لآبائهم ، أو إستسلاماً لبعض الظنون والأوهام . وتناقِشُهم فيما ذهبوا إليه ، مطالِبَةً إيّاهم بالدليل اليقيني عليه .

وهذا بمجموعه يَكْشِفُ عن أنّه تعالى لا يرى أيَّةَ قيمةٍ أوْ عذرٍ للإعتقاد عن تقليد وتَبَعِيّة وظَنّ ، وإلّا لكان الكفّار معذورين ، ولَما استحقّوا ذمَّه تعالى . بل المَسْلك الوحيد الذي يرتضيه الله تعالى ، ويُعَذّر سالكه ، هو استناد معتقداته ـ أيّاً ما كانت ـ إلى الدليل القطعي والبُرهان العلمي . وما ذاك إلّا لأنّ هذا المسلك هو الموصل إلى الحق يقيناً ، وما سواه مسالك مُتَعَرّجة تنحرف بالإنسان عن جادّة الصواب .

ومن الآيات الواردة في هذا المقام :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم ما تَدْعونَ من دونِ الله ، أروني ماذا

---

(١) وسيوافيك مزيد بيان حوله في المباحث الآتية .

خَلَقوا من الأرْض ، أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّموات ، ائتوني بكتاب منْ قَبْلِ هذا ، أوْ أثارَة منْ عِلْمٍ إنْ كُنْتُم صادقينَ ﴾[1] .

فالآية تُناقش المُشركين في عقيدتهم بوجود آلهةٍ غيرِ الله ، بأنّه ما هو دليلكم على هذه العقيدة ؟ :

ـ هل لتلك الآلهة آثارٌ في الأرْض ، ومخلوقاتٌ تقوم بتدبير شؤونها ؟ .

ـ أم لتلك الآلهة ظواهر في السماء والأفلاك ، متميّزة عن سائر النُّظُم الكونية تختص بتدبيرها ؟ .

ـ أم هل جاء ذِكْر هذه الآلهة في كتابٍ سماوي سابق ، يَدُلُّ على ألوهيتها ولزوم عبادتها ؟ .

ـ أمْ هل عندكم دليلٌ علمي آخر يوجب اليقين بألوهيتها ؟ .

إنّ من يعتقد بعقيدةٍ ما ، لا بُدّ أن يكون له دليل عليها ، وإلاّ فهو منحرف ، وعُذْرُه غيرُ مقبول ، وكلامه غيرُ مسموع .

قال الخطيب البَغْدادي : « والأثارة والأثَرَة راجعان في المعنى إلى شيء واحد ، وهو ما أُثِر من كُتُب الأوّلين ، وكذلك سبيلُ من أدّعى علماً أو حَقّاً من حقوق الأملاك ، أن يقيم دون الإقرار بُرهاناً ، إما شهادة ذَوَيْ عَدْل ، أو كتاباً غير مموّه ، وإلاّ فلا سبيلَ إلى تصديقه »[2] .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ * أفَلا تَذَكَّرون * أمْ لَكُم سُلْطانٌ مُبِينٌ * فَأْتوا بِكِتابِكُم إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[3] .

---

(1) سورة الأحقاف : الآية ٤

(2) تقييد العلم ، للخطيب البغدادي ، ص٧٠ـ٧١ .

(3) سورة الصافات : الآيات ١٥٤ ـ ١٥٧ .

وهـذه الآية واردةٌ في الـردّ على المشركين الـذين أشـركـوا بـالله تعـالى خَلْقَه ، وجعلوا له البنات سبحانـه ، فجاءت بعـد قولـه تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَناتُ وَلَهُمُ البَنُونَ * أَمْ خَلَقْنا الملائِكَةَ إناثاً وَهُمْ شاهِـدونَ * ألا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقـولـونَ * وَلَـدَ اللهُ وَ إِنَّهُمْ لكـاذِبـون * أَصْطَفى البَنـاتِ على البَنِينَ ﴾[1] .

ثم بعـد أن ذَكَر معتقـداتِهم الأثيمة والآفكـة هـذه ، طـالبهم بـالـدليـل عليها ، إذ لا يمكن ـ بِحُكْم الفِطرة والوُجدان ـ قبولُ أيّة مَزْعمة وعقيدة إلّا بعد إقامة الدليل المُحْكَم المُبين الذي لا يقبل الريب ، عليها .

ومن هـذا المُنْطَلَق ، يُـوَبِّخهم على هـذا المسلك العشْـوائي الـذي انتهجـوه بقولـه : ﴿ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمـونَ * أفَـلا تَـذَكَّـرونَ ﴾ . أي أفَـلا تَتّعِظون فَتَنْتَهون عن مِثْلِ هذا القول .

ثم يطالبهم بالبُرهان عليه ، بصورة الإستفهام الإنكاري ، أعني مُتَضَمِّناً إنكار أنْ يكون لهم أيّ برهان ، فيقول :

﴿ أمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبين ﴾ . أي حجّة بيّنة على ما تقولون وتَدَّعون .

﴿ فَأتوا بِكِتابِكُم إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ ﴾ . أي فـإن كانت لكم حُجّـة بَيّنة ، فأتوا بِكُتُبِكُمْ التي دُوِّنَتْ فيها أدِلّتكم وبراهينكم على ما تعتقدونه .

فالآيات ـ إذن ـ تُحاور من مُنْطَلَق وأساس فطري ، وهو لزومُ إستناد كلِّ دعوى ومعتَقَد إلى برهانٍ بَيّن ومُقْنع ، يدعمـه ويُصَدِّقـه ، وإلّا فلا قيمـة لتلك العقيدة في سوقِ العقلاء ، بل ليست هي إلّا إفكٌ وافتراء ليس وراءه إلّا أهواء نفسانية ، وأغراض شخصيّة دُنيوية .

ج ـ قـوله تعـالى : ﴿ وما يَتّبِـعُ أكْثَرُهُم إلاّ الـظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ

---

(١) سورة الصافات : الآيات ١٤٩ ـ١٥٣ .

الحَقّ شَيْئاً ، إنّ الله عليمٌ بما يَفْعَلونَ ﴾[1] .

أي ما يتّبع أكثر الناس فيما يعتقدونه إلّا ظنّاً مُسْتَنِداً إلى خيالات فاسدة وإنّ الظنّ لا يُغني من الإعتقاد الحقِّ شيئاً .

وفي قوله تعالى : ﴿ إنّ الله عليمٌ بما يَفْعَلونَ ﴾ ، وعيدٌ على اتباعهم الظّن وإعراضهم عن البرهان المفيد لليقين وطمأنينة النفس .

وغير ذلك من الآيات .

***

المسلم والمؤمن

إن المقدار الضروري واللازم لصَيْرورة الإنسانِ مسلماً ، محقونَ الدّم ، طاهراً، محترَم المالِ والعِرض، نَفْيُه الشريك لله تعالى ، وإثباتُه النُّبُوّةَ لمحمدٍ بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) . ويكفي في ذلك مجرّد الشهادة -بهذين الأمرَيْن ، بأن يقول : (أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله ، وأَشْهَدُ أنّ مُحَمّداً رسولُ الله)[2] .

ولكن الأمر لا ينتهي هنا ، فإنّ هذه المرحلة اللفظية تخلُق من الإنسان مسلماً ظاهرياً فَحَسب ، تترتَّب عليه الأحكام الدُّنْيويَّة لدين الإسلام . وأمّا ترتب الآثار الأُخْرَوِيَّة ، وهي الفوز بالجنَّة والسعادة الخالدة ، والنَّجاة من النار والشقاء ، فدونه أُفُقٌ أَبْعد ، ألاّوهو الإذعان القَلْبي الصادق بما شَهِدَ به ، ومطابَقَةُ الجَنانِ لما جرى على اللِّسان ، فيكون الإنسان عندها مسلماً مؤمناً .

وقد ميّز القرآن الكريم بين المعتنق للشهادتين بلا يقين بل بمجرد لَقْلَقَة اللِّسان الناشئة عن عدم الإذعان والتصديق القلبي ، سواء أكان نابعاً عن تقليد

(١) سورة يونس : الآية ٣٦ .

(٢) ويشترط بعدها أن لا يظهر منه إنكارٌ لضروريات الدين .

وتبعية ، أم مصلحة ومنفعة زمانية ، وبالجملة : كل ما كان مشتركاً في عدم توليد القناعة القلبية بصحة تلك المعارف . وبين المعتنق لها عن صدق ويقين . فسمّى الطائفة الأُولى « مسلمين » ، والثانية « مؤمنين » .

قال تعالى : ﴿ قالَتِ الأَعْرابُ آمَنّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنوا ولكن قولوا أَسْلَمْنا ، وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبِكُم ﴾[1] .

فإنّه تعالى علّل وجه تسميتهم بالمسلمين فقط دون المؤمنين ، بأنّ الإيمان ـ أي الهدى الذي هو عبارة عما جاء في الشهادتين ـ لم يدخل بَعْدُ في قلوبهم .

وعدم الدخول في القلب كناية عن عدم التصديق والإذعان والإطمئنان الروحي به .

ومن المعلوم أنّ الإذعان بالشيء لا يحصل للإنسان إلّا أنْ يكون لديه دليلٌ قاطع ، وبرهان مقنع عليه ، يُبْعِد عن فُؤاده شَوْبَ كلِّ ريب ، وَلُبْس كلِّ شَكّ .

وحصول اليقين بكل شهادة من هاتين الشهادتين ، يتوقف على مقدمات ضرورية ، يمتنع حصولُه بدونها إلّا بمخادعة النفس :

فالشهادة الأُولى تتوقف على إثبات خالقٍ وصانعٍ للكَوْن أوّلاً ، وإتصافِه بالصفات الكماليّة كالعلم والقدرة والحياة ، وتَنَزُّهِهِ عن صفاتِ النَّقْص كالجِسميّة والماهِيّة والحلول ثانياً ، حتى يمكن بعدها التصديق بِوَحدته وأَحَدِيّته في الذات ، وتفرّده في الخَلْق والتدبير والحكومة المطلقة على الكون ، الذي يدخل جميعه في نفي الشريك له تعالى .

كما أنّ الشهادة الثانية تتوقف على إثبات حكمته تعالى ، وأنه لا يفعل عبثاً ، ولا يرتكب قبيحاً ، ولا يظلم أحداً ، وأنه كلّف الناس بتكاليف

---

(١) سورة الحُجُرات : الآية ١٤ .

ضرورية لاستقرار المجتمع البشري ، وسعادة بني الإنسان ، ولذلك أرسل إليهم رسولاً ، ثَبَتَتْ نُبُوَّتُه بالدلائل القاطعة والمَعاجِز الباهرة .

وقد أشار تعالى في كتابه الكريم إلى جملة هذه المعارف بالإجمال بقوله :

﴿ آمَنَ الرَّسولُ بما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِن رَّبِّهِ و المُؤْمِنونَ ، كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِ ، وقالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإليك المَصير ﴾[1] .

فالإعتقاد بوجود الخالق المدبّر، والعوالم الغيبية ، وتدبير الملائكة لشؤون الكون بإذنه تعالى، والكتب والرسالات السماويّة ، والتكاليف الشرعيّة ، والأنبياء المرسلون من جانبه تعالى ، ووَحْدَتهم في دعوتهم ، والمعاد إليه تعالى ليُثيبَ مَنْ أطاع ويعاقِبَ من عصى ، كلٌّ ذلك من مقوِّمات الإيمان .

وقوله : ﴿ آمَنَ الرَّسول ﴾ ، أي أيْقَنَ وصَدّقَ وأَذْعَنَ ، فهو مُؤمن .

وعلى ذلك ، فكلُّ مُقِرٍّ بالألوهية لله جَلّ شأنه ، والرسالة لمحمد (صلى الله عليه وآله) ، وسائر المعارف الإعتقادية الضرورية ، فهو مؤمن ، يناله الثواب الموعود للمؤمنين في الكتاب العزيز[2] ، وإلّا فهو خارج عن رِبْقَةِ المؤمنين، غير مستحق للثواب الدائم والتعظيم، بل غايةُ أمره أن يكون مسلماً في الدنيا ، تجري عليه الأحكام الظاهرية للإسلام لا أكثر .

قال الفُضَيْل بنُ يَسار : سمعتُ أبا عبد الله الصادق(عليه السلام) يقول :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

(٢) من المفيد الإشارة إلى أنّ هذا الإيمان يُعَدُّ الأرضية التي تهيّء الإنسان لنيل الثواب الموعود، ليس إلّا . وليس بمجرّده كافٍ في ذلك ، إلّا أنْ يَنْضَمّ إليه العمل الصالح . وهذا ما تُؤكِّده آيات الذكر الحكيم ، والتفصيل موكولٌ إلى محلّه .

« إنّ الإيمانَ يُشارِكُ الإسلام ، ولا يُشارِكُه الإسلام ، إنّ الإيمانَ ما وَقَرَ[1] في القلوب والإسلام ما عليه التناكُح والمَواريث ، وحَقْنُ الدماء . . . »[2] .

الاستنتاج

فالمطلوب إذن ، للحكم بإيمان المرء ونَيْله الثواب الأخروي ، أنْ يُصَدّق بالمعارف الأصولية ، تصديقاً لا يعتريه شكّ ، ويطمئن بها إطمئناناً لا يشوبه رَيْب . وهذا الإطمئنان يتعذّر حصوله ـ في الغالب ـ من غير طريق البَرْهَنَة والإستدلال .

نعم ، ليس مطوباً من المرء إتقان القواعد الفلسفية والغوص في البراهين العقلية الدقيقة ، إنّ مثل هذا غير مطلوب من عامة الناس أبداً ، بل تكفي أبْسط الأدلة المُقْنِعة التي يلتفت إليها كل إنسان مهما كان ساذجاً وبسيطاً ، وكثيراً ما سلك القرآن هذا الطريق في إثباته تلك المعارف الأصولية ، وستقف على شطر منه في الفصول الآتية ، إن شاء الله تعالى .



---

(١) وَقَر : أي ثبت واستقر .

(٢) أُصول الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، الحديث ٣ .

الفصل الثاني

إثبات الصانع

١ ـ برهان دلالة الأثر على المؤثر .

٢ ـ برهان النّظم .

٣ ـ برهان الإمكان .

أدلة وجود الصانع

الـطُرُق إلى إثبات وجـود صانـع لهذا الكـون وما فيـه من موجـودات ، عديدة ومتنوعة ، وهي تترجّح من أبسط الأدلة إلى أعقدهـا . ونحن نذكـر فيما يلي أهمها .



دلالة الأثر على المؤثّر

إنّ من القواعد العقليّة الثابتة التي لا يمكن إنكارها ، إحتياج كلّ معلول إلى علّة .

وكلٌّ مِنّا يعايش جزئيات هذه القاعدة ومصاديقها في الخارج المحسوس المحيط بنا ، فنرى أنّ المنزل الذي يأوي كل عائلة منا ، لا بُدّ له من بَنّاء ، والحرارة التي نَسْتَدْفيء بها لا بُدَّ لها من نار ، والضوء الذي نستنير به لا بُدّ له من كَهْرُباء . . . .

ومن هذه الجُزْئِيّات الصناعية ، ننطلق إلى العالم الطبيعي والكون المشاهَد ككُلّ :

فهذه الجبال الشاهقة ، والسهول المنبسطة ، والأنهار الجارية ، والغابات الكثيفة المتشابكة . . . لا بُدّ لها من صانع . وتلك السماء الشاسعة وما فيها من شمس وقمر ، وكواكب ونجوم وو . . من الظواهر العظيمة ، لا بُدّ لها من موجِدٍ أَوْجدها .

وهكذا ، فالإنسان مُذْ وَطأت أقدامه البسيطة ، تُحَدِّثُه فِطْرَته بأنّ هذا الكونَ أَثَرٌ ، وكلُّ أَثَرٍ لا بُدّ وأَنّ موثّراً قد أَثّره ، وموجداً قد أَوْجَدَه . فهناك ـ إذن ـ علةٌ عظيمة القدرة ، وقوة هائلة الجبروت ، أَوْجَدَت هذا الكونَ وكلَّ

هـذه الظواهـر الطبيعيـة ، وإنْ لم يكن يراهـا ويعايِنُهـا بِنـاظِـرَيْـه أو يعـايشهـا بحواسّه .

وهـذا الدليـل من أبسط الأدلة ، وبـه عَبَّر بَـدَوِيٌّ بِعَفَوِيَّـةٍ حين سُئِل عن دليل وجود الله تعالى ، فقال :

« البَعْرَةُ تَدُلُّ على البعير ، وأَثَرُ الأقدام يَدُلُّ على المَسير ، أَفَسَماءٌ ذاتُ أَبراجٍ ، وأَرْضٌ ذاتُ فِجاجٍ ، لا تَدُلَّانِ على العليِّ القدير ؟ ! »

***



برهان النظم

يبتني برهانُ النظم على مقدمات ، هي :

الأولى ـ إنّ عالَم الطبيعة خاضعٌ لنُظُم دقيقة ، كشفت العلوم الحديثة عن الكثير منها ، فهذا الوجود الذي نشهد دورته في كلّ يوم وليلة ، يخضع من أصغر ذراته إلى أعظم مجراته ، لقوانين في غاية الدِّقة تَضْبُط حركاتِه وتحوّلاته ، وترعى الروابط بين أجزائه. وكذلك الكائنات التي تحيا فيه، تعيش النظام الدقيق في خلاياها وأعضائها ، وتفاعلها مع محيطها ، بما يَضْمَن بقاءَها وتكامُلَها .

الثانية ـ أصْلُ العِلِّيَّة ، وهو من القاعد العقليّة البديهيّة ، فيستحيل عند العقل والوجدان قبول تحقق شيء بلا علة ، بل وجود الأثر دالٌّ على وجود المُؤَثِّر .

الثالثة ـ إنّ الخصوصيات الموجودة في الأثر تحكي وتكشف عن الخصوصيّات الموجودة في المؤثّر .

وعلى هذا فدلالة الأثر تتجلى في صورتين :

١ ـ وجود الأثر يدل على وجود المُؤثّر ، وهو قانون العليّة .

٢ ـ خصوصيات الأثر تحكي عن خصوصيات المُؤثّر .

فالبناءُ المُتْقن المُحْكَم ، الرائع المظهر والترتيب ، يكشف عن أمرين :

أوّلهما : وجود مهندس خطّطه وبَنّاءٍ بناه .

وثانيهما : علم هذا المهندس وتَفَوُّقُه في مجال تخصُّصه ، ودِقَّةُ ذلك البَنّاء ومهارته في عمله .

فإذا علمت هذه المقدمات ، يمكننا أن نقرر البرهان ، فنقول :

إنّ ها هنا كوناً ووجوداً عظيماً في البُنيان ، ورائعاً في الإتقان ، نابضاً بالحياة ، ذا نُظُم وسُنَن دقيقة ومعقّدة لا تضطرب ولا تَتَخَلّف(١) . وهي بمقتضى القاعدة تحتاج إلى مُؤثِّرٍ وموجِد ، فمن أوْجَدَها ؟ .

لا يُخْرُجُ الجوابُ عن أحد أمْرَيْن ، لا ثالث لهما :

الأول : أنْ تكون المادة هي أوجَدَت نفسَها بِنَفْسِها ، ولم تَزَلْ تتفاعل وتتكاثر بِفَضْل قُوىً ماديّةٍ ذاتيّة ، حتى وصلت إلى ما نشاهده من خَلْقٍ ومخلوقات .

وهو باطل جداً ، لأنّك عرفت أنّ خصوصيّات الأثر تَدُلّ على خصوصيات المُؤَثّر . والخصوصيات الموجودة في الكون ، تكشف عن أنّ صانِعَه على درجةٍ هائلةٍ من العلم والقدرة والحكمة ، وهذه صفات موجودٍ كامل الحياة والشعور ، وأينَ المادةُ العمياءُ الصمّاءُ ، التي لا روح فيها ، من ذلك ؟ .

الثاني : أن تكون العلّةُ الخالقةُ للكون موجوداً شاعراً ، على درجة

---

(١) الحقائق والأرقام التي توصّل إليها العلم الحديث في مختلف المجالات ، كثيرة ومتنوعة ومدهشة ، يمكن مراجعتها من مصادرها . والعلم هنا له دور تحقيق صغرى برهان النظم .

عظمى من الكمال والبهاء ، وهوالمتعيِّن .

صياغة برهان النظم بعبارة ثانية :

طبيعة النظام تستدعي المنظّم

ولك أنْ تَصُبّ البُرهان نفسَه بعبارةٍ ثانية ، فتقول :

إن العقلَ عندما يطالع نظاماً دقيقاً ، ولْنَقُل مثلاً : جهاز كمبيوتر ، فيلاحظ توزيع مُكَوِّناتِه بكيفيّات معيَّنة ، وبكميّات مدروسة ، ثم تقسيم الشَّبَكات الرابطة بينها بأحسن أُسلوب يمكِّنُها من أداء وظيفتها المطلوبة ، ليكون جهازاً فعّالاً خلّاقاً ، بعد أنْ كان مواد جامدة متفرقة مهمَلَة ، عندما يرى العقل ذلك ، يحكُمُ من فَوْره بأنّ ذلك لا يمكن أنْ يصدر إلّا من فاعلٍ عاقل ، ومهندس إلكتروني ماهرٍ في فَنّه ، تمكّن بسعة علمه ، ووافِرِ ذَكائه المُتَمَيِّز ، أنْ يختار بعنايةٍ فائقة تلك الموادّ المعيَّنة ، بكميات وكيفيات خاصّة ، ثم يُنَظِّمها في تلك الدوائر والشَّبَكات الموصلة ، بتنسيق دقيق خاص يؤهِّلُها للتفاعل فيما بينها لتحقيق الهدف المطلوب منها . وأمّا أن يكون هذا الجهاز قد كوّن نَفْسه بنفسه ، أو تكوَّن صُدْفةً من لا شيء ، وبلا يَد عاملة مفكّرة ، فهذا مما يحيلُه ويرفُضُه رفضاً باتاً .

وهذا الحكم الذي يُصدره عقلُ كلِّ إنسان ـ كائناً من كان ـ لا يستند إلى شيء سوى النظر إلى ماهية النظام وطبيعته التي تأبى التحقّق بلا فاعلٍ عاقل ومدبّر .

وهذا الذي يجري مع العقل في المصنوعات البشرية ، يتكرر بعينه إذا لاحظ الموجود الطبيعي العظيم ، أعني الكونَ وما فيه من كائنات ، فيرى كلَّ أجزائه ، في أرضه وسماءه ، مُتَرَتِّبة ، متناسقة ، ومتفاعلة فيما بينها ، تحت ما لا يكاد يُحصى من الشرائط والظروف والعلاقات المضبوطة في نِسَبِها ضبطاً عجيباً مُدْهِشاً لِفَرْط دِقَّتِه وإحكامِه ، والمناسِبَة لحاجةِ كلِّ موجود ، بحيث لا

تَخْتَلّ في وظيفتها ولا تَضْطرب، بما يضمن بقاء الكون واستمراره وتكامل مخلوقاته .

يرى العقل ذلك ، فيحكم بما حَكَمَ به في المصنوع البشري من استحالة وجوده إلّا من فاعل ، عاقل ، شاعر ، مدبّر ، عظيم القُدرة ، وواسع العلم .

ورائِدُ العقلِ الوحيدُ في حكمه هذا ، ليس سوى ماهيةِ النِّظام وطبيعتِه التي تأبى عن التحقُّق بلا فاعل عاقِلٍ ومدّبر ، سواء أكان نظاماً من صنع البشر ، أم هذا النظام الكوني العظيم .

وبهذا البرهان خلصنا إلى نتيجة ، وهي أنّ للكون وموجوداته خالقاً عظيماً ، قادراً عالماً ، خَلَقَه وأخرجه من العدم إلى الوجود .

برهان النظم في الكتاب

وإلى برهان النظم ، أشار تعالى في سورة البقرة بقوله :

﴿ إنّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ ، وإختلافِ اللّيلِ والنَّهار ، والفُلْك التي تَجْرِي في البَحْرِ بما يَنْفَعُ الناسَ ، وما أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ من ماءٍ فَأحيا به الأرْضِ بَعدَ موتِها ، وبَثّ فيها من كُلِّ دابَّة ، وَتَصْريف الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ ، لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلونَ ﴾[1] .

فإنّ في ما ذكرته الآية من الظواهر الكونية التي تخضع لأدقّ النُّظُم ، وتتفاعل فيما بينها لتأتي بما ينفع الناس ويضمن بقاء الموجودات ، إنّ فيها لآياتٍ ودلالاتٍ على وجود قوةٍ قاهرةٍ قادرة عالمة ، أوجدتها ، وتتولى تدبيرها ، لا يَشُكُّ في ذلك ذو لبّ ، لأنّ النِّظام لا بُدّ له من مُنَظّم .

***

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

الدليل الثالث

برهان الإمكان

مقدمة

ونبيّن فيها أربعة أُمور :

الأمر الأول : إنّ كلَّ معقول ومُتَصَوّر في الذهن ، إذا نَسَبْنا إليه الوجود الخارجي ، فإمّا أن يَصِحّ إتصافُه به ، أو لا .

فإن لم يصحّ إتصافه به لذاته ـ أي لعدم قبول حقيقته للوجود الخارجي ـ فهو : « **مُمْتَنِعُ الوجودِ لذاته** » ، كاجتماع النقيضين وارتفاعهما ، ووجود المعلول بلا علة ، ودخول الكبير في الصغير .

وإنْ صحّ اتّصافه به ، فإمّا أنْ يكون لاقتضاءِ ذاته لهذا الاتصاف ، أوْ لا .

والأوّل هو : « **وأوجب الوجود لذاته** » .

والثاني هو : « **ممكن الوجود** » .

فيتحصّل من ذلك أنّ المتحقِّق في عالَم العَيْن والخارج ، إمّا أنْ يكونَ واجبَ الوجودِ ، أو مُمْكِنَ الوجود .

الأمر الثاني : عُلِمَ من القسمة المتقدّمة ، أنّ واجِبَ الوجود هو ما كان

وجـوده نابعـاً من صميم ذاتـه ، فـلا تَنْفَـكّ ذاتُـه عن الـوجود، بخـلاف ممكن الـوجود ، فـإنّ وجوده ليس من اقتضـاء ذاته ، بـل مُفاضٌ عليـه ، فإنْ أُعْـطِيَهُ وُجِدْ ، وإلّا بَقِي عَدَماً .

فـالإحتياج والإفتقـار إلى العلة سِمَةُ الإمكـان ، والغِنى عن العلّة سمـة الوجوب .

الأمر الثالث : المُمْكِنُ كمـا هو محتـاج إلى العلّة في بدايـة ووجوده ، محتاجٌ إليها في إستمرارية وجوده ، لأنّ العلّة لو ارتفعت وانقطعت عنه بعد أَنْ أوْجَـدَته ، فـإما أنْ يكـون وجوده في الآنـات اللاحقـة نابعـاً من ذاتـه ، فَيَلْزَمُ انقلابُ المُمْكن واجباً ، وهو محال . أو لا ، فيحتاج إلى العلة المُبْقية .

ومَثَـلُ الوجـود في الممكن ، مَثَلُ النـور في المصباح في تَـوَقُّفِه إبتـداءً وبقاءً على جريـان الكهربـاء فيه بـاستمرار ، فـإنّ الوجـود في الممكن متوقف إبتداءً وبقاءً على إفاضة الوجود عليه من علّته باستمرار .

الأمر الرابع : إنّ كلَّ مُتَغَيِّـر ومُتَبَدّل ، مُمْكِنٌ ، لأنّ التَغَيُّـرَ عبـارة عن طروء حالة وجودية لم تكن من قبل ، وكان هذا المتغير يفتقدها فأُفيضت عليـه وأُعطيت له ، وهذه سِمَةُ الإمكـان ، إذ الواجب ، وجـودُه من ذاته ولا يُفـاض عليه .

البرهان

الأمر الذي نريد إثبـاته هـو رجوع جميـع المُمكنات إلى مـوجودٍ واجبٍ خَلَقها وأفاض الوجود عليها. فنقول :

لا شـك أنّ في العالَم الخـارجي المحيط بنا ، مـوجودات تتّصف كلُّهـا بالإمكان ، لوقوعها في دائرة الحـدوث والفناء ، والتغيُّـر والتبدّل ، والإنتقـال من حـالٍ إلى حالٍ آخـر كانت تفتقـده ، وهذه كلُّهـا سمات الإمكـان ، كمـا تقدّم . فنتساءَل عَمّن أحدَثَها وأخرجها من العدم وألبسها لباسَ الوجود .

لا يخرجُ الجوابُ عن أحد أربعة لا خامس لها :

١ ـ أنْ يكون كلُّ مُمْكنٍ أوْجَدَ نَفْسَه بِنَفْسِه .

٢ ـ أوْ كُلُّ مُمْكنٍ أوْجَدَه مُمْكنٌ آخر ، وهذا الآخر أوْجَده الأوّل .

٣ ـ أوْ كُلُّ مُمْكنٍ أوْجدَه مُمْكن آخر ، والمُمْكن الآخر أوْجَدَه مُمْكنٌ ثالث ، وهكذا . . . من دون الإنتهاء إلى نقطة .

٤ ـ أو الصورة السابقة مع الإنتهاء إلى مَوْجود واجب الوجود بذاته .

على الأوّل والثاني يلزم الدَّوْر ، وعلى الثالث يلزم التَّسَلْسُل . والدور التسلسل باطلان ، فتبطل الإحتمالات الثلاثة الأولى ، ويَتَعَيَّن الإحتمال الرابع ، وهو صدور العالَم وجميع الكائنات عن موجود واجب الوجود ، أوْجَدَ كُلَّ شيءٍ ولم يوجده شيءٌ ، وهو « الله » جَلّ جلاله .

وإليك فيما يلي بيان بطلانِ كلٍّ من الدور والتسلسل .

بيان الدور وبطلانه

الدور عبارة عن كون الشيء موجِداً لشيءٍ ثانٍ ، وفي الوقت نفسه يكون هذا الشيء الثاني موجِداً لذاك الشيء الأوّل . كما إذا كان مُوجدُ (أ) هو (ب) ، وموجدُ (ب) هو (أ) .

وهو باطلٌ ، لأنّ مقتضى كونِ الأوّل علةً للثاني ، تقدُّمُه عليه وتَأَخُّرُ الثاني عنه . ومقتضى كونِ الثاني علةً للأوّل ، تقدُّمه وتأخُّر الأول عنه[1] . فيكون الشيء الواحد ، في زَمَنٍ واحد ، وبالنسبة إلى شيء واحد ، متقدِّماً عليه ومتأخّراً عنه ، أو فقل : متقدِّماً عليه وغير متقدِّمٍ عليه ، وليس هذا إلاّ

(١) العلة والمعلول، وإن كانا متقارنين زماناً ، لكن العلّة متقدمةٌ لحاظاً ورتبة ، وإلاّ لم تَمْتَز عن المعلول ولم تكن علةً له .

إجتماعٌ للضدّين في شيء واحـد ، ومِن جهةٍ واحـدة ، وهو مستحيـل ضرورة وبداهة .

ومن هنا يُعْلم حالُ كون الشيء موجِداً لنفسه ، فإنّه دور أيضاً وباطل :

لأنَّه من حيث كونه موجِداً (بالكسر) ، متقدِّم وموجود .

ومن حيث كونه موجَداً (بالفتح) ، متأخّرٌ ومعدوم .

فيلزم أن يكون الشيء الواحد متقدِّماً ومتاخّراً ، بل مـوجوداً ومعـدوماً ، وما هذا إلاّ إجتماع للمتناقضين ، وهو محال .

فتبيّن أنّ الدور ممتنع الوجود بالذات ، بمعنى استحالة تحقق أمر دوري في الخارج .

ويمكنك أنْ تُقَرِّب هذه النتيجة بالمثال التالي :

لو أراد رجلان التعاون على حمل متاع ، غير أنّ كـلاًّ منهما يشتـرط في إقدامه على حمله ، إقدام الآخر . فَحَمْـلُ زيدٍ للمتـاع مشروطٌ بحَمْـلِ عمروٍ له، وحَمْلُ عمروٍ له مشروطٌ بِحَمْل زيدٍ له ، فَلَن يُحْمَل هذا المتـاعُ إلى مكانـه أبداً .

بيان التّسلسل وبطلانه

التسلسل عبارة عن إجتماع سلسلةٍ من العِلَل والمعاليـل المُتَرَتِّبَـة طوليّـاً إلى غيـر نهـايـة . فـ(أ) يتـوقف في وجـوده على(ب) ، و(ب)على(ج) ، و(ج)على(د) ، وهكذا دواليك إلى غير نهاية .

والتسلسل باطلٌ بداهةً . لأنّ هذه الحَلَقات الممكنه من السلسلة مـا لم تَنْتَه إلى نقطة واجبةِ الوجود ، ينبع وجودُها من صميم ذاتها ، يلزم أنْ لا يوجد شيء من هـذه الممكنـات أبـداً ، وهـو خـلاف الـذي نـراه من وجـود أنفسنـا والكائنات الأخرى في الكون .

ويمكن تقريب التسلسل ونتيجة بالمثال التالي :

لو طَلَب مواطِنٌ من مُوَظَّفٍ في دائرة حكوميّة أن يُمْضِيَ لـه معامَلةً مـا ، فـاشترط هـذا الموظّف لإمضـاءها ، إقـدام موظّفٍ آخـر ـ وليكن زيـداً ـ على إمضائها أوّلاً . فـذهب هذا المـواطن إلى زيدٍ ليُمْضِيهـا ، فشرط زيـد إمضاءه بـإمضاء شخصٍ ثـالث ، فذهب إلى الثـالث فأبى إمضـاءهـا إلاّ بعـدَ إمضـاء رابع ، وهكذا توالي الأمر : كلٌّ يَشْرُط إمضاءَه بإمضـاءٍ آخر ، بحيث لا ينتهي ـ فـرضاً ـ إلى مُـوَظَّف جريءٍ يُقْـدِمُ من تِلْقـاءِ نفسـه على إمضـاء المعـاملة ، مُتَحَمِّلاً كلَّ المسؤوليّة ـ بدون ذلك ـ لن تُمضى هذه المعاملة أبداً .

وهكذا في المقام نقول :

لو كان وجودُ ما نراه حولَنا من الكائنات متوقّفاً على علة توجـده ، وتلك العلّة متوقفة علي علّةٍ فوقها توجدهـا ، وهكذا . . . من غيـر انتهاء إلى علة لا تحتاج إلى علّة أخرى في وجودها ، بل وجودهـا نابـعٌ من صميم ذاتها ، فـإنّه يلزم أن لا يوجَد ولا يتحقّق شيءٌ من هذه الكائنات .

والنتيجة أنّ وجودَنا والكون المحيطُ بنا وما فيه من كائنـات ، دليلٌ على وجود علةٍ عُليا واجبةِ الوجود ، خَلَقَتْه وصَنَعَتْه ، وأخرجته من العَدَم إلى ساحة الوجود والتحقّق . وهذا ما أردنا إثباته .

وإلى هذه النتيجة يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفـة الله جلّ جلاله ، بقوله :

« الدالّ على قِدَمِهِ بحدوثِ خَلْقِهِ ، وبحدوثِ خَلْقِهِ على وجودِه »[1] .

***

هـذه البراهين الثـلاثة ، كـافيةٌ لتُثْبت بشكـل قاطـع وجـودَ خـالق لهـذا الكون :

---

(١)نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٥ .

فبرهان استنادِ الأثر إلى مؤثّر ، كاف ـ على إجماله ـ للبُسطاء .

وبرهانُ النُّظم ، يُبْطِل خَلْقَ المادة للعالم ، ويُثْبِتُ أنّ خالق العالم قوة شاعرة ، خارقة القدرة والعلم .

وبرهان الإمكان ، يُبطل خلق المادّة لنفسها ، كما يُبطل أزليةَ المادّة[1] وعَدَمَ إستنادها إلى علة أخرجتها من العدم إلى ساحة الوجود ، ويُثْبِتُ أنّ موجِد الكون والكائنات جميعاً ، هو موجود غنيٌّ غِنىً مُطْلَقاً ، ينبُع وجوده من ذاته ، ولم يوجده أحد .

ويقع البحث بعد إثبات الصانع ، في صفات الكمال التي يتّصف بها ، وصفات الجلال التي يتنزّه عنها ، وهو ما نتناوله في الفصل التالي .



(١) في بلاد الهند حالياً ، مذهب يُدعى (جانية)، نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، ويعتنقه الآن أكثر من مليونَيْ نَسَمَة ، وهم يعتقدون بوجود الأرواح ، وعالم ما وراء المادة . إلاّ أنّ أساس (الجانية) أنّ كلّ ما هو موجود في الكون أزليٌّ ، حتى المادة . وقد ظهر لك سخافة وبطلان هذا الإعتقاد ، الذي يؤمن به الماديون الغربيّون أيضاً .

الفصل الثالث

صفات الصانع

الفصل الثالث
صفات الصانع

مقدمة

قَسّم المتكلمون صفات الله تبارك وتعالى إلى قسمين[1] :

١ ـ صفاتٍ ثبوتية .

٢ ـ صفات سلبيّة .

أما الأولى ـ وتسمّى أيضاً بالصفات الجَماليّة وصفاتِ الإكرام ـ فهي الصفات المُثْبِتَة لجَمال في الموصوف : ذاته وفعْله . كالعلم والقدرة والحياة والإدراك وَالحِكمة والرِّزْق والصِّدق .

---

(١) وهناك قسم ثالث من الصفات ، كان يُبحث سابقاً من دون نظم منهجي في مباحث الصفات الإلهية ، ونحن نُدرجه تحت عنوان مستقل بإسم (الع
أخبر الله تعالى عن اتصافه بها في كتابه الكريم، وأثبتت
سائر الصفات ، أنّ هذه توهم في ظاهرها التشبيه و
غير ذلك وتندرج في صفات فعله تعالى . منه
(الوجه) ، (الجَنْب)، (الإصْبَع) ، (العَرْش)
(النزول) .
وقد وقع فيها نزاع شديد بين المذاهب الكَلامية ـ ولما
وسيوافيك بحثها في المباحث الموسّعة ، إن شاء الله تعا

وهي تنقسم إلى قسمين :

أ ـ صفاتٍ ثبوتيّة ذاتيّة ، وهي الصِّفات المُشيرة إلى كمالٍ في ذات الموصوف ، كالعلم والقدرة .

ب ـ صفاتٍ ثبوتيّة فعليّة ، وهي الصفات المُشيرة إلى كمال في فعل الموصوف ، وتُنْتَزع من ملاحظة أفعاله تعالى ، كالتكلّم والحكمة .

وأما الثانية ـ وتُسمّى أيضاً بالجَلاليّة ـ فهي الصفات التي يَجِلُّ الخالق ويَتَنَزّه عن الإتصاف بها ، وهي كلُّ صفة تُفيد نقصاً في ذاته ، أو حاجةً في فعله . كالشريك ، والجسميّة ، والإتحاد . فيقال : إنّ الله تعالى يتّصف بأنّه لا شريك له ، وليس بجسم ، ولا متّحداً مع غيره .

وفي الذكر الحكيم إشارة إلى هذا التقسيم الثُّنائي في قوله تعالى :

﴿ تَبارَكَ آسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ والإكرام ﴾[1] : أي ربِّك المُتَّصِفِ بصفاتِ الجلالِ وصفاتِ الإكرام .

وعلى ما ذكرناه ، يَنْقسم بحثُنا في صفات الصانع إلى أبواب ثلاثة :

الباب الأول : الصفات الثبوتيّة الذاتيّة .

الباب الثاني : الصفات الثبوتيّة الفعليّة .

الباب الثالث : الصفات السلبيّة .

وإليك البحث في كلٍّ منها .

****

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٧٨ .

الباب الأول

الصفات الثبوتيّة الذاتيّة

١ ـ العلم

٢ ـ القدرة

٣ ـ الحياة

٤ ـ السمع

٥ ـ البصر

٦ ـ الادراك

٧ ـ الأزلية

٨ ـ الأبدية

الصفات الثبوتية الذاتية
(١)

العلـم

يَتَّصِفُ خالقُ الكون بـالعِلْم ، فهو مـوجود عـالم ، ولم ينازع في ذلـك أحـد من الإلهيين المعتقدين بـوجود إلـه خـالقٍ للكـون . وإليـك دليـل هـذه الصفة .

دليل كون الخالق عالما : إحكام الخلق

الذي يَدُلُّنـا على إتصاف الخـالق بـ« العلم »[١] ، قاعـدةٌ عقليّةٌ قـطعيّة

(١) لعلمه تعالى ـ باعتبار الامور المعلومة ـ مراتب ثلاث :

الأولى : علمه تعالى بذاته .

الثانية : علمه تعالى بالأشياء قبل أن يوجدَها .

الثالثة : علمه تعالى بالأشياء بعد إيجادها .

والدليل الذي نذكره هنا يناسب المرتبة الثالثة ، وأما أدلة سائر المراتب ، فذكرهـا خارجٌ عن غاية الكتاب ، ومحلُّها في المباحث الموسّعة .

كما ينقسم علمه تعالى ـ باعتبار آخر ـ إلى قسمين :

١ ـ علمٌ ذاتي : أي علمه تعالى الذي هو عين ذاته . والمبحوثُ عنه هنا من هذا القبيل .

٢ ـ علمٌ فعْليّ : وهو علمه تعالى المُثْبَت في بعض المظاهر الوجودية ، كـاللوح المحفوظ ، وأُمّ الكتاب ، ولوح المَحْوِ والإثبات ، ونفوس بعض الملائكـة والأنبياء . ومـوضع التعـرّض إليـه في مباحث البَـداء والقضاء والقـدر ، وسيأتيـك ـ أيضاً ـ في المبـاحث المـوسّعـة ، إن شاء الله .

مَفادها أنّ إتقان المصنوع وإحكامه يَدُلّ قطعاً على علم صانعه .

ألا ترى أنّا إذا رأينا جهازاً صناعياً معقّد التركيب ، إنتقلنا فوراً إلى علم صانعه ، وسعة معرفته في مجال صناعة هذه الأجهزة . كما أنّا لو طالَعنا كتاباً عميقاً في التحقيق ، دقيقاً في الإستدلال ، أذْعَنّا بعِلْميّة مؤلِّفة ، وتَبَحُّره في ذلك العلم الذي تناوله بالبحث والتدقيق .

وهذا هو ما أشرنا إليه سابقاً في برهان النظم من أنّ دلالة الأثر على المؤثّر تتجلّى بنحوين : الدلالة على وجود المؤثّر ، والدلالة على خصوصيات المؤثّر بملاحظة الخصوصيات المتجلّية في الأثر .

والمصنوع كلما أزداد دِقّة وإحكاماً وضبطاً وانتظاماً ، وجمالاً وروعة ، إزداد دلالة على كمالِ علمِ صانعه .

والآن نقول :

إنّ هذا الكون وما فيه من مصنوعات ، جامعٌ لجميع صفات الإتقان والنُّظم والجمال ، إلى حدّ مُدهش للعقول ومحيِّرٍ للألباب . ويكفينا أن نتأمل بدن الإنسان الذي هو أقرب الأشياء إلينا ، بما انتظم فيه من الأجهزة والخلايا ، والشرايين والأعصاب ، والأنسجة والغُدَد ، والدم والهرمونات ، وو . . . أو نشاهد الطاووس في بَهائه وروعته ، أو الطبيعة الخلاّبة في سحرها وجمالها ، أو الفضاء الكونيّ الفسيح المترامي في سعته ، والخاضع لأعقد النُّظُم والروابط ، أو غير ذلك من الموجودات التي لا تستوعب أنظمتها ـ فضلاً عن دقائق مُفْرَداتِها ـ الصُّحُف ، ولا تحيطُ به الأسفار ، ولو كانت الأشجار أقلاماً ، والبحارُ مداداً[1] ، وكل منها على درجة مُذْهلة من الدِّقّةِ والنُّظمِ والبهاء .

---

(١) قال تعالى في مُحكم آياته : ﴿ وَلَوْ أَنَّما في الأَرضِ مِنْ شَجَرةٍ أَقْلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَت كلِمات الله ﴾ (لقمان ٢٧) . و« كلمات الله » : موجوداته . وسيظهر لك ذلك عند البحث في صفة (الكلام) .

كـلُّ ذلك يَـدُلُّنا ـ بشكـل قاطـع ـ على أنّ صانـع الكون يتّصف بالعلم، بأوْسَع درجاته ، وإلى حدّ الكمال المُطْلَق الذي لا يمكن تصوره .

هذا الدليل في الكتاب والسنة

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في قوله :

* ﴿ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ . . . ﴾ [1] .

و(ألا) أداة للتنبيـه . فالـذكـر الحكيم يُلْفت النـاسَ إلى تلك الحقيقـة والقـاعدة العقليـة المُسَلَّمة التي أشـرنا إليهـا ، وهي دلالة الخَلْق المُتْقَن على عِلْم الخالق .

* وفي إشارة إلى التلازم بين الخَلْق والعـلم ، يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ ، وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه ﴾[2] .

* وقـال الإمامُ عليُّ بنُ مـوسى الـرِّضـا ـ في معـرض تمجيـده للخـالق تعالى ـ :

« وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ بِعِلْمِه »[3] .

فـأشار إلى استحـالـة صـدور الإتقـان والإحكـام ، الـذَيْن عبَّـر عنهمـا بـ« وَضْعِ كُلِّ شَيءٍ مَوْضِعَه » ، من غير العالِم .

فظهر ـ إذن ـ أنّ الخَلْقَ والصُّنْع مرادِفان للعلم بالمخلوق والمصنـوع ؛ والله تعالى خالق كلِّ شيء ، فهو عالِمٌ بكلِّ شيء .

****

---

(١) سورة المُلْك : الآية ١٤ .
(٢) سورة ق : الآية ١٦ .
(٣) بحار الأنوار ، ج ٤ ، ص٦٥ .

إشكال وجوابه

الإشكال

لو كان ما ذكرتموه من دلالة الخَلْق وإتقان المصنوع على علم الخالق والصانع ، صادقاً ، فَلْتوصف بعض العَجْماوات بالعلم ، لأنّها تصنع أشياء محكمة ومتناهية في الدِّقة ، كالنحل يصنع أوعية العسل السُّداسِيّة الشكل من الشَّمع بِدِقّة عجيبة ، والنمل الذي يبني بيوته المُنَظَّمة ، بهَنْدَسة راقية ، في أعماق الأرض . أو الطيور التي تبني أعشاشَها المُحْكَمة من العيدان الواهِيّة .

وَلْتوصف بالعلم كذلك ، الآلات الإلكترونية المُبَرْمَجَة التي تقوم بتصنيع السيارات والساعات والعقول الإلكترونية . مع أنّ شيئاً من ذلك لا يوصف بالعلم .

الجواب

إنّ القاعدة العقليّة التي ذكرناها ، تَنْطَبِق على الصانع المستقلّ والمختار في صنعه ، والخالق المستقل والمختار في إيجاده ، فيوصَفان ـ إذا كانا كذلك ـ بالعلم ، دون الصانع والموجِد الفاقِدَيْن للإستقلال والإختيار والإرادة في الفعل والإيجاد ، فإنهما لا يوصفان به .

والنماذج المذكورة في الإشكال ، كلُّها من قبيل الثاني ، إذ هي مُجْبَرَة ومُضْطَرّة ، إما للغريزة التي تُسَيِّرُها ، أو البرامج المُخَزَّنه في ذاكرات الآلات . فلا توسم حينئذ بالعلم ، بل الموسوم به هو من خَلَقَها وصَنَعها ـ عن إختيار وإرادة ـ لتؤدّي ذلك الدور المرسوم لها .

***

القرآن الكريم وسعة علمه تعالى

صرّح القرآن الكريم في آيات عديدة بسعة علمه تعالى وإحاطته بكلِّ ما

في الـوجـود من صغيـرة وكبيـرة ، وحـركـةٍ وفعـلٍ وَنـفَس ، ومـا يَخْتَلِجُ في الأذهان ، وتَضْمُره القلوب ، لا يخفى عليـه سبحانـه شيء من ذلك . ونـذْكُر منها الآيات التالية :

* قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هو ، ويَعْلَمُ مـا في البَرّ والبَحْر ، ومـا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُهـا ، وَلا حَبَّةٍ في ظُلُمـاتِ الأرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلاّ في كتابٍ مُبين ﴾[1] .

* وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ تُخْفوا ما في صُدورِكُمْ أَوْ تُبْدوهُ يَعْلَمْـهُ الله ، وَيَعْلَمُ ما في السَّمٰوات والأرض ﴾[2] .

* وقوله تعالى : ﴿ الله يَعْلَمُ ما تَحْمِـلُ كلُّ أُنْثى ومـا تَغيض الأرْحامُ ومـا تَزْدادُ وكلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدار ﴾ .[3]

* وقوله تعـالى :﴿ عالمُ الغَيْب لا يَعْـزُبُ عَنْهُ مِثْقـالُ ذَرَةٍ في السَّمٰوات ولا في الأرْضِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذلكَ ولا أَكْبَرُ إلاّ في كتابٍ مُبينٍ ﴾[4] .



(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣ .
(٣) سورة الرعد : الآية ١٣ .
(٤) سورة سبأ : الآية ٣ .

الصفات الثبوتية الذاتية
(٢)

القــدرة

تعريف القدرة

القــدرة هي المَكِنَـة على الفعـل أو التـرك ، مــع الإختيـار والإرادة في ذلك . فهي من صفات الفاعل المريد المختار .

فكل من كان مستطيعاً ومتمكّناً من فِعْلِ شيءٍ وإيجاد أثرٍ ، أو عدم فعله وإيجاده ، بإرادة منه واختيار ، فهو قادر ، وإلاّ فهو موجَبٌ ومضطر .

ومن هذا التعريف يُعْلم أنّ الفرقَ بين القادر والموجَب ، من وجوه :

الوجه الأول : إنّ القـادر له إمكـانية الفعـل والترك معـاً في آن واحد ، بالنسبة إلى شيء واحـد . والموجَب بخـلافه ، فـإما أن يَفْعَـلَ ذلك الشيء أو يَتْرُكَه .

الوجه الثاني : إنّ فعل القـادر مسبوقٌ بـالعلم بما يُقْـدِم عليه ، والإرادة له . بخلاف الموجَب .

الوجه الثالث : إن فعل القادر يجوز تأخُّره عنـه وجوداً ، وفعـلُ الموجَب لا ينفَكُّ عنه ، كالشمسِ في إشراقها والنـار في إحراقها .[١]

---

(١) وها هنا وجه رابعٌ ، لا يناسب ذِكْرَهُ مستوى الكتاب ، فنلمح إليه في الهامش ، وهو :

أدلة كونه تعالى قادرا

الدليل الأول - الفطرة

خلق الله تعالى الإنسان من بدن وروح ، وأوْدَعَ في روحه قوىً ونَزَعات ، ومعارف عليا ، وتوجيهات ترشده إلى ما يَضُرُّه وما ينفعه في الحياة ، وإلى ما يُتِمُّ به نواقصه ويرفع به حوائجه .

وجميعُ هذه الأمور المُودَعَة في روح الإنسان تُسَمّى بـ(فِطْرَةِ الله) ، أي خِلْقَةِ الله ، فإنها نوعٌ من أعظم أنواع خَلْق الله تعالى .

وهذه الفطرة مشتركة بين جميع أفراد الإنسان ، ثابتة في كل مكان وزمان ، لا يطرأ عليها تحوُّل ولا تغيير[1] . فهي أمر قهريٌّ في وجود الإنسان ، لا يَمْلِكُ فيه تَصَرُّفاً ، ولا يقع تحت تأثير عاطِفَةٍ أَوْ رغبة أَوْ عادةٍ ، بل هي قائمة على ما هي عليه أبداً ما دام الإنسان إنساناً .

ومن هنا ، يكون كلُّ ميل ونداء فطرى دالاًّ على حقيقة وجوديّة واقعية ثابتة وصادقة ، وغيرِ قابلة للنقاش فيها .

والإنسان إذا تَوَغَّل في الشهوات ، وانغمس في الملذّات ، وأكثر الإحتكاك بعالم المادّة ، يفقد اعتدال قواه النفسية ، وتندثر فطرته الإلهية

= إنّ القادر مستطيعٌ على الفعل والترك قبل أنْ يفعل ويترك ، والموجب بخلافه . فلا يكون الفاعل قادراً مختاراً إلّا بوجود إستطاعة فيه على الفعل قبل أنْ يوجد الفعل ، وفي غير تلك الصورة ، يكون مُجْبراً مقهوراً .

ومنه تعلم أنّ ما ذهبت إليه الأشاعرة من مقارنَةِ الإستطاعة للفعل ، وعدم تقدّمها عليه ، لازمه أن يكون الإنسان مجبراً مقهوراً ، وهو مناف لحكمته تعالى . وهذا أمر بديهي لا ينفع معه أيّ توجيه .

(١) نشير هنا إلى نكته إستطراداً ، وهي أنّ وجودَ هذه الحقيقة والسُّنّة الواحدة الثابتة المُشْتَرَكة ، دالٌ بِحَدّ ذاته على وجود الخالق تعالى ، فَتَنَبَّه . وبإمكانك أنْ تُسَمّيَ دليلَنا هذا بـ(دليل الفطرة) على وجود الصانع .

تحت غبار الطبيعة ، ويَعْدِلُ عما تدعوه إليه ، ويَعْمى بَصَرُهُ ويُصَمُّ سَمْعُه عما تُرْشده إليه .

غير أَنّ هناك لحظات حرجة يَنْصَعِق فيها الإنسان بعُنفٍ يوقظُ ضَميرَهُ ويُحَرِّك وُجدانه ، فيلتفت إلى المعارف الأولية التي أودعتها يَدُ الخِلْقَة في أعماق روحه .

ومن تلك اللحظات ، حالات الخوف والذُّعر الحاصلة من التقلبات الطبيعية ، فَتَجِدُ كلَّ إنسان يتعرّض لها ، على درجة بالغة من الأمل والإنقطاع والتعلّق بقدرة غيبيّة عظيمة مسيطرة على الكون ، هي القادرة على الإنقاذ والإنجاء إلى ساحل الأمان . وهذه الحالة تحدث مع كلِّ إنسان ، حيثُما كان ، ومهما كان يحمل من عقيدة مُسْبَقة ، بل حتى ولو كان ملحداً ومنكراً لوجود خالقٍ للكون .

فالفطرة الإلهية الثابتة في أعماق نفسِ كلِّ إنسان ، تَدُلّ على قُدْرة الخالق جلَّ وعَلا .

هذا الدليل في الكتاب والسّنة

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه النزعة الفطرية ، في عدة موارد من كتابه العزيز .

منها ـ قوله سبحانه : ﴿ وإذا مَسَّ الإنْسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قائِماً أَوْ قاعِداً . . . ﴾ .[1] .

ومنها ـ قوله سبحانه :﴿ . . . حتى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحوا بِها ، جَاءَتْها ريحٌ عاصِفٌ ، وجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وظَنّوا أَنَّهُمْ أُحيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ . . ﴾[2] .

---

(١) سورة يونس : الآية ١٢ .

(٢) سورة يونس : الآية ٢٢ .

كما أُشير إليها في أَحاديث أهل البيت (عليهم السلام) نذكر منهـا هذا الحديث المشهور :

قال الإمام الصادق (عليه السلام) لِنُوتِيٍّ[1] يعمل في البحر : « يا عبدَ الله ، هل ركبت سفينة قَطّ ؟ » .

قال : « بلى » .

قال عليه السلام : « فهل كُسِرَتْ بك حيث لا سفينة تُنْجيك ولا سِبـاحة تُغْنيك ؟ » .

قال : « بلى » .

قال عليه السلام : « فَهَلْ تَعَلَّقَ قلبُـكَ أنّ شيئاً من الأشيـاءِ قادر على أنْ يُخَلِّصَكَ من ورطَتِك ؟ » .

قال : « بلى » .

قال عليه السلام : « فذلك الشيءُ هو «الله » ، « القادر » على الإنجـاء حيث لا مُنْجِيَ ، وعلى الإغاثة حيث لا مُغِيث »[2] .

الدليل الثاني ـ النظام الكوني

قـد عرفت فيمـا مضى ، أَنّ المعلول يكشـف عن وجودِ علّةٍ أَوجـدتـه ، وأنّ خصوصيات المعلول تكشف عن خصوصيات علّته .

ونحن نـرى أَنّ الكون المحيط بنـا ، المعلول لله سبحانـه ، على درجة هـائلة من العَظَمـة ، والإتساع والضخـامة التي لا تـوصف ، وفيه مـوجـودات لطيفة مجردة ، ومخلوقات متناهية في الدِّقَّة والصِّغَر ، وهي مع ذلك على غاية

---

(١) أي بحار .

(٢) معاني الأخبار ، للصدوق ، باب معنى (الله) عزّ وجل ، الحديث ٢ ، ص ٤ .

النّظْم والإنضباط ، فيكشف ذلك عن كون خالِقِه قادراً بأجَلِّ قُدرة . وإذا لاحظتَ أنّ خالِقَه هو المدَبِّرُ له ـ كما سيأتيك ـ يظهر لك عظيم قدرته وجَبَروته .

هذا الدليل في الكتاب والسنّة

* قال الله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ومن الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ الله قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً ﴾[١] .

فهذا الخلق العظيم ، وتدبيرُه ، دالّان على أنّ الله تعالى قادرٌ وَسِعَتْ قُدْرَتُه كلَّ شيءٍ ، وعالمٌ أحاط علمُه بكلِّ شيءٍ .

* وقال أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب(عليه السلام) : « وأقام من شواهِدِ البَيِّنَاتِ على لطيفِ صَنْعَتِه وعظيم قُدْرَتِهِ ما انقادت له العقولُ معترفةً به ومُسَلِّمَةً له »[٢] .

فهذا الخلق العظيم ، بَيِّنات أقامها الله تعالى لتشهد على عظيم قدرته .

* وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : « كيف احتجبَ عنكَ من أرَاكَ قدرتَهُ في نَفْسِكَ »[٣]

***

سعة قدرته تعالى

لا ينبغي أن يُشَكَّ ـ بعد ما قدَّمناه ـ في أنّه تعالى تامٌّ في قُدْرته ، لا يُعْجِزه شيء . وكيف يكون من خَلَقَ هذه الأنظمة العظيمة ، والأرواح

---

(١) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٦٦ بتقسيم إبن أبي الحديد .

(٣) التوحيد ، للصدوق ، ص ٩١ .

اللّطيفة ، والأبدان المُعَقَّدة ، عاجزاً عن شيءٍ من الأشياء ؟[1] .

ولكن زيادة في البيان ، نقول :

إنّ المانع ـ المُتَصَوَّر ـ من تعلُّق قدرته تعالى على شيءٍ من الأشياء ، لا يتجاوز منشؤه واحداً من الأمور التالية :

١ ـ أنْ لا يكون هذا الشيءُ ممكناً بالذات ، بل يكون ممتنعاً بالذات ، مثل اجتماع النقيضين ، وكون الظرف أصغر من المظروف .

٢ ـ أن تكون هناك قوةٌ مضاهيةٌ ، مانعةٌ من نفوذ قدرته .

٣ ـ أن تكون ذاتهُ غَيْرَ متساويةٍ بالنسبة إلى الأشياء ، وذلك بأن تكون بالنسبة إلى بعضها أقوى وأعلم مما هي بالنسبة إلى الأخرى .

والأول صحيح ، ولكنه لا يرجع إلى قصورٍ في قُدْرة الفاعل بل إلى قصور في المتعلَّق . تماماً كما إذا قلنا إنّ الخيّاط الماهر لا يمكنه رغم مهارته وتفوُّقه في صنعته ، أنْ يَخِيطَ من الحجارة قميصاً . ولكن هذا لا يُعَدُّ قصوراً في قُدْرَةِ الخيّاط ، بل هو بَعْدُ تامٌ فيها ، لأنّ النقص والقصور إنما جاء من قبل المتعلَّق ، فإنّ ذاتَ الحجارةِ غيرُ قابلة لتعلّق عمليّة الخياطة بها .

والثاني منتفٍ ، لما يأتي في أدلة وَحْدانية الخالق من عدم وجودِ قوة مضاهية له تمنع من نفوذ قدرته وتعلُّقها بالأشياء ، بل كل ما في الوجود مخلوق له .

والثالث ممنوعٌ ، لأنه تعالى واجب الوجود ، فكل شيء فيه ذاتي له : ذاته وجميع صفاته وأفعاله. فإذا كان كذلك ، لا يكون مفتقراً أو محتاجاً إلى شيء ، ويكون منزّهاً عن كلّ حدٍّ يَحُدُّ من قدرته ، وكلّ قيدٍ يُقَيّدُ فِعْلَه ،

---

(١) قال تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ وما كانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيءٍ في السَّموات ولا في الأرضِ ، إنّه كانَ عليماً قديراً ﴾ (سورة فاطر : الآية ٤٤) .

وحينئذٍ لا يُتَصوَّر أنْ يكون لشيء من الأشياء تأثير على ذاته ليكون أضعف عليه من غيره .

سؤالان وجوابان

السؤال الأول

هل الله تعالى قادرٌ على أن يجعل العالَمَ في بَيْضَةٍ ، مع بَقاءِ كـلٍّ منهما على حَجْمِه ؟ .

الجواب

إنّ البيضـة ـ بحجمها ـ لا تتحمـل وضعَ العـالم ـ بحجمـه ـ فيهـا ، إذ يستحيل بالذات أن يكون الـظرفُ أَصْغَرَ من المـظروف ، حتى يُسْأَل هـل الله قادرٌ على ذلك أو لا ؟ .

فـالقُصـور ليس في قـدرةِ الله بـل في المَـوْردِ حيث إنـه ممتنـع التحقق بالذات .

السؤال الثانـي

هل الله تعالى قادرٌ على تعذيب المؤمن في النار ؟ .

الجواب

ممـا تقـدّم من الأدلــة يُعْلَم أنّ الله تعـالى قــادرٌ على كـلِّ شيء مُمْكِن بالذّات .

وعلى ذلك ، فالله تعـالى مع قـدرته على تعـذيب المؤمن ، لا يفعله ، لأنه مخالف لحكمته .

* * *

الصفات الثبوتية الذاتية
(٣)

الحيــاة

تعريف الحياة

مفهوم الحياة من المفاهيم الواضحة لدى الأذهان . ويمكن تحديده بـ(إتصاف الموجود بالفعل والإدراك) .

وهذا المعنى منتزع من ملاحظة جميع مراتب الحياة الموجودة في الكائنات الحية ، حتى الحياة النباتية والحيوانية .

فإنّ النبات حي ، بمعنى أنّ له نمواً ، وحسّاً . وقد التفت الإنسان منذ القِدم إلى حالة الحِسّ والشعور في النباتات ، عندما لاحظ انفعالها تجاه ما يحيطها من المؤثرات البيئية المختلفة . كتخزين بعضها الماء أيام الشتاء ، لتستفيد منه أيام الحرّ والجفاف . وكتوجه بعضها إلى مصادر النور والحرارة لتستفيد من أشعتها في تحليل غذائها . وكتكيُّف بعضها مع المناخ الحاكم في البيئة التي تتواجد فيها ، حيث يرى ـ مثلاً ـ أنّ البصل الذي يَنْبُتُ في المناطق الباردة غليظ الطبقات ، والذي ينمو في المناطق الحارة رقيقها ، وغير ذلك . وقد كشف العلم الحديث عن جوانب أُخرى خفية لحالة الحس والشعور في النباتات ، كالإنفعال للصوت والموسيقى . فالنموّ مرتبة من الفعل ، والحسّ والشعور والإنفعال مراتب من الإدراك .

وتتجلّى الحياة في الحيوانات بصورة أرقى وأكمل . فالفعل والإدراك فيها متطوّران عمّا هما في النباتات .

والحياة في الإنسان أكمل منها في الحيوان ، حيث يتجلى الفعل والإدراك في صور أوسع وأكمل . فالفعل ليس مجرد نمو وحركة ، إنه نمو مترقٍ في الروح والجسد، وعمل وجهاد في الحياة. والإدراك ليس مجرَّد حسٍّ وانفعال وغريزة ، إنه خيال وذوق ، وحنان وعاطفة ، وفكر وتحليل ، وتعقّل .

وهكذا كلّما ارتقينا . فالحياة في الموجودات المُجَرّدة عن شوائب المادة كالملائكة ، أرفع وأكمل ، ومجرّدة عن نواقص الحياة الموجودة في الكائنات المادية . فالفعل فيها أعظم ، والإدراك فيها أرقى .

والحياة في واجب الوجود تعالى من هذه المقولة : الفعل والإدراك ، لكنها ـ لمكان واجبية وجوده ـ منزّهة عن كلّ نقص . فتكون حياته تعالى عبارة عن اتصافه بالقدرة والعلم الكاملين المنزهين عن أيّة أداة أو انفعال أو انطباع صورة . ويعبَّر عنها بـ« الفعّاليّة والدرّاكيّة » . وهما صيغتا مبالغة من الفعل والإدراك ، للإشارة إلى أعظم وأكمل مراتبهما .

الدليل على حياته سبحانه

نستدل على حياة الخالق تعالى من جهات :

١ ـ إنّ الحياة كمالٌ في الموجود . فلا بد أن يتصف به واجب الوجود المستجمعة ذاته لكل الكمالات طَرّاً ، ويستحيل أن يشذ عنها كمال ، وإلّا طرأ عليها النقص من تلك الجهة ، فلا يعود واجباً .

٢ ـ إن الخالق تعالى خلق الكائنات وأعطاها الحياة ، ومعطي الكمال لا يكون فاقداً له .

٣ ـ لقد أثبتنا فيما تقدم أنّ الخالق تعالى عالمٌ وقادر . وقد عرفت أنّ

الحياة في الموجود عبارة عن اتصافه بالعلم والقدرة ـ على اختلاف مراتبهما فيكون الخالق حيّاً .

حياته تعالى في الكتاب والسنة

قال تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ الله لا إله إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيّومُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وتَوكَّل على الحَيِّ الذي لا يموت ﴾[2] .

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : « إنّ الله تبارك وتعالى كان ولا شيء غيره . نوراً لا ظلام فيه ، وصادقاً لا كذب فيه ، وحيّاً لا موتَ فيه ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك لا يزال أبداً »[3] .



(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٨ .

(٣) التوحيد ، للصدوق ، ص١٤١ .

الصفات الثبوتية الذاتية
(٤)و(٥)

السمع والبصر

لا يرتاب مسلم في أنّ الله تعالى سميعٌ بصير ، بعد تواتر وصفه بهما في الكتاب والسُّنّة ، ولكن الكلام في ماهيّة سَمْعه وبَصَره تعالى .

من المعلوم أنَّ سَمْعَ الإنسان وبَصَرَه لا يَتَيَسّران إلّا بواسطة أدوات مادّيّة ، وإنفعالات عَصَبِيّة خاصّة . وهذا المعنى يستحيل تصوُّره في الباري تعالى ، لِتَنَزُّهِهِ عن المادّة والماديات ، لأنه واجِب الوجود . فلا بد إذن أنْ نَتَحرّى معنىً معقولاً للسمع والبصر يَصِحّ نسبته إليه تعالى ، فنقول :

إنّ السمع في حقيقته هو العلم بالمسموع بكيفيّة خاصة هي ما نعهده من انتقال الأمواج الصوتيّة عبر الهواء إلى الأذن المؤلّفة من الصُّوان والصِّماخ والمِطْرَقَة والأعصاب المنتهية إلى الدماغ الذي يقوم بترجمة الإشارات الناتجة عن إرتجاجات المطرقة متأثرة بالأمواج الهوائية التي تسببها الأصوات .

والبصر كذلك ، هو العلم بالمُبْصَرات بكيفيّة خاصة ، هي مرور الأشعة المنبعثة أو المنعكسة من الأشياء ، عبر العين ، وإنكسارها لدى مرورها في طبقاتها المختلفة ، لتصطدم أخيراً بالشبكيّة المؤلّفة من ملايين الخلايا العصبية ، فتهتز بحسب أمواج تلك الإشعاعات الواصلة إليها ، فتنبعث منها إشارات خاصة تنقلها الأعصاب إلى الدِّماغ ، الذي يقوم بسرعة خارقة

بترجمتها إلى الصور التي نُدركها .

وليست هذه الكيفيّات الخاصة سوى وسائط لحصول السَّمْع والبَصَر . ولذا لو فرضنا أنّ هناك إنساناً ، يمكنه أنْ يُدركَ الأصوات أو يرى الأشياء من دون أنْ تكون له أُذُن أو عين ، لوصفناه بأنّه يسمع ويُبْصر . وهذا يَدُلّ على عدم دخالة تلك الكيفيّات المادِّيّة ، في تحقُّق مفهوم السَّمع والبَصَر .

وعلى ذلك ، فبأمكاننا أنْ نَفْرُض سمعاً وإبصاراً منزَّهَيْن عن الأدوات والكيفيّات الماديّة ، هو العلمُ بالمسموع والعلم بالمُبْصَر . وهذا المعنى غير ممتنع على الله تعالى ، بل هو المتعيَّن فيه ، لواجبيّة وجوده الملازمة لتنزُّهه عن النقائص .

فمعنى كونِهِ تعالى سميعاً أنّه عالمٌ بالمسموعات بلا واسطة . ومعنى كونه تعالى بصيراً أنّه عالم بالمُبْصَرات بلا واسطة .

وعلى هذا ، يكون السمع والبَصَر فيه تعالى من شُعَبِ علمه . ويكون علمه تعالى بالمسموعات كافياً في وصفه بأنه سميع ، وعلمه بالمُبْصَرات كافياً في وصفه بأنّه بصير .



الإدراك

وَصَفَ الله تعالى نفسَه في كتابه الحكيم بصفة الإدراك ، إذ يقول :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ ﴾[1] .

فما هو معنى الإدراك الذي يَصِحُّ أن نَصِفَه تعالى به ؟ .

الإدراك فينا صفةٌ زائدةٌ على العلم ، فإنّ هناك فرقاً بين علمنا بحرارة النار ، وبرودة الثلج ، وعذوبةِ الصوت الحَسَن ؛ وبين إدراكنا لها . فإنّ إدراكنا لها يستتبع إنفعالات نفسيّة ، وتأثّرات جَسَدِيّة ، بخلاف مجرّد العلم بها فإنه خالٍ عن تلك الأحاسيس الزائدة .

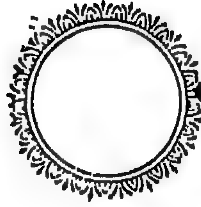
والإدراك بهذا المعنى مستحيلٌ في حقه سبحانه ، لاستلزمه الأدوات الجسميّة والتغيّرات النفسيّة ، وكلّها من سمات النقص والفقر ، والله تعالى واجب الوجود ، فهو منزّه عنها .

فلا مَناص أمامنا ـ في وصفه تعالى بالإدراك ـ إلّا أن نَحْذِفَ هذه النواقص والزوائد ، كما فعلنا في صفة (الحياة) . وحينئذٍ ، يكون إدراكه تعالى بمعنى (علمه بالمُدْرَكات) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢ .

وعلى هذا ، فما دل على كونه تعالى عالمـاً على الإطلاق ، يَـدُلّ على كـونه تعـالى مُدْرِكـاً . كما أنّ القـرآن الكريم أثبت لـه هـذه الصفـة في الآيـة المتقدمة .



الأزليّة والأبديّة

« الأَزَلِيّ » هو ما لا بداية له ، و « الأَبَدِيّ » هو ما لا نهاية له . ويطلق على الأَزَلِيّ في الإصطلاح الكلامي ، « القديم » لاستغراقه في القِدَم . وعلى الأبَدِيّ ، «الباقي». والسَّرْمَدِيّة هي الجامعة لكلا الوَصْفَين ، فالسَّرْمَدِيّ هو : « القديم الأزلي ، الباقي الأبدي ».

والخالق تعالى متصف بالأزلية والأبدية ، لأنه واجب الوجود ، فلا يكون مسبوقاً بالعَدَم ، فهو أزلي ، ولا مَلْحوقاً به ، فهو أَبَدي .

وإنْ شئت قلتَ : لو كان الوجودُ مُعطىً له تعالى ، لكانت له بداية . وأيضاً إذا كان معطىً له ، يكون مسلوباً عنه ، فتكون له نهاية . مع أنّه تعالى واجب الوجود ، بمعنى أَنّ ذاته ـ بما هي ـ تقتضي الوجود ، من دون أنْ يكون مُفاضاً عليها ، وحينئذٍ لا تكون له بداية ، كما لا تكون له نهاية ، فيكون أَزَلِيّاً أَبَدِيّاً .

وأما وصفه تعالى بالقِدَم والبقاء ، فالمراد منه عدم المسبوقية والملحوقية بالعدم ، من دون لحاظ الظروف الزمانية الماضِيَة والآتِيَة ، لأنّه تعالى مُنَزّه عنها ، إذ كيف يكون من خلق الزمان وأجراه في الوجود ، مُقَيّداً به ؟ .



هذه الصفات الثمان هي أبرز الصفات الثبوتية الذاتية التي دَرَج المتكلّمون على ذكرها ، وهي لا تنحصر فيها ، بل الله تعالى مُتَّصِفٌ بكلّ كمالٍ ذاتيّ .

وفيما يلي نشرع بالبحث في القسم الثاني من الصفات الثبوتية ، وهو الصفات الثبوتيّة الفعلية ، ونستعرض فيه أهمها ، وهي ثلاث :

١ ـ الإرادة .

٢ ـ الكلام .

٣ ـ الحِكْمة .

ويترتب على صفة الحكمة مباحث عديدة مهمة ، نستعرض أربعاً منها ، وهي :

أ ـ الحُسْنُ والقُبْحُ العَقْلِيّان .

ب ـ العَدْل .

ج ـ تَعَلُّل أفعاله تعالى بالغايات .

د ـ إختيار الإنسان .



الباب الثاني
الصفات الثبوتيّة الفعليّة

١ ـ الإرادة
٢ ـ الكلام
٣ ـ الحكمة

الصفات الثبوتية الفعلية
(١)

الإرادة

الإرادة من صفاته سبحانه ، والمريد من أسمائه . وقبل البحث في حقيقة الإرادة الإلهية ، نقدّم بحثاً ضروريّاً في حقيقة الإرادة على نحو الإطلاق.

حقيقة الإرادة

الإرادة كيفيّة نفسانية وُجدانية ، كسائر الوجدانيات مثل اللذة والألم . وقد وقع الخلاف في بيان حقيقتها ، فذهب العلماء في ذلك مذاهب شتّى .

١ ـ الإرادة هي اعتقاد النفع ، والكراهة هي اعتقاد الضرر .

فالإرادة على هذا القول ليست شيئاً سوى العلم بالمنفعة الموجودة في الفعل المراد . كما أنّ الكراهة هي نفس العلم بالمَفْسَدَة والمَضَرّة الموجودة فيه .

ولكنه تعريف ناقص ، فإنّا نُدرك وُجداناً أَنّ علمنا بالمنفعة الموجودة في أَمرٍ ما شيءٌ، وإرادتنا له شيءٌ آخر. وكذلك علمنا بالمفسدة الموجودة في أَمرٍ ما شيءٌ ، وكراهتنا له شيءٌ آخر . بل الإرادة والكراهة شيئان وراء العلم بالمنفعة والعلم بالمَفْسدة ، فكيف نُفَسِّرُها بهما ؟ .

ويَدُلُّنا على ذلك أنّا قد نعلم بالمنفعة الموجودة في فعلٍ ما ، ومع ذلك لا نُريده ، لغايةٍ ما .

٢ ـ الإرادة هي الشوق النفساني الحاصل بعد اعتقاد النفع .

وهذا التفسير ناقصٌ أيضاً ، فإنَّ الإرادة أمْرٌ آخر وراءَ الشوق النفساني . ألا ترى أنّ الإنسان المُتّقي قد يعلم بالنَّفع الموجود في فعلٍ ما ، ثم يشتاق إلى فعله ، ومع ذلك كلِّه لا يريده ، لأنَّه حرام .

٣ ـ الإرادة هي العزم والتصميم الجازم على الفعل .

وهذا هو أقرب المعاني في تفسير الإرادة ، وذلك لأن الفاعل يَمُرّ بحالات متعددة قبل أنْ يُقْدِم على أي فعل ، آخرها إرادته له ، بمعنى عزمه القاطع وإجماع رأيه على إيجاده .

بيان ذلك :

إنّ الفاعل يُفَكّر إبتداءً بالفعل ، ويَتَصَّور منافِعَه ومضارَّه ، فربّما يقع في حيرة وتردُّد إذا تنافست المُرَغِّبات والدوافع الذاتية والموانع الخارجية . ولكن قد تَرْجُحُ لديه كَفَّة منافعه ومُـرَغِّباتـه ، فيحصل في نفسه شوقٌ أوَّليٌّ لإيقاعه . ثم قد يتعاظم هذا الشوق ويتأكّد . فإذا تَمّ ذلك ، يُصَمِّم ويَعْزِمُ على الفعل ، وعندها يقال إنه أراد إيقاع ذلك الفعل ، فيوقعه .

حقيقة الإرادة الإلهيّة .

قد وقفتَ على التفاسير التي ذُكِرَت للإرادة ، ومن الواضح إستحالة تفسير إرادته سبحانه بشيءٍ منها ، لأنها جميعها لا تخلو من تفكير وانفعال وتَأَثُّر وتردُّد واشتياق وجزم ، وهي كلُّها مستلزمة لوجود النقص والحدوث والتجدُّد والتأثُّر في الذات الإلهية الواجبة ، وهو محال .

ومن هنا انبروا إلى تصحيح الإرادة في الذات الإلهية وتفسيرها تفسيراً

يكون مُنَزَّهاً عن وصْمَة النقصان ، وخالياً عن شوب الإنفعالات النفسانيّة .
فظهر في هذا المجال مسلكان مشهوران ، أحدهما يقول إنها من صفات الذات ، والثاني يقول هي من صفات الفعل ، وإليك بيانهما :

ا ـ إرادته سبحانه ، علمه بالنظام الأصلح

ذهب أكثر متكلمي العَدْلِيَّة إلى أنّ إرادته سبحانه هي علمه بالنظام الأصلح الأتَمّ ، فقالوا :

إنّ شأن الإرادة في المريد هو تخصيص فعله بنحوٍ دون آخر ، فيريده بالنحو الأول دون الآخر .

ونحن نرى أنّ الله سبحانه أوجد العالم في وقت معين دون ما قَبْلَه وما بعده ، مع تساوي الأوقات بالنسبة إلى الفاعل والقابل . . وأوجده على شكلٍ دون شكل ، مع تنوُّع الأشكال الممكنة للأجسام . وهكذا جميع الحوادث التي تطرأ في الكون .

فاختصاص وجودها بوقتها ، وشكلها ، وسائر خصوصياتها ، بما هي عليه ، يفتقر إلى مُخَصِّص ، لاستحالة التخصيص من غير مُخصِّص .

وذلك المخصِّص ، ليس هو القدرة ، لأنّ شأن القدرة هو الإيجاد فحسب ، من دون تخصيص بوقت أوْ وصف ، فإنّ جميع الأشياء متساوية بالنسبة إلى قدرته .

وليس هو العلم المُطَلْق بالأشياء ، لافتقاده صلاحية التخصيص أيضاً .

كما ليس هو سائر الصِّفات الذاتية كالحياة والسمع والبصر ، لذلك أيضاً .

فلم يبق إلّا أنْ يكون المخصِّص هو علمٌ خاص ، وهو علمه سبحانه باشتمال الفعل على المصلحة ، لأنّ نتيجة هذا العلم هو تخصيص الفاعل قُدْرَتَه بأحد الطرفين أو الأطراف المحتملة .

ومن ثَمَّ ذهبوا إلى أنّ إرادته تعالى هي علمه بالنظام الأصلح الأتّم .

يلاحظ عليه :

إنا ذكرنا فيما تَقَدّم أنّ العلم شيء والإرادة شيء آخر ، فهما حقيقتان مختلفتان ، فتكونان في الذات الإلهية واقعيتين مختلفتين أيضاً .

وإلى ذلك يشير الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سأله بُكَيْر بن أعْيَن : « علمُه ومشيئتُه مختلفتان أو متفقتان ؟ » .

فقال (عليه السلام) : « العلم ليس هو المشيئة ، ألا ترى أنّك تقول : سأفعل كذا إنْ شاء الله ، ولا تقول سأفعل كذا إنْ عَلِمَ الله »[1] .

فإذن ، تفسير الإرادة بالعلم ـ مُطْلقاً كان أمْ خاصّاً ـ وإرجاعها إليه ، هو في الحقيقة إنكارٌ للإرادة الإلهية .

٢ ـ إرادته سبحانه ، فعله وإيجاده

يميل أصحاب هذه النظرية إلى أنّ الإرادة بعد أنْ كانت ـ بجميع معانيها ـ مستلزمة للنقص والحدوث ـ والله تعالى مُنَزَّه عنها ـ امتنع تفسيرها بها . كما أنّه بعد مغايرة حقيقتها وواقعيتها ، لحقيقة العلم وواقعيته ، كما عرفت ، امتنع جعلها من صفات الذات . فلم يبق إلّا تفسير الإرادة بأَثرِها ، وهو فِعْلُه تعالى وإيجاده . وبتعبير آخر : إعمال سلطنته وقدرته عزّ وجل .

فالإرادة إذن ، صفة من صفات فعله تعالى .

ويؤيد هذا القول عدة روايات وردت عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) :

منها : ما رواه صفوان بن يحيى ، قال : قلت لأبي الحسن الإمام

---

(١) الكافي ، لثقة الإسلام الكليني ، ج ١ ، كتاب التوحيد ، باب الإرادة ، الحديث الثاني ، ص ١٠٩ .

الكاظم (عليه السلام) : « أَخْبِرني عن الإرادة من الله ومن الخَلْق » .

فقال عليه السلام : « الإرادة من الخلق الضمير ، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل . وأمّا من الله تعالى ، فإرادتُه إحداثُه لا غير ، لأنّه لا يروّي ولا يَهُمّ[1] ، ولا يَتَفَكَّر . وهذه الصفات منفيّة عنه ، وهي صفات الخلق .

فإرادةُ الله الفعل ، لا غير ذلك ، يقول له كن فيكون ، بلا لفظ ، ولا نُطْقٍ بلسان ، ولا هِمَّة ، ولا تَفَكُّر ، ولا كَيْفَ لذلك ، كما أنّه لا كَيْفَ له »[2] .

ومنها : ما رواه محمد بن مسلم ، عن أبي عبد الله الإمام الصادق (عليه السلام) ، أنه قال : « المشيئة مُحْدَثَة »[3] .

فظهر إذن أنّ الإرادة صفةٌ من صفات فعله تعالى ، بمعنى الفعل والإيجاد والإحداث[4] .

* * *

(١) الهَمُّ في الشيء : إجالة الفكر فيه لِفِعْله وإيقاعه .

(٢) المصدر السابق ، الحديث الثالث .

(٣) المصدر السابق ، الحديث السابع .

(٤) ومع هذا لا يمكن إنكار وجود إرادة في مقام الذات بسيطة ببساطتها ، لأنّ الإرادة للفاعل صفة كمال ذاتيّة في مقابل أنْ يكون فاقدها في مقام الذات، وهو نَقْص. وحينئذٍ إذا أردنا أنْ نُفَسِّرها في الذات الإلهية ، فلتُفَسَّر بأنّها الإختيار ، وذلك لأنّ الفاعل الفاقد للإرادة يكون مسلوب الإختيار ، والمتصف بها يكون مختاراً . فالإختيار سمةُ الإرادة وفَصْلُها ومُقَوِّم حقيقتها .
فالإرادة في مقام الذات ، هي الإختيار الذاتي. وقولنا : إن الله مريد ، معناه أنّه مختارٌ بالذات. ولعلّ هذا أنسب ما يمكن أنْ يقال في تفسيرها إنْ جُعِلَت من صفات الذات .
وأما الروايات المذكور بعضها في المتن ، فهي لا تنفي وجود إرادة في مقام الذات ، وإنما تستبعده لضَعف بعض العقول عن إدراكه ، لما في إرادة الإنسان من سمات النقص ، فإجراؤها على الذات الإلهية يوهِمُ إتصافها بتلك النواقص .

الصفات الثبوتية الفعلية
(٢)

الكلام

يتصف الخالق تعالى بكونه متكلّماً ، بلا خلاف في ذلك بين أهل المِلّة ، لوروده في الكتاب الحكيم في عدة آيات ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْليماً ﴾[1] . ولا طريق لإثبات هذا الوصف لله تعالى من غير السمع ، لعدم اهتداء العقل إلى اتصاف واجب الوجود بها لو لم يُخْبر هو نفسُه عن اتصافه بها .

حقيقة الكلام

الكلام هو مجموعة الأصوات المُفْهِمَة لمعنىً تامّ . وهو يحصل ـ بحسب ما توصلت إليه الأبحاث العلمية ـ نتيجة ارتجاجات في أَوْتار الحُنْجُرة وعَضَلاتها ، تحصل بسبب النَّبضات والإشارات الخاصة التي يرسلها الدماغ عبر الأعصاب . ثم تُسَبّب تلك الإرتجاجات ذبذبات واهتزازات مناسبة لها في الهواء تنتقل إلى الأسماع .

فالكلام لا يتحقق إلّا مع وجود آلات وأدوات حسيّة ماديَّة . هذا هو الكلام الذي نعرفه .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

لا ينبغي أَنْ يُشَكَّ في عدم صحة إطلاق الكلام بالمعنى الذي تقدّم ، على الله تعالى ، لأنّه واجب الوجود ، مُنزَّه عن الأدوات والآلات الماديّة ، ولذلك لا بُدَّ أَنْ نَتحرّى معنى مناسِباً لذاته المُقَدَّسة ، ولا يَخْرُج عن مجالات إطلاق « الكلام » واستعماله ، ولو إستعمالاً مجازياً ، فنقول :

إنّ المُتَتَبِّع في كلام فصحاء العرب وبلغائهم ، بل آيات الذكر الحكيم ، يرى أَنّ « الكلام » أُستُعْمل وأُريد منه فعل الفاعل وأثره ، لمناسَبَةٍ بين هذا المعنى والكلام المصطلح .

وهذه المناسبة هي الإتحاد في النتيجة ، إذ كما أنّ الكلام يكشف عما في ضمير المتكلم من المعاني ، وعمّا في ذاته من علم ومعرفة وخُلُق وغير ذلك ، فكذلك الفعل ، فإنّه كاشف عما في الفاعل من الخصوصيات والطاقات كالعلم والقدرة والذَّوْق والحكمة . . . والفرق بينهما هو أنّ دلالة الألفاظ على السرائر إعتباريّة ، في حين أنّ دلالة الأفعال والآثار على خصوصيات الفاعل والمُؤَثِّر تكوينيّة .

ومن نماذج هذا الإستعمال ، وَصْفُهُ تعالى عيسى بن مريم (عليه السلام) بأنه كلمَة الله . قال تعالى : ﴿ **إنّما المسيحُ عيسى بن مَريَم رسولُ الله وكَلِمَتُه ألقاها إلى مَرْيَم وروحٌ منه . .** ﴾[1] . فالمسيحُ كلمةُ الله ، لأنّه فعلٌ لله ، كاشفٌ عن قدرته سبحانه على خلقِ الإنسان في رحم أُمه من دون أبٍ .

ومن ذلك أيضاً وَصْفُه سبحانه ما في الكون ـ الذي هو فعله تعالى الجامع لكل مظاهر الإتقان والعظمة ـ وصفُه إياه بكلماته ، فقال : ﴿ **قُلْ لَوْ كان البَحْر مِداداً لكلمات ربّي لَنَفِدَ البَحْر قَبْلَ أن تَنْفَدَ كلمات ربّي ولو**

(١) سورة النساء : الآية ٧١ .

جِئنا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] .

وقد فسّر الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كلامه تعالى بأنه فعله، في قوله : « يقول لِما أراد كونَهُ كُنْ فيكـون ، لا بِصَوْتٍ يَقْـرَعُ ولا بِنِداءٍ يُسْمَـع ، وإنما كلامُه سبحانَهُ فعلٌ منه أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ . . . »[2] .

فكلامه سبحـانه ، فعلُه وإيجـاده . وإذا قلنا إنّ الله متكلّم ، فمعنـاه أنّه موجِدٌ لـلأشياء الكـاشفة عن قـدرته وعلمـه وحكمته تعـالى . وإذا قلنا إن الله تعالى يكـلّم أنبياءه ، فمعناه أنـه يوجـد الكلام والأصـوات المفهومـة ـ بكيفيّة مُعَيَّنَةٍ ـ فيسمعها الأنبياء ويدركونها .

وهذه الكيفية تكون بثلاثة أنحاء :

١ ـ الوحي ، وهو الإلقاء الخفي في نفوس الأنبياء .

٢ ـ من وراء حجـاب ، بـأن يـوجِـد الكـلامَ في المـوجـودات فيُسْمَـعُ الصوتُ ولا يُرى المتكلم ، كما حصل لموسى (عليه السلام) .

٣ ـ إرسـال مَلَكٍ ، وهو جبـرئيـل (عليـه السلام)، فيكلّم النبي عن الله تعالى .

وإلى هذه الطرقِ الثلاث يشير الذكر الحكيم بقوله :

﴿ ومـا كان لِبَشَـرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إلاّ وحيـاً أَوْ مِنْ وراءِ حِجابٍ أَوْ يُـرْسِلَ رسولاً فيوحِيَ بإذنِهِ ما يشاءُ ، إنه عليٌّ قدير ﴾[3] .

هـذا ما تـرشدنـا إليه أدلـه العقل والنقـل ، غيـر أنّ لمتكلمي المعتـزلة والأشاعرة رأيان آخران نشير إليهما فيما يلي .

---

(١) سورة الكهف : الآية ١٠٢ .
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٦ .
(٣) سورة الشورى : الآية ٥١ .

أ ـ نظرية المعتزلة : إيجاد الحروف والأصوات.

قال المعتزلة وجمع من متكلمي الإمامية : إن كلامه تعالى بمعنى إيجاده الكلام ، أي الحروف والأصوات ، في الأشياء . واستدلوا عليه :

أولاً : بأنّ الكلام هو الحروف والأصوات ، وهذا المعنى يستحيل قيامه به تعالى لاستلزامه الأدوات المادية ، على ما عرفت ، فيكون كلامه تعالى هو الحروف والأصوات القائمة بغيره بإيجاد منه سبحانه .

وثانياً : بقوله تعالى : ﴿ فلما أتاها نُودي مِنْ شاطىءِ الوادِ الأَيْمنِ في البُقْعَةِ المباركَةِ أنْ يا موسى إنّي أنا الله رَبُّ العالمين * وأنْ ألْقِ عصاكَ .. ﴾[1] فإنه تعالى كلّم موسى بإيجاد الحروف والأصوات في الشجرة ، فسمع موسى الخطاب الإلهي منها .

وهذا المعنى الذي ذكروه صحيح ، لكنه مصداق من مصاديق كلامه تعالى فقد عرفت أنّه فعله وإيجاده ، وهو أعم من إيجاده الحروف والأصوات أو إيجاده الكائنات الأخرى .

ب ـ نظرية الأشاعرة : الكلام النفسي .

قال الأشاعرة : إنّ الكلامَ إما أن يكون حسيّاً أو نفسياً . ويمتنع اتصاف الباري تعالى بالأول لاستلزامه الآلات ، فيتصف بالثاني .

توضيح ذلك : قالوا : إنّ كل إنسان يعلم من نفسه أنه عندما يريد أن يتكلم بكلام ما ـ خصوصاً إذا كان مهماً وحسّاساً ـ فإنّه يُرَتّب في نفسه وضميره أوّلاً معاني ما يريد أنْ يتلفظ به ، ويختارها بدقة وعناية ، ثم يلقيها بلسانه بالألفاظ الدالّة عليها . فهذه الألفاظ هي الكلام اللفظي الحسّي ، وتلك المعاني الذهنية هي الكلام النفسي ، وكلاهما كلامٌ ، غير أنّ الأول ممتنع

---

(١) سورة القَصَص : الآيتان ٣٠و٣١ .

على الله تعالى ، لأنه يحتاج إلى لسان ولَهَـوات وأدوات ماديـة أُخرى مستحيلة في حقه تعالى ، فَيَثْبُتُ له الثاني .

يـلاحظ عليه : أوّلاً ـ إنـه لم يُعْهـد إطـلاق لفظ الكـلام على المعـاني الذهينة القائمة بالنفس والتي يعبّر عنها بالألفاظ .

وثـانياً : إن هـذا المعنى الذي ذكـروه للكلام النفسي ، ليس شيئـاً غير تصوّر المعاني والتصديق بها ، فيؤول الكلام إلى العلم ، مع أنّه غيره .

****

حدوث الكلام أو قدمه ؟!

إن القرآن كلام الله تعالى ، وقد وقع النزاع في كونه حـادثاً ومخلوقـاً لله أو قديماً .

قال الحنابلة والأشاعرة بأنه قديم ، وكفّروا من قال بأنه حادث مخلوق ، ونقتطف من مقالاتهم قـول أبي الحسن الأشعري : « ونقـول إن القرآن كـلامُ الله ، غيرُ مخلوق ، وإنّ من قال بِخَلْقِ القرآن فهو كافر »[1] .

وقالت الإمامية والمعتزلة بحدوثه ، وهو الحق لوجوه :

الوجه الأول : إنّا نسأل ما هوالقديم ، هل هو ألفاظه أو معانيه ؟ .

لا ريب في بطلان الأول ، لأنّ الألفاظ مصطلحات موضوعة للمعاني ، فهي أشيـاءٌ وموجـوداتٌ ، فتكون مخلوقـةً له سبحـانه ولـو في ظرْف مُتنـاهٍ في القِدَم . وأما ألفاظه التي يتلفظ بها كلُّ واحد منا عند تلاوته للقرآن ، فـلا ريب في أنها حادثه مخلوقةٌ لنا ، وإن لم تكن هي بعينها القـرآن الذي نـزل ، لكنها مِثالُه ، ولا ينكر خَلْقَها ذو عقل سليم .

---

(١) الإبانة ، ص ٢١ .

وأمـا الثاني ، فـالمعاني إمـا معان تـرجع إلى البـاري تعالى وصفـاته ، كعلمه وقدرته ؛ فهي قديمـة بلا ريب ، لأنهـا عين ذاته تعـالى ، ولا نزاع في ذلك .

وإمـا راجعـه إلى الحـوادث الكليـة ، كخلق السموات والأرض ، أو الجزئية كالوقائع التي ينقلها القرآن الكريم في قصصه ، والجميع حادث .

هـذا ، ولكن الظاهـر من كلمات أصحـاب القول بقـدم القرآن ، أنهم يريدون قِدَم الألفاظ التي نزل بها جبـرئيل (عليـه السلام) على النبي الأكـرم (صلى الله عليه وآله) ، فقد كان أحمد بن حنبل يقول : « إنّ تلفظنـا بالقـرآن غيـر مخلوق ، وإن من قال بـذلـك كـافـر ، لأنـه قـد زعم أن جبـرئيـل تكلم بمخلوق ، وجاء إلى النبي بمخلوق »[1] ، وقد عرفت بطلانه وسخافته .

الوجه الثاني : لو كان القرآن قديماً ، بمعنى كونه غير مسبوق بالعدم ، للزم كونه واجب الوجود ، وسنثبت في مباحث التوحيد إستحالة وجود أكثر من واجب واحد . والقول بتعدده ، شرك . فيكون حال الأشـاعرة والحنـابلة حال النصارى في قولهم بقدم الأقانيم الثلاثة : الأب والإبن وروح القدس .

الوجه الثالث : لو كان كلام الله تعالى قديماً ، للزم الكذب عليه ، لأنه يكون على زعمهم قد أخبر بإرسال نوح في الأزل في قوله : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه** . . ﴾[2] ، والحال أنه لا زمنَ سـابقٌ على الأزل حتى يكون قـد أرسله فيه . ومثل ذلك الكثير من الآيات المخبرة عن وقوع حوادث في أزمنة متقدمـة بصيغة الماضي .

الوجه الرابع : إنه يلزم منه العبث في قوله تعـالى : ﴿ **وأقيموا الصـلاة**

---

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج ١١ ، ص ٢٩٠ .
(٢) سورة نوح : الآية الأولى .

وآتوا الزكاة ﴾[1] . إذ لا مكلف في الأزل ، والعبث قبيح ، فيتمنع عليه تعالى ، كما سيأتي .

الوجه الخامس : إن الذكر الحكيم يصف نفسه بأنه محدث في قوله : ﴿ ما يأتيهمْ مِنْ ذِكْرٍ من ربِّهم مُحْدَثٍ إلّا استمعوه وَهُمْ يَلْعبون ﴾[2]. " والذكر " هو القرآن الكريم ، لقوله تعالى : ﴿ إنّا نحن نَزّلنا الذِّكرَ وإنّا له الحافظون ﴾[3] ، واحتمال كونه الرسول الكريم إستناداً إلى قوله تعالى : ﴿ . . قد أنزَلَ الله إليكم ذِكراً * رسولاً . . . ﴾[4] ،منتفٍ ، لأنّ الرسول يُسْتَمَعَ إليه ، ولا يُسْتَمَع .

هذا، وقد خلّفت مسألة قدم القرآن أو حدوثه إنعكاسات سلبية على المجتمع الإسلامي ، نتيجة تَعَنُّت المتناظرين فيها وعدم تطلّبهم للحقيقة ، إضافة إلى عوامل سياسية لبعض الفرقاء ، فحدثت فتنة دامية عُرِفت بـ« محنة خلق القرآن » ، وقد تقدمت الإشارة إليها في المقدمة الخامسة للكتاب ، فراجع .



---

(١) سورة البقرة :الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢ .

(٣) سورة الحِجْر : الآية ٩ .

(٤) سورة الطلاق : الآيتان ١٠و١١ .

الصفات الثبوتية الفعلية
(٣)

الحكمــة

للحكمة ـ في اللغة ـ معنيان :

الأول : الإتقان في الفعل . والحكيم هو المُتْقَنُ فعلهُ .

الثاني : التنزُّه عن فعل ما لا ينبغي فِعْلُه ، في العقل وعند العقلاء .

والمَعْنَيان كلاهما ثابتان لله تعالى ، فهـو حكيم في فعله بمعنى أنّ فِعْلَه مُتْقَن ، ومُنَزّه عن اللغو والعبث وكلِّ قبيح[1] . وإليك فيما يلي دليل ذلك .

***

الله حكيم : متقن في فعله

يكفينا لإثبات هذه الصفة لله تعالى ، أَن نجول بأبصارنا في هذا الكـون الفسيح ، سمائه وأرضه ، وما فيهما من موجودات وكائنات وفي نفس الإنسان وكلِّ عُضْوٍ وجُزْء منه ، إذ تتجلى لنا في جميع ذلك كلّ مظاهر الإتقان والإبداع

---

(١) الظاهر رجوع المعنى الثاني إلى الأول ، لأنّ فعل الأفعال المُخْتلّة الفاقدة للإتقان والنُّظْم يُعَدّ نوعاً من العَبَث القبيح ، خاصةً مع قدرة الفاعل على إتيان الأفعال المُتْقَنة المنضبطة . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستدل بالنظم الكوني المشاهَد على حِكْمَةِ صانِعِه ، تبارك وتعالى .

والإنتظام . وقد كشفت العلوم الحديثة عن الكثير من مظاهر الإتقان في الكون والموجودات ما هو مسطور في الكتب العلمية .

****

الله حكيم : منزه عن فعل ما لا ينبغي

إثبات صفة الحكمة لله تعالى ـ بهذا المعنى ـ بنحو الجزم ، من أهم المسائل الكلامية والعقائدية ، لما يترتّب على إنكارها أو الإجمال في ثبوتها له ، من النتائج الخطيرة ، كما سيظهر لك .

فإثبات الحكمة ـ بهذا المعنى ـ لله تعالى ، يُثبت تنزُّهه عن كلِّ قبيح ، وبالتالي يُثْبِت عَدْلَه سبحانه في التكوين والتشريع والجزاء. وبها يَتَنَزّه فعله تعالى عن العَبَث ، فيكون للخلق غاية ، ويثبت لزوم التكليف وإرسال الأنبياء . وبها تنحل مسألة الشرور والكوارث في الكون . ومسألة الهداية والضلالة . وبها يثبت كون الإنسان مختاراً في أفعال نفسه غير مجبور فيها . وبها نثق بوعده تعالى ووعيده الذين وردا في كتابه الحكيم . إلى غير ذلك من النتائج الهامّة .

ونحن نثبت هذه الصفة لله سبحانه ، يدلنا على ذلك حكم عقل كلِّ إنسان بأنّ عدم اتصاف خالق الكون بها ، يستلزم توالي فاسدة كالظلم والعبث والكذب وغيرها من القبائح التي لا تليق بإنسان عاقل ، فكيف بشأنه تعالى .

زيادة في البيان

لدى كل إنسان ، أحكام مسلمّة لا يرتاب فيها أبداً ولا يشّك . وهذه الأحكام تسمى بالبديهيات والضروريات ، وهي على قسمين :

قسم منها متعلق بأفكار الإنسان وآرائه العلمية ، مثل الحكم بأن الثلاثة أكثر من الإثنين ، وأنّ الظرف أكبر من المظروف ، وأنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وغير ذلك . وهذه تسمى بـ« **أحكام العقل النظري** » ، ولا

ارتباط لها بشيء من أفعاله وبما يجب عليه أن يعمله أو لا يعمله .

وقسم منها يتعلق بأفعال الإنسان وتصرفاته التي يقوم بها في سلوكه الأخلاقي ، وحياته العائلية ، والإجتماعية . مثل الحكم بأنّ على الأبّ أن يُطْعِم أولاده إذا جاعوا ، ويداويهم إذا مرضوا ، وأن على الأبناء أن يقابلوا آباءهم بالإحترام والطاعة . ومثل الحكم بأن على الحاكم أن يحفظ النظام في البلد الذي يحكمه ، ولا يجوز له أن يظلم أحداً من الناس ، بل يجب عليه أن يحكم بين الرعيّة بالعدل والإنصاف . وغير ذلك . وهذه تسمى بـ« **أحكام العقل العَمَلي** » .

وهذا الأحكام ـ كما عرفت ـ تُسَلِّمها جميع العقول ولا يناقش فيها إنسان عاقل أبداً .

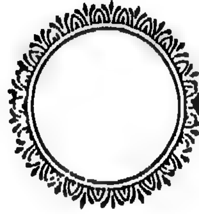
والعقل إذ يقول : يجب على الحاكم أن يكون عادلاً ، فلأنه يقيس واقعية العدل ـ بما هو هو ـ إلى الفطرة الإنسانية العليا الثابتة في أعماق كلّ إنسان ، فيراه ملائماً لها ، فيحكم بحسنه في ذاته ، ولزوم اتصاف العاقل به كائناً مَنْ كان .

ويلاحظ الظلم كذلك ، فيحكم بقبحه في ذاته ، ولزوم تنزُّه العاقل عنه كائناً من كان .

ومن هنا ، يحكم العقل الإنسانى الفطري باستحالة أن يكون الله تعالى ظالماً أو عابثاً أو كاذباً ، لأنها أُمور قبيحة بالذات . وإذا ثبت تنزهه تعالى عن هذه القبائح ، ثبت كونه حكيماً ، بالمعنى الذي نبحثه .

هذا منطق العقلاء ، والمذهب الذي عليه الإمامية والمعتزلة . ولكن الأشاعرة لم يرتضوا ذلك ، وأنكروا أن تكون للعقل صلاحية إصدار هكذا أحكام من دون رجوع إلى الشرع المُقَدّس ، قائلين بأنّنا لا يمكننا أن نجزم بأنّ الأفعال ـ بما هي هي ـ حسنة وقبيحة إلاّ إذا بَيّن لنا الشارع حُسْنَها أو قُبْحَها .

وقد عُرِفَتْ هذه المسألة بمسألـة « **الحسن والقبح العقليين** » وفيمـا يلي نستعرضها ثم نطرح بعدها عدة مسائل مهمة في **الحكمة الإلهية** .



مسائل في الحكمة
(١)

التحسين والتقبيح العقليان

محل النزاع في هذه المسألة هو أنّه هل للعقل البشري أن يحكم باستقلاله ـ بِحُسْنِ الأفعال وقبحِها ، أو أنّ الأمر في ذلك إلى الشارع المقدّس ، فما حَسَّنَهُ فهو الحَسَن ، وما قَبَّحه فهو القبيح ؟ .

عرفت أنّ الحق هو الأول ، إستناداً إلى ما أودع الله تعالى في عقل الإنسان من قُدرة على إدراك اليقينيات النظرية والعملية .

وذهب الأشاعرة إلى الثاني ، وهو باطل ومردود من وجوه عديدة نذكر بعضاً منها :

الوجه الأول ـ ما دلّ من نفس الذكر الحكيم على أنّ الله تعالى أودع في ذات الإنسان ما يمكّنه من معرفة الخير والشر . قال تعالى : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجدَيْن** ﴾[١] ، أي عرّفناه طريقَ الخير وطريق الشَّرِّ تعريفاً تكوينياً وُجدانياً ، بِأَنْ أودعنا تلك المعارف في صميم ذاته . وليس المراد ، التعريف عن طريق الأنبياءِ والشرائع ، لقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن * وَلِساناً وَشَفَتَيْن** ﴾[٢] ، ثم قال : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَين** ﴾ . فالسياقُ سياقُ بيان

(١) سورة البلد : الآية ١٠ .

(٢) سورة البلد : الآيتان ٨و٩ .

النِّعم التكوينيّة التي أفاضها الخالق تعالى على وجود الإنسان .

الوجه الثاني - عِلمنا الضروري بِحُسْنِ بعضِ الأفعال كالعدل والإحسان والأمانة وإنقاذ الهلكى وأمثال ذلك ، وقبح بعضٍ آخر كالظلم والإساءة والخيانة ونحو ذلك ، يحكم عقلنا بها مجرَّداً عن جميع عوامل الهوى والعاطفة والمصلحة وما شاكل .

وقد ضُرب على هذا مثلٌ هو أنّه لو خُيِّرَ العاقل الذي لم يسمع بالشرائع ولا عَلِمَ شيئاً من الأحكام ونشأ خالي الذهن من العقائد كلِّها ، - لو خُيِّر - بين أنْ يَصْدُقَ فيُعطى ديناراً ، أو يَكْذِبَ فيُعطى ديناراً ، ولا ضرر عليه فيهما ، فإنّه يُرَجِّحُ الصدق دائماً .

وهذا يدل بنحو قاطع على أنَّ هذه الأحكام مركوزة في جِبِلَّة الإنسان .

الوجه الثالث - لو كان مَدْرَكُ الحسن والقبح هو الشرع لا غير ، للزم أن لا يتحققا بدونه ، مع أنّه الحاصل خلافه ، فهؤلاء هم المنكرون للشرائع ، كالملاحدة المنكرين لأصل وجود خالق لهذا الكون ، والبراهمة المنكرين للنبوات وإرسال الرسل ، يعتقدون حسن بعض الأفعال وقبح البعض الآخر . فلو كان مما يُعْلَم بالشرع - كما يدّعي الأشاعرة - لما حكم به هؤلاء .

الوجه الرابع - لو انتفى الحُسْن والقُبْح العقليان ، لانتفى الحُسْن والقُبْح الشرعيان أيضاً ، واللازم باطل إتفاقاً ، فهكذا الملزوم .

بيان الملازمة :

إن تصديق الشارع في جميع ما أتى به ، يتوقف على وجود قواعد عقلية أساسية تُمَكِّن من ذلك ، وبإنكارها يبطُل جميع ما جاءت به الشريعة من أحكام وإرشادات أخلاقية وآداب وغير ذلك من التحسينات والتقبيحات .

ومن تلك القواعد العقلية التي ينبغي التسليم بها لصيانة أنفسنا عن محذور إنكار ما جاء به الشرع ، الإعتقاد بامتناع الكذب على صاحب الشرع

واستحالة وقوعه منه . ولولا تقرير هذا الأصل في عقل كلٍّ إنسان ، لما تمكن أحد من إثبات صدق وصحة جميع ما أتى به النبي ، وجميع ما ورد في الكتاب .

والآن نقول : لو انتفى الحُسْن والقُبْح العقليان ، ولم يمنع العقل من احتمال الكذب على لسان الشرع ، فعند ذاك إذا قال الشرع : الظلم قبيح ، والعدل حسن ؛ بل لو قال : أنا لا أكذب ، ولا أخون ، إلخ . . لما أمكننا تصديقه في شيء من ذلك أبداً ، وبالنتيجة ينتفي الحُسْن والقُبْح الشرعيان .

وهذا هو المراد من قولنا : لو انتفى الحسن والقبح العقليان انتفى الحسن والقبح الشرعيان .

وهذا الذي ذكرناه من الأدلة كافٍ في إبطال مقولة الأشاعرة النافين للحُسْن والقُبْح العقليين ، ويؤكّد مقالتنا باستقلال العقل في إدراكه لحُسْنِ الأفعال وقُبْحِها ، ومن هذا المنطلق نُثبت الحكمة لله تعالى بمعنى تنزه فعله عن كل ما لا ينبغي في منطق العقل ونظر العقلاء ، وعلى هذا الأساس المتين نبني جميع اعتقاداتنا في أفعاله تعالى .



مسائل في الحكمة
(٢)

العدل

العدلُ معناه وضعُ كلِّ شيءٍ في موضعه ، وعدمُ التجاوز عن حدّه . ويقابله الظُّلْم والجَوْر .

والله تعالى عادل ، لما عرفت من أنّ العقل البشري إذا تُرك وإدراكه البديهي ، يحكم بقُبْح الظلم ، ولزوم تنزّه كلِّ موجودٍ عاقلٍ عنه ، واستحقاق فاعله للذمّ . وحُسْنِ العدلِ ، ولزوم اتصاف كلِّ عاقلٍ به ، واستحقاقِ فاعله للمدح . فإذن يجب ـ في منطق العقل ـ إتصاف الخالق تعالى بالعدل .

فإن قلت : كيف يكون للعقل البشري الممكن أنْ يحكم على الواجب بحكمٍ ، ويُلزمَ الله تعالى بالإتصاف بصفةٍ ما ، والله تعالى قادرٌ على ما يشاء ، ويفعل ما يريد ؟ .

قلت : في الواقع ، إن العقل بحكمه هذا ، إنما يقوم بالكشف عن واقعيةٍ موجودة في ذاته تعالى ، ويتّصف بها واجب الوجود الصانع لهذا الكون . وليس هذا الحكم إلّا كسائر الأحكام التي يصدرها العقل ـ ببديهته ـ على الأشياء التكوينيّة . كقول العقل : « إن الأربعة زوجٌ » . فليس هو في حكمه هذا يعطي الزوجيّة للأربعة ، أو يلزم الأربعة بأنْ تكون زوجاً لا فرداً ، وإنّما يكشف عن أمر موجود واقع في الخارج .

وهكذا الأمر هنا ، فإن العقل يكشف عن اتصاف فعله تعالى بالعدل بالنظر إلى حسن العدل الذاتيّ ، وتنزّهه عن الظلم بالنظر إلى القبح الذاتي للظلم .

فلا منافاة إذن بين قولِ العقل : يجب أنْ يكون الله تعالى عادلاً ، وبين سعةِ قدرته ومشيئته تعالى لما يريد .

فظهر أنّ الله تعالى ـ بحكمِ العقلِ القطعيّ البديهيّ ـ يتّصف بالعدل ويتنزّه عن الظلم ، فهو عادلٌ لا يَجُور ولا يَظْلِم .

العدل في الكتاب والسنة

تضافرت الآيات الكريمات في الكتاب العزيز مركّزة على قيامه سبحانه بالقِسْط ، وعدله في تشريعه ، وفي جزائه ، نذكر منها :

* قوله سبحانه : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هو ، والملائكةُ ، وأُولوا العِلْمِ ، قائِماً بالقِسْطِ ﴾[1] .

* وقوله سبحانه : ﴿ ولا نُكَلّف نفساً إلاّ وُسْعَها ، وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بالحَقّ وَهُمْ لا يُظْلمون ﴾[2] . والجُزْءُ الأَوّلُ من هذه الآية ناظر إلى عدله سبحانه في العباد في تشريع الأحكام ، والجُزْءُ الثاني ناظرٌ إلى عدله يوم الجزاء في حسابه وجزائِه بالثواب أو العقاب .

وفي آيةٍ أُخرى جعل الهدف من بِعْثة الأنبياء وإنزالِ الشرائعِ السماويةِ ، قيامَ المجتمعاتِ الإنسانيةِ بالقسط . أفلا يكون هو تعالى أولى بالإتصاف بهذه السمة الكماليّة ؟ .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٦٢ .

* قـال تعالى : ﴿ لقـد أرْسَلْنا رُسُلَنـا بالبيِّنـاتِ وأنْـزَلْنـا مَعَهُمُ الكتـابَ والميزانَ لِيقومَ النّاس بالقِسْطِ ﴾[1] .

وفي السُّنّة كَثُر التصريح بعـدله سبحـانه ، والتـأكيد عليـه ، نكتفي منها ـ بكلمـة جامعـة لأمير المؤمنين (عليـه السلام) ، في مُفْتَتَـح خطبـة له ، وهي قوله :

« أَشْهَدُ أنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ »[2] .

وفي استعماله (عليه السلام) صيغـة المصدر ـ الـدالّة على المبـالغة ـ في قوله : « عَدْل » ، تصريح باستحاله انفكاك فعله تعالى عن العدل .

وفي قوله (عليه السلام) : « عَـدَلَ » ، تأكيـد لذلـك ، وإشارة إلى أنّ ـ كلَّ أفعاله تعالى التي نشاهدهـا في الوجـود ، ونعايشهـا في حياتنـا اليوميـة ، عادلة لا جَوْر ولا ظلم فيها .

فَبَعْد شهادة عليّ (عليه السلام) أَيْنَ كلامُ الأشعري وأيُّ وَزْنٍ له ؟! .



---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٤ .

مسائل في الحكمة
(٣)

أفعاله تعالى معلّلة بالغايات

إنَّ ممّا يستقل العقل البديهي بإدراكه ، والحكم به ، لزوم كونِ كلّ أفعاله تعالى معلَّلةً بالغايات والأغراض ، لأنه لولا ذلك يكون في أفعاله عابثاً ، والعَبَثُ نَقْصٌ يَحْكُمُ العقلُ بقُبْحه ولزوم تَنَزُّهِ كلّ عاقلٍ عنه ، فكيف بالخالق تعالى ، الكاملِ بالكمالِ المُطْلَق .

إلّا أنَّ الأشاعرة نَفَوْا أن يكون لِفِعْله تعالى غَرَض ، واستدلوا على ذلك بأنّه لو كان لِفِعْله تعالى غَرَضٌ لكان ناقصاً مستكملاً بذلك الغرض ، مع أنّه تعالى كامل لا يحتاج إلى شيء .

والحقُّ أنَّ لِفَعْلِهِ تعالى غاية ، وما ذَكروه واهٍ للغاية ، وباطلٌ عقلاً ونقلاً :

أما عقلاً : فللبديهة القاضية بأَنّ لكل عاقلٍ مُدْرِكٍ غايةً في فعله يتبعها ويبتغيها ، والفعل الخالي عن أي غرضٍ وغاية ، لا يصدر إلّا من الفاعل الفاقد للشعور والإدراك ، كفعل المجنون والنائم . فكيف ننسب إلى فعل الباري تعالى الخلو عن الأهداف والغايات ؟! ، وهو الموجودُ الكامل بالكمال المُطْلَق ، وخالقُ العقل والعقلاء .

فمقتضى كماله تعالى وتنزُّهِه عن النقص ، الذي تمسّك به الأشاعرة

أنفسهم في نفي الغرض عن أفعالـه تعالى ، هـو نسبة الغـرض إليها لا العكس .

وإن شِئْتَ قُلْتَ : إنّا ننظر إلى الفعل بحدِّ ذاته ، فنرى أنَّ كلَّ فِعْلٍ خالٍ عن الغرض ، هو فِعْلٌ عَبَثِيٌّ ، وفاعله عابث ، وهو بحكم العقل مذمومٌ ، فهل يصح أَنْ نَعْبُدَ إلهاً تَذُمُّهُ عقولُنا وتستقبحُ أفعالَه ؟ كلا ، لا . وهذا مقتضى القول باستقلال العقل في تحسينه وتقبيحه ، الذي ينفيه الأشاعرة كما تقدم .

وأما ما ذكروه من أنه لو كان لفعله تعالى غرض لكان ناقصاً مستكملاً بذلك الغرض ، فهو ممنوع ، لأنَّ الغاية والغرض من فعله تعالى ، إستقرارُ النظام الكوني ، واستكمال الموجودات ، فهو عائد إلى غيره ، لا إليه حتى يكون ناقصاً مستكملاً به .

وأمّا نقلاً :

فكأنَّ الأشاعرة لم يقرؤوا القرآن ولم يسمعوا قولَ الله تعالى : **﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعون ﴾**(١) .

فهو في هذه الآية يقول : لقد أسأْتم الظَّنَّ بالله تعالى إذ جعلتموه سفيهاً ، فَحَسِبْتُم أَنّه خَلَقَ الكَوْنَ والموجودات عبثياً . بل الله تعالى حكيم ، والحكيم ـ بِحُكْمِ عُقولِكُمْ ـ لا يفعل فعلاً عبثياً ، بل تكون أفعاله كلُّها ذوات أغراض وغايات .

وقوله تعالى : **﴿ وَمَا خَلَقْنا السَّموات والأَرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبينَ ﴾**(٢) .

وقولُه تعالى : **﴿ وَما خَلَقْنا السَّمواتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ذلكَ**

---

(١) سورة المؤمنون : الآية١٥ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٣٨ .

ظَنُّ الـذين كَفروا ، فَـوَيْلٌ للذين كَفـروا من النَّار ﴾(١) . **فـلا يَظُنُّ مثـلَ هذه الظنونِ بالله إلّا كافرٌ .**

وقوله تعالى : **﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا لِيَعْبُدون ﴾**(٢) .

وفي وُسْعِـك أَنْ تُلاحِظَ أَنَّ مـا ذَكَرنـاهُ من الآيـات على قسمين : قسمٍ ينفي العَبَثَ عن خَلْقِه تعالى الإنسان والسَّموات والأرض ومـا بينهما . وقسمٍ ـ وهو الآية الأخيرة ـ يرتقي لِيُبَيِّنَ الهَدَفَ والغايةَ التي خُلِقَ لها الجِنُّ والإنس ، ألا وهي أَن يفوزوا بأعلى درجات الهناء والسعادة المتمثلة بنيل مقـام العبوديـة لله سبحانه ، بالطاعة والمجاهدة .

فذاك العقلُ ، وهذا كتابُ الله ، يَنْـطُقانِ بتنـزيهه سبحـانه عن العَبَث ، ويحكُمان بأَنَّ لأفعالِهِ تعالى ـ كلِّها ـ أَغراضاً وغايات .



---

(١) سورة ص : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

مسائل في الحكمة
(٤)

إختيـار الانسـان

إنّ الإنسان مختارٌ في جميع أفعالـه ، وهو المـذهب الحقّ الذي تؤيّـده الأدلّة العقليّة والنقليّة . وليس المراد من اختيـاره ، إستقلالـه التامّ عن القـدرة والمشيئة الإلهية ، بل هو مختار في عين وقوع فعله في دائـرة المشيئة والقـدرة الإلهيّة ، كما سيأتي بيانـه ، وهذا هـو المعروف بمذهب الأمر بين الأمـرين ، وإليه ذهبت الإمامية ، وامتازت بـه عن المعتزلـة والأشاعـرة ، اللتين اختـارت كـلٌّ منهما طـريقةً خـاصةً في تفسيـر علاقـة أفعال الإنسـان بالقـدرة والمشيئة الإلهية ، وفيما يلي نستعرض هذه المذاهب الثلاثة :

١ ـ مذهب المعتزلة : التفويض

قـال المعتزلـة بأن الإنسـان مختـار في أفعـالـه ، ومستقـلٌّ في اختيـاره إستقلالاً تاماً عن القدرة والمشيئة الإلهية . فهم بذلك أشركوا بالله تعالى خالقاً على مستوى فعل الإنسان . وحجّتهم في مقالهتم هذه :

أ ـ إنّ تعلّق الإرادة والقـدرة الإلهيـة بفعـل العبـد ، مخـالفٌ للحكمـة والعدل الإلهي ، لما فيه من الجبر على الإنسـان ، المنفي عن الله تعالى لأنـه ظلم .

ب ـ إنّ اجتماع إرادتين وقدرتين على شيءٍ واحد ، وهو فعل الإنسان هنا ، ممتنع .

ولا يخفى بطلان مقالتيهما بالكليّة :

أما الأولى ـ فَلِعَدَمِ المنافاةِ بين حكمته سبحانه ووقوع كلّ شيء في الكون ـ ومن جملته فعلُ الإنسان ـ في إطار القدرة والمشيئة الإلٰهية ، بل هو عين تنزيهه سبحانه . وَنَفْيُ هذا التعلّق ، انتقاصٌ من قدرته تعالى وفاعليّته ، وقد أثبتنا فيما تقدّم أنه تامٌّ فيها ، ولا يخرج صغير ولا كبيرٌ عن محيطها .

وأما الثانية ـ فإن امتناع اجتماع إرادتين وقدرتين على فعل واحد ، صحيحٌ إذا كانت كلٌّ من الإرادتين والقدرتين علةً تامةً لتحقق ذلك الشيء . وهذا منفيٌّ قطعاً في إرادة الإنسان بالنسبة إلى إرادة الله تعالى ، فإنها تابعة لها ، مفتقرة إليها بحكم إمكانها .

ومتى كانت إرادة الممكن وقدرته ، تعارض إرادة الواجب وقدرته ، حتى يستحيل اجتماعهما على شيء واحد ؟! .

٢ ـ مذهب الأشاعرة : الجبر

وذهب الأشاعرة إلى طرف النقيض من المعتزلة ، وقالوا إن الإنسان مجبورٌ في فعله ، مسلوبُ الإرادة والإختيار فيه ، بل الإرادة في كلِّ فعلٍ يريده الإنسان ، إرادةُ الله ، وكلُّ فعلٍ يفعله الإنسان ، فعلُ الله .

واستدلوا على ذلك بأدلة ، أهمها : إن الله تعالى واسع في مشيئته ، مُطْلَقٌ فيها ، لا يجري في الكون إلّا ما يشاؤه هو ويريده ، كما يقول تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **إنّ الله يَفْعَلُ ما يشاءُ** ﴾(١) ، ويقول : ﴿ **وما تَشاؤون إلّا أنْ يشاءَ الله ربُّ العالمين** ﴾(٢) .

---

(١) سورة الحج : الآية ١٨ .

(٢) سورة التكوير : الآية ٩ .

كما أنه تعالى واسع في قدرته ، لا خالق ولا موجِد ولا قادر ولا مؤثّر في الكون سواه ، وفي هذا يقول الاشعري :

« إنه لا خالق إلّا الله ، وإنّ أعمال العبد مخلوقةٌ لله مُقَدّرَة ، كمـا قال : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وما تعملون ﴾[1] . وإنّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخلقون ، كما قال سبحانه : ﴿ هل مِنْ خالِقٍ غَيْرُ الله ﴾[2] »[3] .

ومع هذا كله ، كيف يكـون للعبد أن يفعـل ما يشـاؤه ، وإنْ هُوَ إلّا آلـةٌ تحرِّكُها القدرة والمشيئة الإلهية ، وتوجِد بها مـا تشاء من الأفعـال ، صالحهـا وطالحها .

ثم قالوا : نعم ، الفعل وإن كان فعلَ الله ، إلّا أنّ للإنسان الكسب .

واختلفوا في بيان معنى الكسب ، فمن قـائلٍ بـأنّ الكسب صفة الفعـل من كونه طـاعةً أو معصيـةً . إلى قائـلٍ بأنّ الكسب معنـاه تصميم العبد عـزمه على فعل شيء ، فيخلق الله تعالى الفعل عقبيه . إلى غير ذلك .

وكـل مـا ذكـروه في الكسب أشبـه بـالألغـاز التي لا يُفهم منهـا شيء ، ولـذلك صـرّح جماعـة من جهابـذة الأشـاعـرة بـأنّ « الفعـل فعـل الله تعـالى ولـلإنسـان الكسب ، وإن كُنّا لا يمكننـا التعبير عنـه » !!! . وهـو بغنىً عن التعليق . وإنمـا اضـطروا إلى إضـافـة الكسب ، حتى لا يَصِمـوا فعله تعـالى بعواقب ما تتصف به بعض أفعال الإنسان من قبائح الصفات .

والجواب الذي يدفع كلَّ ما ذكروه ، ما سنوضحه في النـظرية التـالية ، من عدم منافاة اختيار الانسان في فعله ، لإطلاق المشيئة والقدرة الإلهية .

---

(١) سورة الصافات : الآية ٩٦ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٣ .

(٣) الإبانة ، ص ٢٠ .

٣ ـ مذهب الإمامية : الأمر بين الأمرين

قد عرفت فيما تقدم ذهاب الإمامية إلى أنّ الإنسان مختار في فعله ، إختياراً لا يُخرجه عن حيطة الإرادة والقدرة الإلهية .

ونحن نستدل على هذا المذهب بالأدلة العقلية ثم النقلية ، ونُقَسِّم الأدلة العقلية إلى قسمين :

الأول : ما يدلّ على أنّ الإنسان مختارٌ في فعله على نحو الإجمال .

الثاني : ما يدلّ على عدم استقلاله في هذا الإختيار عن المشيئة والقدرة الإلهية .

ثم نمثّل بمثال ، قبل أن نتعرض للأدلة النقلية التي نوردها من آيات الذكر الحكيم والأحاديث الشريفة .

الأول : الإنسان مختار في فعله

يدلّنا على ذلك :

إنّا نجد تفرقةً بين صدور الفعل منّا تابعاً للقصد والداعي ـ كالنزول من السطح إلى الأرض على الدرج ـ وبين صدور الفعل لا كذلك ، كالسقوط منه ، إما مع القاهر أو مع الغفلة . فإنّا نقدر على الترك في الأول دون الثاني . ولو كانت أفعالنا غير واقعةٍ باختيارنا ، لكانت كلّها على وتيرة واحدة من غير فرق ، ولكن الفرق حاصل ، فتكون باختيارنا ، وهو المطلوب .

ب ـ لو لم يكن الإنسان مُوجِداً لأفعاله ، لامتنع تكليفُه ، وإلا يلزم التكليف بما لا يطاق . وإنما قلنا ذلك ، لأنه غير قادر حينئذٍ على ما كُلِّف به ، فلو كُلّف لكان تكليفاً بما لا يطاق ، وهو باطل ، لأنه ظلم ، والظلم منافٍ للحكمة . والعجب من الأشاعرة إلتزامهم بجواز التكليف بما لا يطاق .

ج ـ إنه لو لم يكن الإنسان موجِداً لأفعاله ، لكان الله تعالى أظلم

الظالمين ، لأنّه تعالى ـ على الفرض ـ هو الذي يوجد في العبد قبائح الأفعال بلا اختيار من العبد ، ثم يعاقبه عليها .

وَلَعَمْري ، إنّ القائل بالجبر ما عَرَفَ الله حق المعرفة ، وإلاّ لنزّهه عن هذه السفاسف ، تعالى ربّنا عن ذلك علواً كبيراً .

الثاني : إختيار الإنسان في ظل المشيئة والقدرة الإلهية

قد عرفت في البيان المتقدم أنّ الإنسان مختارٌ في كل ما يقوم به من الأفعال عن وعي وشعور ، ونُبيِّن الآن أنّ الإنسان في اختياره هذا غير مستقل عن قدرة الله ومشيئته ، بل كلّ فعل يوقعه الإنسان إنما يوقعه بمشيئة الله وقدرته ، وذلك :

إنّ كل ما في الكون ذوات كان أو أفعالاً ، ممكن . والله تعالى واجب الوجود ، والممكن لا يمكن أن يتحقق ويوجَدَ إلاّ بإفاضة الوجود عليه من الواجب . وعلى هذا ، لا يمكن أن توجد أفعال الإنسان وتتحقق في الخارج ، إلاّ بإيجاد الواجب تعالى لها . هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، إن المانع من تعلّق قدرة الله تعالى على الممكنات عموماً ـ ومن جملتها أفعال الإنسان ـ لا يخرج عن أُمور ثلاثة كما عرفت في مبحث القدرة :

أولها : أن لا تكون ذاته متساوية بالنسبة إلى الأشياء ، بأن تكون على شيء أقدر منها على شيء آخر . لكنك عرفت أنه باطل لكونه تعالى واجب الوجود .

وثانيها : أن تكون هذه الأفعال ـ أي أفعال الإنسان ـ ممتنعة الوجود . وهذا باطل أيضاً ، لما عرفت من أنها ممكنات ، مفتقرة في وجودها إلى علة ، فإن أوجَدَتْها وُجدت ، وإلاّ بقيت عدماً .

وثالثها : أنّ تتعلق بأفعال الإنسان قدرة وإرادة مضاهيةٌ ومنازعةٌ لقدرته

تعالى وإرادته . ولكن هـذا لا يتصور إلّا من واجب وجـود آخر ، وسيـأتي في مبحث التوحيد أنه لا شريك له تعالى ذاتاً ولا فعلاً .

فـإذا وجد المتقضي (لتعلق قـدرته تعـالى وإرادته بـأفعال العبـاد) كما أفـادته الجهـة الأُولى ، وارتفع المـانع كمـا أفادتـه الجهة الثـانية ، ثبت تَعُّلقُ قدرتِهِ تعالى وإرادته بأفعال الإنسان . فأفعـال الإنسان لا تـوجد إلاّ بعـد إرداته سبحانه وإيجاده لها . **هذا كله من جانب .**

ومن جانب آخر : ثبت بالأدلة العقلية المتقدمة ، أنّ الإنسان مختار في ما يصدر منه من أفعال ، وأنـه يوجِـد أفعالـه باختيـاره التامّ ، فينتـج من جميع ذلك أنّ فعل الإنسان في عين كونـه مراداً ومخلوقـاً له ، مـرادٌ ومخلوق لله تعالى . فهو فعل الإنسان ومنسوبٌ إليه حقيقةً ، لأنـه فَعَلَهُ باختيـاره ، وفعلُ الله تعـالى ـ أيضـاً ـ ومنسوبٌ إليـه حقيقةً ، لأنـه شيءٌ ممكن ، وكل ممكن لا يتحقق إلاّ بإفاضة الوجود عليه من الواجب تعالى ، **وهذا هو الأمر بين الأمرين** .

تمثيل لتقريب النسبتين الحقيقيّتين

لنفرض إنساناً يحمل بيـده سيفاً ، ولا يتمكن هـذا الإنسان من التحـرك إلاّ بأن يوصل إنسان آخـر إليه التيـار الكهربـائي بحيث لو قـطع ذلك الإنسـان الآخر التيار حـال فعل الإنسـان الأول الحامـل للسيف لتوقف هـذا الأخير عن الحركة من فوره . فلو تحققت جميع هـذه الشرائط ، وأوصـل التيار ، فـأقدم هذا الإنسان بإرادته الكـاملة على قتل شخص بـالسيف الذي في يـده ، وكان الإنسان الذي أوصل التيار متمكنـاً ـ في جميع مـراحل فعـل الإنسان الحـامل للسيف ـ من قـطع التيار الكهـربائي ، ولكنـه لم يفعل لـرغبة أو مصلحـة ما ، فحينذاك تتحقق نسبتان حقيقيّتان للقتل : نسْبة إلى الإنسان الحامل للسيـف ، فيقـال إنه قـد قتل ذلـك الشخص ، لأنـه أقـدم عليـه بـاختيـاره ، ونسبـةٌ إلى الموصل للتيـار ، فيقال إنـه قد قتـل ذلك الشخص ، بـاعتبار أنّ فِعْـلَ حـامـل السيف لم يخرج عن إقدار الموصل للتيار وإرادته .

ويمكنك أن تطبق هذا المثال لتستخرج صورة التفويض والجبر .

فلو أن الشخص الموصل للتيار ، لم يكن له بعد أن أوصل التيار وأعطى القدرة ، أن يقطعه ، فأقدم الإنسان الحامل للسيف على القتل باختياره ، كان هذا مثالاً للتفويض، والقتل إنما يُنسب إلى الحامل للسيف ، فحسب .

ولو أنّ الشخص الحامل للسيف لم يكن له أيّ اختيار ، وإنما كان يندفع بإلقاء السيف على ذلك الشخص بمجرد أن يوصل ذاك الإنسان التيار ، كان هذا مثالاً للجبر ، والقتل إنما يُنسب إلى الموصل للتيار ، فحسب .

« الأمر بين الأمرين » في الكتاب والسنة

إنّ الآيات القرآنية تنفي الجبر والتفويض وتدل على مذهب الأمر بين الأمرين كلُّ من أمعن وتدبر فيها . توضيح ذلك :

إن الآيات القرآنية الراجعة إلى المقام على مجموعات ثلاث :

١ ـ آيات تصرح بأنّ كلَّ ما يحدث في الكون ويصدر من العباد ، يقع بإذنه تعالى ومشيئته . وهي عديدة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلاّ أنْ يشاءَ الله رَبُّ العالمين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلاّ بإذنِ الله . . ﴾[٢] .

وغيرهما . وهذه الآيات تُبطل التفويض .

٢ ـ آيات تفيد أنّ الإنسان مختار في أفعاله ، وهي عديدة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وما سوّاها * فَألْهَمَها فُجورَها وَتَقْواها * قَدْ

---

(١) سورة التكوير : الآية ٢٩ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٠٠ .

أَفْلَحَ من زكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها ، وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ للعبيد ﴾[2] .

فلو لم يكن الإنسان مختاراً في أفعاله ، صالحةً كانت أم طالحةً ، وفي انتخاب طريقه في الحياة ، إيماناً كان أو كفراً ، لما صحّت نسبتها إليه . وهذه الآيات تُبطل الجبر .

٣ ـ آيات تُصَرِّح بأن لكلّ فعلٍ يصدر من العبد نسبتين ، إحداهما إليه ، والأخرى إلى الله تعالى من دون تزاحم وتضادّ ، منها :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلوهُمْ ولَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ ، وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكِنّ الله رَمى ، وَلِيُبْلِيَ المُؤْمنينَ مِنْهُ بلاءً حَسَناً ، إنّ الله سميعٌ عليمٌ ﴾[3] .

فترى أنّه سبحانه نسب الرّمي إلى النبي ، وفي الوقت نفسه سلبه عنه ونسبه إلى ذاته . وقد عرفت فيما تقدّم عند بيان اختيار الإنسان في ظل الإرادة والقدرة الإلهية ، كيفية الجمع بين النسبتين .

هذا في كتاب الله تعالى .

وأمّا السنّة الشريفة ، فقد تضافرت الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في بيان مذهب الأمر بين الأمرين ، نكتفي منها بروايتين :

* روى الصدوق عن الإمام أبي الحسن الرضا (عليه السلام) ، قال : سألته فقلت له : « الله فوّض الأمر إلى العباد » ؟ .

قال عليه السلام : « الله أعزُّ من ذلك » .

---

(١) سورة الشمس : الآيات ٧ـ١٠ .
(٢) سورة فُصّلَت : الآية ٤٦ .
(٣) سورة الأنفال : الآية ١٧

قلت : « فأَجْبَرَهُمْ على المعاصي » ؟ .

قال : « الله أعْدَلُ وأَحْكَمُ من ذلك » . ثم قال : « قال الله عزّ وجلّ :

" يـا ابن آدم ، أنا أولى بحسنـاتك منـك ، وأنت أوْلى بسيئاتـك منّي ، عَمِلتَ المعاصي بقوتّي التي جعلتُها فيك " »[1] .

* وروى أيضـاً عن الرضـا (عليه السـلام) ، قال : ذُكـر عنـده الجبـرُ والتفويض فقال :

« ألا أُعطيكم في هذا أصلاً لا تختلفون فيه ، ولا تُخاصمون عليه أحداً إلّا كسرتموه » ؟ .

قلنا : « إن رأيت ذلك » .

فقال : « إن الله عزّ وجلّ لَمْ يُطَعْ بإكراه ، ولَمْ يُعْصَ بِغَلَبَة ، ولَمْ يُهْمِلِ العبادَ في مُلْكِه ، هو المالكُ لِما ملّكهم ، والقادر على ما أَقْدَرَهُمْ عليه . فـإنِ ائتمـر العبادُ بـطاعته ، لـم يَكُنِ الله عنهـا صادّاً ولا منهـا مانعـاً . وإنِ ائتمـروا بمعصيته ، فشاءَ أَنْ يَحُولَ بينهم وبين ذلك فَعَـل ، وإن لَمْ يَحُلْ وفعلوه فليس هو الذي أدْخَلَهُمْ فيه » .

ثم قال (عليه السلام) : « من يَضْبِط حدودَ هـذا الكلام ، فقـد خصم من خالفه »[2] .

هذا ، وقد اشتهر عن الإمام الصـادق (عليه السـلام) قولـه : « لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمرٌ بين الأمرين »[3] .

****

(١) التوحيد ، للصدوق ، ص ٣٦٢ ، الحديث ١٠ ، ط مؤسسة النشر الإسلامي .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦١ ، الحديث ٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦١ ، الحديث ٨ .

فتحصّل من جميع ما ذكرنا أنّ الله تعالى حكيم في أفعال عباده ، لم يُجْبِرهم على طاعةٍ ولا معصيةٍ ، كما لم يَخْرُجوا عن سلطانه بطاعتهم أو معصيتهم إياه ، بل كل ما يفعلونه هو بإذنٍ منه وإقدار ، لِيَعْلَمَ المطيعَ منهم من العاصي ، فيثيب المطيع على ما أطاع باختياره ، ويعاقب العاصي على ما عصى وتجرّأ به على الله تعالى باختياره .



الباب الثالث
الصفات السلبيّة

١ ـ لا شريك له :

* التوحيد في الذات :

ـ أحد : لا جزء له .

ـ واحد : لا ثاني له .

* التوحيد في الخالقية .

* التوحيد في الربوبية .

٢ ـ ليس بجسم .

٣ ـ ليس في جهة ، ولا مرئيا ولا متّحدا بغيره .

الصفات السلبيّة

قد عَرَفْتَ فيما تقدَّم أنّ الصفات السلبيَّة ـ وتُسمّى بالصِّفات الجلالية أيضاً ـ هي الصفات التي يتنزّه الباري تعالى عن الإتصاف بها ، فتُسْلَبُ عنه .
ونحن نذكر فيما يلي أهمَّها :



الصفات السلبية

(١)

لا شريك له

التوحيدُ من أهم الصفات التي يتصف بها الباري تعالى ، وهو يعني تنزّهه سبحانه عن الشريك .

ويَدُلّ على أهميّة هذه الصِّفة أنّ انقسامَ البَشَرِ إلى الأديان العديدة ناشيءٌ في الأغلب من الإختلاف فيها .

ويتجلّى التوحيدُ على صَعِيدَيْ ذاته تعالى : فلا شريك له في ذاته ، وأفعاله : فلا شريك له في فعله . ويُسمّى الأول بـ«التوحيد الذاتي»، والثاني بـ« التوحيد الأفعالي »[١] .

والأول يتجلّى بنحوين :

* **التوحيد الذاتي الأحدي** ، ونعني به نَفْيَ التَّرَكُّب ، فهو بسيطٌ لا جُزْءَ له .

* **التوحيد الذاتي الواحدي** ، ونعني به نَفْيَ المثيلِ ، فلا ثاني له .

والتوحيدُ الأفعالي يتجلّى بأنحاء مختلفة ، أهمُّها :

---

(١) وهناك قسمٌ ثالث وهو التوحيدُ في الصفات ، ولكنه خارجٌ عن مستوى الكتاب .

* **التوحيد في الخالقية ، فلا خالقَ إلاّ الله .**

* **التوحيد في الربوبية ، فلا رَبَّ ولا مدبِّرَ سوى الله .**

* **التوحيد في العبودية ، فلا مَعْبودَ سوى الله .**

وإليك فيما يلي إثبات توحيده سبحانه في كل مجالٍ من هذه المجالات .

١ ـ التوحيد في الذات : أحد

هذا هو القسم الأَول من قِسْمَيْ التوحيد الذاتي ، والله تعالى أَحَدٌ بسيطٌ غَيْرُ مُرَكَّب .

والمُرَكَّب هو ما له جُزْءٌ ، ويقابِلُهُ البسيط وهو ما لا جُزْءَ له .

ويَدُلُّ على أنّه تعالى بسيطٌ ، أَنَّه تعالى ـ بحسب ما انتهت إليه القسمةُ العقلية ـ واجبُ الوجود ، فلو كان مركباً من أَجزاء ، لكان مفتقراً إلى أَجزائه ، والمفتقرُ مُمْكِنٌ .

توضيح ذلك :

إن التركيب إما تركيب ذهني ، كَتَرَكُّبِ الماهيات من الأجناس والفصول . أو تركيبٌ خارجي ، كَتَرَكُّبِ الأَجسام من الأَعضاء والأَجهزة المختلفة ، وتَرَكُّبِ المواد من الجُزَيْئات ، والجُزَيْئات من الذرّات .

والمُرَكَّب ، بكلا المعنيين ، محتاجٌ إلى أجزائه ، إما إحتياجَ وجودٍ ، كاحتياج الماء إلى عُنْصُرَيْه : الأوكسيجين والهيدروجين ، وبدون أحدهما ينعدم ويفنى . وكماهية الإنسان ، تحتاج إلى كلا جزئيها العقليين : الحيوان والناطق ، لتتحصّل في الذهن .

أو احتياج تَكامُل ، كاحتياج البدن إلى اليد ، وبدونها يكون البدن ناقصاً في فاعليّته .

فلو كان الباري ـ جلّت عظمته ـ مركّباً ، لكان مفتقراً إلى أجـزائه ، إمّـا في تحقق وجوده وبقائه ، أو في كماله وتماميّتـه في فاعليتـه . والإفتقار مسـاوٍ للإمكان ، فيلزم كونه ممكناً ، مع أنّ الخالق واجب الوجود .

وبإمكانك أنْ تقول : إنّ فرض كونِ الصـانعِ واجبَ الـوجود ، بحسب ما أنتهت إليه القسمة العقلية ، يستلزمُ كونَهُ بسيطاً لا جُزْءَ لَه .

وإلى هذه الصِّفة يشير سبحانه في سورة الإخلاص بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَد ﴾[1] .

* * *

٢ ـ التوحيد في الذات : واحد لا ثاني له

هذا هو القسم الثاني في أقسام التوحيد الـذاتي . والله تعالى واحـدٌ في ذاته لا ثاني له . ويدل على ذلـك أنّه لـو كان في الـوجود واجبا وجودٍ ، للزم إمكانُهما ، وهو خلافُ الفَرْض .

بيان ذلك :

إنّ واجبَيْ الـوجود المُفْتَـرَضَيْن ، يشتركـان في وجوبِ الـوجـود حسب الفـرض . وبحكم كونهمـا إثنين ، لا بد من مـائـزٍ وراءَ هـذا الأمـر المُشْتَـرَك يُمَيِّزُهما عن بعضهما ، وبدونِه لا تَتَحَقَّقُ الإثْنَيْنِيَّة[2] . فيلزم عندئذ تَـركُّبُ كلٍّ منهما من شيئين :

أ ـ ما به الإشتراك : وهو واجبيّة الوجود .

ب ـ ما به الإمتياز .

---

(١) سورة الإخلاص : الآية الأولى .

(٢) يقول الحكيم السبزواري :

وَمـا لَـهُ تَـكَـثُّـرٌ قَـدْ حَـصَـلا   فَـفـيـهِ مـا سِـواهُ قَـدْ تَـخَـلَّلا

فَفَرْضُ الإثنينيّة ، لازِمُهُ التَّرَكُّب .

وإذا كـان كلٌّ منهمـا مركّبـاً ، لم يكن أيٌّ منهمـا واجبَ الـوجـود ، لأنَّ المـركّب كما عـرفت محتاج إلى أجـزائه ، والإحتيـاج صفـةُ الإمكـان ، فـإن واجب الوجود غنيٌّ غِنىً محضاً عن كلِّ شيءٍ . فـإذن يلزم من فَرْضِ واجِبَيْ وجودٍ ، إمكانُهما ، وهو خلاف الفرض .

وإلى الواحديّـة في الذات يُشير الذكـر الحكيم بقولـه : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد ﴾[1] .

***

٣ ـ التوحيد في الخالقية : لا خالق سواه

التـوحيد في الخـالقية معنـاه أنه لا خـالق في الوجـود إلّا الله . وبعبارةٍ أدّق : كـلُّ مـا سـوى الله إنمـا يَخْلُقُ وَيَفْعَـلُ فِعْلَهُ بـالإستنـاد إلى الله تعـالى وبإقداره ، لا بالإستقلال ، وإنما المستقل في الخلق هو الله سبحانه لا غير .

والـدليل على ذلـك أنّ كلَّ مـا سوى الله تعـالى ممكـن الوجـود ، كما تقدّم إثباته في التوحيد الذاتي . وممكن الوجود محتاجٌ إلى الواجب في وجوده وآثارِ وجودِهِ التي هي : خَلْقُهُ وفِعْلُهُ وتصرُّفاته جميعُهـا . فلو كان هنـاك خالقٌ مستقلٌ آخر سوى الله ، للزم أن يكون هناك واجبُ وجودٍ آخر ، وهذا خـلافُ الوحدايّة في الذات .

وعلى هـذا ، فكـلُّ مـا ورد في الكتـاب والسُّنَّـة من أنّ بعض الأشيـاء التكوينية تقوم بأفعال في الكون وتوجد أشياء أُخرى ، كالشمس تُنير كـوكَبَنا ، والمطرُ يُخْرِجُ النباتَ من الأرض . أو ما يرجع إلى الإنسان في صُنْعِهِ وإيجـاده للأشياء ، كـلُّ ذلك معنـاه أنّ إيجادَهـا وفِعْلَها هـو إيجادٌ وفعـلٌ تَبَعِيٌّ وظِلِّيٌّ ، وفي طـول إيجاده تعـالى ، وليس إيجادُهـا وفعلُها في عَـرْضِ إيجـاده تعـالى وبالإستقلال عنه .

---

(١) سورة الإخلاص : الآية ٤ .

وفي الذكر الحكيم آياتٌ كثيرةٌ تشير إلى التوحيد في الخالقية . مثل قوله : ﴿ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾[1] .

***

٤ ـ التوحيد في الربوبيّة : لا ربّ سواه

الرّبوبيّة بمعنى الإدارة والتدبير يُقال : ربُّ الدار ، وربُّ القطيع ، وربُّ البستان : أي راعيها ، ومدير أمورها ، ومدبّر شؤونها وحاجاتها بما يكفل بقاءها ويضمن نموّها وإنتاجها وتكاملها ، كلٌّ بحسبها .

والله واحدٌ في الرُّبوبيّة ، بمعنى أنه لا شريك له في تدبيرِ الكون وتنظيم أُموره وشؤونه ، ورعاية الموجودات جميعها .

وهذه المسألة هي نقطة الإنكار الأساسيّة لمشركي الجاهليّة ، فإنّهم ، وإن كانوا يعتقدون بوحدة الإله الصانع لهذا الكون ، ولكنهم ـ لِعَجْزِ عقولهم عن إدراك وتصوّر إمكانية إتصال ذلك الخالق الذي لا يُرى ، بهذا الكون المادّيّ ـ إخْتَلَقوا مجموعةً كثيرة من الأرباب هي بزعمهم المدبّرة لهذا الكون ، مُفَوَّضَةً في ذلك من قِبَلِ الإله الأكبر الخالق للكون ، الذي انقطعت يده عن تدبيره .

ولم يكن إختلاق هذه الأرباب من وحي أفكارهم وإبداعها ، بل هي فكرة مُسْتَوْرَدَة من بلاد الروم وفارس ، كما يظهر ذلك من المنقولات التاريخية [2] .

وبِغَضّ النظر عن الأدلة النقلية والآيات الكثيرة في القرآن الكريم ، الدالة على وحدة المدبّر لهذا الكون ، هناك أدلة عقلية وافرة على ذلك ، نكتفي منها بثلاثة أدلة .

---

(١) سورة الزّمر : الآية ٦٢ .

(٢) لاحظ مثلاً : السيرة الحلبية ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

الدليل الأول : الاستحالة العقلية

إن فرض وجود أكثر من إله يدير مجموع الكون ، فرضٌ مَحالٍ في جميع وجوهه المُتَصَوَّرة .

بيان ذلك :

لو كان هناك إلهان ـ مثلاً ـ مدبّران لمجموع الكون ، فلنفرض عند ذاك أنّ إرادة أحدهما تعلّقت بتحريك جسمٍ ما ، فلا يخلو إما أن يمكن للآخر تسكينه ، أو لا .

فإن أمكن ، فلا يخلو :

إما أنْ يقع مرادهما معاً .

أو لا يقع مرادُ أيٍّ منهما .

أو يقع مراد أحدهما فقط .

والأول محال ، لاستلزامه اجتماع المتناقضين .

والثاني محال أيضاً ، لاستلزامه ارتفاعهما وخلو الجسم عن الحركة والسكون .

والثالث فيه فسادان :

أ ـ الترجيح بلا مرجّح .

ب ـ عجز الآخر .

والترجيح بلا مرجّح ، محال .

وعجز الإله باطل ، إذ يخرج بذلك عن صلاحية التدبير ، ويكون حاله كغيره من الموجودات ، فلا يكون إلهاً .

وإن لم يمكن للآخر تسكينه ، يلزم عجزه ، وقد عرفت أنّ عجز الإله باطل .

فظهر من ذلك إستحاله وجود أكثر من مدبِّرٍ واحد لمجموع الكون .

الدليل الثاني : ثبات النظام الكونيّ

إن اتساق النظام الكوني وثباته ، دليل وحدة الرب المدبّر له .

وبعبارة أُخرى : لو كان مع الله (وهو واجب الوجود الصانع لهذا الكون) ، شريك في تدبير الكون ، للزم فساد نظام الوجود ، والحال أنّه متّسق وثابت ، فيُنْتِج عَدَمَ الشريك له .

بيان ذلك :

لو كان تدبير الكون وتنظيم أُموره ورعاية موجوداته ، راجعاً إلى أكثر من إله ، فحينئذٍ كلُّ إله سيفعل ما يريده ويراه مناسباً في تدبير هذا الكون الواحد . فيلزم فساد النظام ، لتنازع الآلهة المدّبرة له وتمانُعِها ـ لا محالة ـ في إدارته ، وهو خلافُ المشاهَدَ بالحِسّ من انتظام الكون بما فيه على أحسن وأتمّ نَظْم .

وإلى هذا الدليل إشار الذكر الحكيم بقوله :

﴿ لو كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتا ﴾(١) .

الدليل الثالث : وحدة النظام الكونيّ

ويدل على وحدة الرب المدبّر لهذا الوجود ، خضوعه في جميع أجزائه لنظام واحد منسجم ومتعاطف ، وقد كشف العلم الحديث عن كثير من الحقائق في ترابط الإنسان بدناً وروحاً بمحيطه ، وترابط الأرض والماء والهواء والأفلاك في علاقات متبادلة تحفظ توازن الوجود وبقاءه ، واستمرار مقومّات الحياة لجميع الموجودات .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .

فلو كان ثَمَّةَ إلهٌ آخر يدير قسماً من الكون ، لشاهَدْنا نظامَـه ، وأحسسنا بوجود نوعَيْن من الأنظمة يُدار بهمـا الكون ، لكـلٍّ منهما خصـائِصُه ومميـزاتُه التي ينفرد بها ، وذلك كلُّه منتف . فيدل على أنه لا مدبّر سوى إله واحد .

وإلى هذا الدليل يشير قوله تعـالى : ﴿ وَما كـانَ مَعَهُ مِنْ إلـهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ ﴾(١) .

وإليـه يشير الامـام علي (عليـه السـلام) في وصيّتـه القيّمـة إلى ولـده الحسن (عليه السلام) حيث يقول : « واعلم يا بُنّي أنّه لو كان لِرَبِّك شريـكٌ لأتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثارَ مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ وَلَعَرَفْتَ أَفْعالَه وصِفاتِه »(٢) .

***

القرآن والمدبّرات

سؤال :

يعترف القرآن الكريم بوجـود أصنافٍ من المـلائكة تقـومُ بتدبيـرِ شؤون هذا الكون ، وذلك في عدةِ آياتٍ ، منها :

قـوله تعـالى : ﴿ والذّرايـاتِ ذَرْواً * فَالحـامِلاتِ وِقْـراً * فَالجـارِيات يُسْراً * فَالمُقَسِّماتِ أمراً ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالمُرْسِلاتِ عُرْفاً * فَالعاصِفاتِ عَصْفاً * والنّاشِـراتِ نَشْراً * فَالفارِقاتِ فَرْقاً * فَالمُلْقِياتِ ذِكْراً ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالنازِعات غَرْقـاً * وَالنّاشِـطاتِ نَشْطاً * وَالسّـابِحاتِ

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٢) وصية الإمام أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن ، ص ٢١ ، ط دار الأضواء .

(٣) سورة الذاريات : الآيات ١ـ٤ .

(٤) سورة المرسلات : الآيات ١ـ٥ .

سَبْحاً * فَالسَّابقاتِ سَبْقاً * فَالمدبِّراتِ أمراً ﴾[1] .

أفلا يَتنافى هذا مع التوحيدِ في الربوبية ، وأنّه لا مُدَبّر سواهُ تعالى ؟ .

الجواب

لا منافاة في ذلك ، لأنّ تدبير الملائكة هو في طول تدبيره سبحانه ، أي إنَّ تدبيرها ـ في كلِّ آنٍ وَلحظة ـ بأمره سبحانه وإذنه ومشيئته ، كما يقول تعالى : ﴿ يَخافونَ رَبَّهُم مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعلونَ ما يُؤْمرون ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ بَلْ عِبادٌ مُكْرمونَ * لا يَسْبِقونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ ﴾[3] .

فتدبيرُ الكون بيده تعالى ، والملائكة ليست سوى مجرّد وسائِط في إجراء وتنفيذ أوامره وما يشاؤه سبحانه في تدبير هذا الكون وما فيه .

***

٥ ـ التوحيد في العبادة

التوحيد في العبادة ، من أبرز السمات التي تُميّز المُوحِّد عن المشرك ، فَكُلُّ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ الله أو يعبُدُ شيئاً آخر فهو مشرك . ولذلك ركّز الإسلام عليه وجعله شعاراً للمسلمين يردّدونه كلَّ يومٍ مرات عديدة في صلواتهم وهو قولهم : ﴿ إيّاك نَعْبُدُ وإياك نَستَعينُ ﴾[4] .

كما صرّح القرآن الكريم بأنّ الأنبياء كانوا يُبعثون عبر التاريخ إلى شعوب العالم جميعاً وهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة مَنْ سواه ،

---

(١) سورة النازعات : الآيات ١ـ٥ .

(٢) سورة النّحل : الآية ٥٠ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٢٦و٢٧ .

(٤) سورة الفاتحة : الآية .

كما يقول : ﴿ وَلَقَد بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدوا الله وَاجْتَنِبوا الطّاغوت ﴾[1] .

فإذا كان التوحيد في العبادة بهذه المثابة من الأهمية ، فمن الضروري جداً معرفةُ حقيقةِ العبادةِ وحدودِها التي تُصَحِّحُ إطلاق المُوَحِّدِ والمُشْرِك ، وليُعْلم مِنْ ذلك وَجْهُ إنحصارها بالله سبحانه وتعالى .

ما هي حقيقة العبادة ؟

العبادةُ هي الخضوع الناشيءُ عن اعتقادٍ خاصٍّ ، هو إعتقادُ الخاضِعِ أنَّ المَخْضوعَ لَهُ هو خالقُه وربُّه ، أي هو المالِكُ لِشؤون العابد كلِّها في دينه ودنياه وآخرته .

توضيح ذلك :

إذا أَحَسَّ الإنسان بمملوكيّته الكاملة في جميع شؤونه المعيشية والأخروية التي هو صائر إليها ، أحس بمملوكيتة هذه لموجودٍ آخر هو خالِقُه ورازِقُهُ جميع نِعَمِهِ ، يفعلُ جميع ذلك بقدرته المُطْلَقة ، واستقلاله التام ، وإحاطته الشاملة بالوجود وما فيه ، وكلُّ ما سواه مفتقرٌ إليه ، محتاجٌ في وجوده وبقاءِه إلى فَيْضِ جودِه ؛ إذا اعتقد الإنسان بذلك أيّما اعتقاد ، فإنه سيلجأ إلى تجسيد إحساسه هذا بألفاظ وأعمال خاصّة ، تحمل جميع مظاهر الخضوع والخشوع والإنقياد والتسليم ، محاولاً بذلك أنْ يوفي رَبَّه ما يراه له من حَقٍّ ومِنَّةٍ عليه في جميع شؤون وجوده ، فهذا هو الذي يسمى عباده .

ونستنتج من هذا البيان نتيجتين :

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ . وقد وردت آيات كثيرة تحكي عن هذه الدعوة إلى عبادة الله وذمّ عبادة سواه ، يمكنك أن تلاحظ منها : الأعراف ، ٥٩و٦٥و٧٣و٨٥ . هود : ٥٠و٦١و٨٤ . الأنبياء : ٢٥ . المؤمنون : ٢٣و٢٢ . وطه : ١٤ .

النتيجة الأولى : لا معبود سوى الله

على ذاك البيان المتقدم ، يكـون استحقاق العبـادة من شؤون الخالقيـة والرُّبوبيّة ، فَمَنْ كان واجب الوجود ، غنياً غنىً مطلقـاً عن كلّ شيء ، وكـان خالقاً للوجود بأسره وربّاً مديراً لشؤونـه ، فهو مستحِقٌّ للعبـادة . وإذْ لا واجبَ ولا خالقَ ولا ربَّ سوى الله ـ كما تقدّم إثبات جميع ذلك ـ فلا معبود سواه .

النتيجة الثانية : مجرّد التعظيم والتّبرك والتوسل ليس عبادة

كما يظهر مما تقدم أنّه ليس كلُّ خضوع عبادةً ، بل لا بُدّ لِصِدْقِ العبادة أنْ يقترن ذلك الخضوعُ اللفظيُّ أو العمليُّ بعقيدة قلبيّة لـدى الخاضـع ، هي خـالقيةُ ومـالكيّةُ وربـوبيةُ مَنْ يَخْضَـعُ له ، وغنـاه واستقـلالـه التـام في خلقـه وربوبيته للعـالم ، وبدون ذلـك يكون ذلـك اللفظ أو العمل تعـظيماً واحتـراماً وتقديراً للمخضوع له لا أزيد .

وفي القرآن الكريم نجد عدة مصاديق لما ذكرنا :

منهـا : سجـود المـلائكة لآدم (عليـه السلام) ، كمـا يقول تعـالى : ﴿ وإذْ قُلنـا للملائِكـة آسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَـدُوا ﴾[1] . فهـذا السجـود خضـوعٌ عمليٌّ تامٌّ أمام موجود سوى الله تعالى ، ومع ذلك لم يَكُنْ شِرْكاً بالله ، لأنّه لم يكن ناشئاً من الإعتقاد بخالقية آدم لهم وربوبيته ، فَلَمْ يصدُق عليـه أنّه عبـادة لآدم . ولـو كان مجـرّد الخضوع والصـورة الظاهـريـة لـه ، كـافيـاً في صـدق العبـادة ، لكان الله تعـالى آمراً بـأن يُشْرَكَ بـه ، ولكان المـلائكـةُ مشـركين ، والعياذُ بالله من جميع ذلك .

ومنها : سجودُ إخوةُ يوسُفَ له كما يقـول تعالى : ﴿ وَرَفَـعَ أَبَوَيْـهِ على العَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجَّداً ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٤ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١٠٠ .

وعلى هذا الأساس يأمر سبحانه كل إنسان بالخضوع التام لوالديه ، والتذلل أمامهما ، إذْ يقول : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ من الـرَّحْمَةِ ﴾[1] . فلو كان مجرد الخضوع التامّ عبادةً ، لكان سبحانَه يأمُرُنا بالشرك ، والعياذ بالله .

وفي أُمور الناس العُرْفية كثير من هذه المظاهر ، التي لا يَرَوْن ولا يتوهّمون فيها شيئاً من العبادة ، كتقبيل يد العالم احتراماً ، وتقبيل المصحف تبرّكاً ، وتقبيل ضرائح الأنبياء وأوصيائهم تبجيلاً وتعظيماً لمقامهم الذي أنزلهم الله تعالى فيه ، كما يقول جلّ شأنه : ﴿ إنّ الله اصْطفى آدَمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمْرانَ على العالمين ﴾[2] .

ويقول : ﴿ واذْكُرْ عِبادَنا إبْراهِيمَ وَإسحاق وَيَعْقوب أولي الأيْدي والأبْصار * إنّا أخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذكرى الدّار * وأنَّهُمْ عِنْدنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار * واذْكُرِ إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكِفْلِ وكُلٌّ مِنَ الأخيارِ ﴾[3] .

وقد فَرَض القرآن الكريم مَحَبّة بعض الأولياء إذْ يقول ، ﴿ قُلْ لا أسْألُكُمْ عليه أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى ﴾ [4] .

فكل هذه المظاهر إنما هي من مظاهر الإحترام والتبجيل التي ترضاها فطْرَةُ الإنسان ، وحبّذها الشارع ودعى إليها ، فليست هي عبادة لا لغة ولا شرعاً ولا عرفاً .

ومن هنا يظهر بطلان مزاعم فرقة الوهابيّة المُبْتَدِعة ، التي ادّعت أنّ

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٣ .

(٣) سورة ص : الآيات ٤٥ ـ ٤٨ .

(٤) سوره الشورى : الآية ٢٣ .

التبـرُّك بضرائـح الأَولياء والتـوسـل بهم إلى الله ، وطلب شفـاعتهم ، وأمثـال ذلك ، هو شركٌ بالله وعبادةٌ لغيره ، وفاعلُ ذلك مشرك . فقد عرفت ممـا تَقَدّمَ أن العبادة لا تَصْدُقُ بأي وجهٍ على هـذه الأفعال ، لاشتـراط صدقهـا باقتـرانها باعتقاد الخاضع بخالقية ومالكيّة وربـوبية المخضـوع له لجميـع ما في الكـون بالإِستقلال التام ، مع أَنّ هذه الأَفعال تقع بقصد الإحترام أو باعتقـاد أنّ هؤلاء الأَولياء لهم مقام ممنوح بإذن الله ، فهم يغيثون بقدرة الله وإرادتـه ، ويشفعون بإذنه سبحانه .

هذا ، إضافة إلى النماذج القرآنية المتقدمة التي تَدُلّ على أمره سبحـانه بسجود الملائكة لآدم ، وتشير إلى سجـود أخوة يـوسُفَ له ، والسجـودُ أُعظم من الأَفعال المتقدمة ومن أَجل مظاهر الخضوع ، مع أنه لم يكن عبادة له .

فالكلمة الحاسمة في هذه الموضوعات من وِجْهَـةِ التوحيـد والشِّرْك هي محاسَبَة عقيـدة القائم بهـذه الأَفعال ، فـإن كانت نـاشئةً عن اعتقـاده بخالقيـة وربوبية هذه الأشياء واستقلالها في فعلها إستقلالاً تـامًا ، كـانت شِركـاً ، وإلاّ فلا .



ليس بجسم

الجسمُ ما له طولٌ وعَرْضٌ ويشغل حيّزاً من الفراغ ، ويقع في المكان والزّمان ، فإذا كان في مكانٍ ما ، لم يكن في الأمكنة الأُخرى ، وإذا كان في زمان ما لم يكن في الأزمنة الأُخرى .

ويقابله العَرَض ، وهو الحالُّ في الجسم ولا وجود له بدونه .

والله تعالى ليس بجسمٍ ولا عَرَض ، بالدليل العقلي والنقلي .

أما الدليل العقلي ، فهو كونه تعالى واجب الوجود . وسِمَةُ واجب الوجود الغنى المُطلَق وعدم الإحتياج إلى شيءٍ في ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، قد عرفت أنّ الجسم لا يتشخّص ، ولا يتحقق له وجود إلاّ بمكان يستقر فيه ، وزمان يقع فيه ، وأبعاد تَحُدُّه طولاً وعَرْضاً وعُمْقاً . كما أنّ العَرَض لا يتشخص إلاّ بالمحل . والمكان والزّمان غير الجسم ، كما أنّ المحلِ غير العَرَض . فيكون ـ إذن ـ الجسم والعَرَض مفتقرين في وجودهما وتشخُّصهما إلى غيرهما ، والمفتقر إلى غيره ممكن .

فلو كان الباري تعالى جسماً أو عَرَضاً ، لكان ممكناً ، مع أنه واجب الوجود .

وأمـا الـدليـل النقلي ، فيكفي فيـه قـولـه تعـالى : ﴿ ليس كَمِثْلِهِ شَيْء ﴾[1] ، ولـو كـان تعـالى جسمـاً لكـان كمثله شيءٌ بـل أشيـاء ، كمـا لا يخفى .

إضافة إلى الآيات الكثيرة الـدّالة على سعـة وجوده تعـالى وأنّه في كـل مكان ومع كل شيء ، يحيط بكل شيء ولا يخلو منه شيء : ﴿وهُوَ مَعَكُمْ أيْنَما كُنْتُم ﴾[2] ، ﴿ أيْنمـا تُـولّـوَا فَثَمَّ وَجْـهُ الله ﴾[3] . وكيف يجتمـع ذلـك مـع الجسيمة ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقـال أمير المؤمنين علي (عليـه السلام) : « مـا وَحَّـده من كَيَّفَـه ، ولا حقيقَتَـه أصاب من مَثَّلَه ، ولا إيـاه عَنى من شَبَّهـه ، ولا حَمِـدَهُ مَنْ أشـار إليـه وتَوَهَّمَه »[4] .

آراء منحرفة

مما يدعو للأسف أن يظهر من أهل الحديث ما يلزم منه القـول بجسميّة البـاري تعالى ـ التي صـرّح بها بعض المنتسبين لـلإسلام كـالكرّاميّـة ـ حيث أثبتوا له تعالى ما جاء في ظواهر الكتاب والسُّنَّة من اليد والساق والعين والوجه والجنب والكـرسي والجلوس والنزول . . . . على ظهـورها الحـرفي ومعناهـا الإفرادي المتبادَر منها .

وعند انشقاق أبي الحسن الأشعري عن المعتزلة وتأسيسه مذهبه الجـديد الذي حاول فيه الجمع بين طريقتي المعتزلة وأهل الحـديث ، حاول التملّص عن هذه الوصمة التي وَصَمَ أهل الحديث بها مذهبهم ، بابتكـار البلكفة وهي إضافة عبارة : (**بلا كيف**) إلى تلك الصِّفات المفيدة للتجسيم ، مـع إبقائهـا

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١ . .

(٢) سورة الحديد : الآية ٤ .

(٣) أي ذاته . سورة البقرة : الآية ١١٥ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٦ .

على معناها التصوُّري الإنفرادي ، فقال : « إنّ له تعالى يداً ، بلا كيف » ، « وساقاً بلا كيف » ، وهكذا . ولكنه خَرَّب أكثر ما أصلح ، إذ أنّه بهذا المذهب المُبْتَدع أدخل الصفات الإلهية في حَيِّز الغموض والإبهام[1] .

والذي جرّهم إلى هذا الإنحراف في الفكر ، وأوقعهم في شبهات الضلال هذه ، التعامي عن صريح آيات كتاب الله العزيز ـ وقد تقدمت الإشارة إلى شطرٍ منها ـ ومُحْكَم برهانِ العقل السليم الذي تَعَبّد الله تعالى خَلْقَهُ به في المعرفة الكونية وأُصول الدين ، وأَمَرَهم باستخدامه بالتفكُّر والتدبُّر والتعقُّل والتذكُّر وغير ذلك من العبارات التي طفح بها كتاب الله الحكيم .



(١) البحث في هذا المقام وتحليل مناهجه وبيان الصحيح منها ، واسع ، يأتيك في مرحله أعلى ، وموضعه في مباحث الصفات الخبرية .

الصفـات السلبيـة
(٣)

ليس في جهة ، ولا مرئيّا ، ولا متّحدا بغيره

إنتفاء الجسمانيات

الجسمانيات هي لـوازم ومستتبعات كـون الشيء جسماً ومـادةً ، مثل : المحلّ ، والأبعاد ، والجهة ، والإتحاد[1] ، والرؤية ، وغير ذلك .

ووضوحُ تنزُّهه تعالى عنهـا ، غنيٌّ عن البيان ، بعـدما أثبتنـا تنزُّهَـه عن الجسميـة . ولكن وجود بعض الآراء المخـالفة فيهـا ، يدفعنـا للإشـارة إليهـا وتحليلها . ونخصُّ بالذكر منها في المقام :

١ ـ الجهة .

٢ ـ الرؤية .

٣ ـ الإتحاد .

****

١ ـ ليس الله تعالى في جهة

الجهـة هي مَقْصَـد المتحـرك ومُتَعَلّق الإشـارة الحسيّـة ، ويعبـر عنهـا

---

(١) بناء على إمكانه .

بـ(هناك) ، و(هنالك) ، و(فوق) ، و(تحت) ، و(خلف) ، و(أمام) ، وغير ذلك .

وقد قال أهل الحديث والحنابلة بالجهة ، حيث أثبتوا كونه تعالى فوق ، في السماء ، وينزل منها في أوقات معيّنة إلى الأرض ، ونحو ذلك مما ورد في ظواهر بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وما ذهبوا إليه باطل ، ولا يمكن الركون إلى شيء من ظواهر ما جاء في تلك الأحاديث . وذلك أنّه لما دلّت الدلائل العقلية على امتناع الجسميّة ولواحقها عليه تعالى ، وجب تأويل[1] الدلائل النقلية الدالّة على خلاف ذلك . لأن الأمر لا يخلو من أحد أربعة :

١ ـ العمل بالعقل والنقل (المخالف له) معاً .

٢ ـ طرحهما معاً .

٣ ـ طرح العقل والأخذ بالنقل .

٤ ـ الأخذ بما يُرشد إليه العقل وتأويل النقل ، إن كان قابلاً له ، وإلاّ طرحه .

والطرق الثلاثة الأُولى مستحيله . أما الأول ، فلاستلزامه اجتماع النقيضين . وأمّا الثاني ، فلاستلزامه ارتفاعهما . وأما الثالث ، فلأن لازم اطّراح العقل ، اطّراح النقل أيضاً ، لأن العقل أصله ، ولولاه لما ثبتت حجية شيء من النقول الشرعية .

---

(١) ليس المراد من التأويل هنا معناه الأخص وهو التصرف في الظواهر ، بل المراد المعنى الأعم ، والمقصود : النظر في المفاد الجملي للآيات والروايات ، المعبّر عنه بـ« **الظهور التصديقي** » ، وهو المسلك الصحيح في باب الصفات الخبرية ، وسيأتيك بيانه في مرحله أعلى .

فلم يبق إلّا سلوك الطريق الرابع ، وهو المطلوب .

***

٢ ـ الله تعالى لا يرى

ومما ينتفي عنه تعالى ، بانتفاء الجسمية ، الرؤية البصرية . ويتضح ذلك بعد فَهْم حقيقة الرؤية .

الرؤية البصرية هي حالة ذهنية تحصل للرائي بعد انطباع صورة المرئيّ المستقر في جهة مقابِلَةٍ له ، على شبكيّة العين ، وانتقالها عبر الأعصاب إلى الدماغ .

ومن المعلوم أن الرؤية بهذه الحقيقة ، لا يمكن أن تتحقّق إلّا بأن يكون المرئي جسماً كثيفاً ، غير مُفْرط في البُعْد بل قائماً في موضع يقع في مدى الإبصار ، مستقراً في جهةٍ مقابِلَة للرّائي ، تنبعث الأشعة من جسمه ـ إن كان منيراً بالذات ـ أو تنعكس عنه ـ إن لم يكن كذلك ـ إلى العين .

فإذا كانت هذه حقيقة الرؤية ولوازمها ، يتّضح استحالة رؤيته تعالى ـ على الإطلاق ـ لتنزّهه تعالى عن الجسميّة .

وذهبت المُجَسّمة إلى جواز رؤيته تعالى في الدنيا فضلاً عن الآخرة . كما ذهب عامّة أهل الحديث والأشاعرة إلى جواز رؤيته تعالى يوم القيامة ، وأنّه ينكشف للمؤمنين انكشاف القمر ليلة البدر ، تبعاً لبعض الأحاديث ، واستظهاراً من بعض الآيات .

وقد عرفت فيما تقدّم أن حكم العقل القطعي مُقَدَّم على الظواهر النقليّة ، فلا نصيب لشيء من هذه الأقوال من الصحة .

والعجب من أهل الحديث والأشاعرة أنّهم ـ مع قولهم بالرؤية البصرية ـ يَعُدّون أنفسهم من أهل التنزيه ، ويَبْرَؤون من المُشَبِّهة والمُجَسِّمَة .. في حين

أنَّ هـذه الرؤيـة التي يُثبتونهـا لا تَنْفَكّ قهـراً عن كون المـرئيّ جسمـاً كثيفـاً ذا أبعاد ، قائماً في جهة ومكان .

***

٣ ـ الله تعالى غير متّحد بغيره

ذهبت بعض الطوائف إلى أنه تعالى مُتّحِدٌ بغيره :

فقـد قال النصـارى : إنه تعـالى اتّحد بـالمسيـح ، بمعنى أنّ لاهـوتيـة الباري وناسوتية عيسى إجتمعا في شيء واحد .

جاء في كتابهم المقدّس : « لنا إله واحد الآب الذي منه جميـع الأشياء ونحن له . وربٌّ واحد يسوعُ المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به »(١) .

وقالت النصيريّة : إنه اتّحد بعليّ (عليه السلام) .

وغير ذلك من الآراء . وهي كلّها باطلة ، من جهتين :

الجهة الأولى : إن هـذا الإتحـاد ـ على فـرض إمكـانـه ـ من صفـات الأجسام . ويمكن تقريبه باتحاد ذّرة أوكسجين مع ذرّتَيْ هيدروجن لتُشَكِّل معاً جُزَيْىءَ ماءٍ . والله تعالى مُنَزَّه عن الجسمية ، فلا يتصف به .

الجهة الثـانية : إن المعنى المُتَصَوَّر من حقيقـة الإتحاد ، هـو صيرورة شيئين موجودين متغايرين ، شيئاً واحداً ، مع بقاء كل منهما .

وهــذه الحقيقـة مستحيلة بــالـذات . وذلــك لأنّ المتّحـدين ـ بعــد اتّحـادهما ـ إن بَقِيـا موجـودَيْن بخصائصهمـا وميّزاتهمـا ، فلا اتحـاد، لأنهما حينذاك إثنان لا واحد .

وإن عـدما معـاً ، أو زالت خصائصهمـا ، فلا اتحـاد أيضاً ، بـل تَكَوُّنُ موجودٍ ثالث .

---

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، الأصحاح الثامن .

وإن عدم أحدهما وبقي الآخر ، فلا اتحاد أيضاً ، لأنّ المعدوم لا يتّحد بالموجود .

هذا ، وإن كان القائلون بالإتحاد يريدون معنىً آخر مغايراً لما تَقَدّم ، فلا بُدَّ لهم من تصويره ، حتى نناقشه ونذعن به إن وافق العقل ، أو نَرُدَّه إن خالَفَه ، ولا يمكن بحالٍ التعبّد بمفاهيمَ مُبْهَمة أو مستحيلة .

***

بهذا ينتهي بحثنا في الصفات الإلهية ، بقسميها : الثبوتية والسلبية ، ونشرع فيما يلي بالبحث في أبرز تجليات الأفعال الإلهية ، وهي ثلاثة :

* النبوة .

* الإمامة .

* المعاد .



الفصل الرابع

النبـوة

النبـوّة العامـة

يقع البحث في هذا المقام في أُمور خمسة ، وهي :

الأَمر الأول ـ تعريفُ النبي .

الأَمر الثاني ـ دليلُ لزوم بعثة الأنبياء .

الأَمر الثالث ـ أدلةُ منكري لزوم البعْثة ، والجواب عنها .

الأَمر الرابع ـ طريقُ معرفةِ صِدْقِ مدّعي النبوة ، وهو المعجزة .

الأَمر الخامس : صفاتُ النبيّ .

وفيما يلي نتناول كلاًّ منها بالبحث .



تمهيـد

البحث في النُّبوة يقع في مقامين :

المقـام الأول : البحث عن مُـطْلق النبــوة من دون تخصيص بنبي دون نبي .

المقـام الثاني : البحث عن نبـوة نبيٍّ بخصـوصـه ، وهـو نبيُّ الإسـلام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

والأول بحثٌ في " **النبوة العامة** " .

والثاني في " **النبوة الخاصة** ".



تعريف النبي

النبيُّ شخصٌ من البشر ومن الناس أنفسهم ، يجتبيه الله تعالى على سائر بني نوعه ، ويختصُّه بعنايته وهدايته : فيوحي إليه ، أو يحدثه من وراء حجاب ، أو يرسل إليه مَلَكاً يكلّمه .

وهذه هي الطرق الثلاثة التي يحصل بها اتصال النبي بالله تعالى ، ويتلقّى النبيُّ عَبْرَها المعارف الحقّة التي فيها السعادة وفي خلافها الشقاوة والضلالة . وإليها يشير الذكر الحكيم بقوله :

﴿ وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يكلِّمَهُ الله إلاّ وَحْياً أوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أوْ يُرْسِلَ رسولاً فَيوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إنّهُ عَلِيٌّ قَديرٌ ﴾[1] .

ثم يأمره سبحانه بهداية سائر الناس ـ أو الإنس والجنّ جميعاً ـ وإبلاغهم ما أُوحي إليه وجاءه من الغيب ، لِيَتِمّ حُجَّةُ الله على الناس ، وتنفتح أمامهم سبل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

ومن هنا جاء لفظُ النبيّ ، فإنه من الأنباء بمعنى الإخبار ، والنبيُّ مُخْبِر عن الله تعالى بما فيه صلاح الدنيا والآخرة .[2]

---

(١) سورة الشورى : الآية ٥١ .

(٢) قيل بأنّ لفظ النبي إنْ قُرِيء بدون الهمزة في آخره، فإنّه يكونُ إسماً من النُّبُوّة وهو الإرتفاع، =

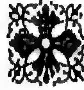
وقد استبان من هذا التعريف أنَّ النبوةَ كفيلةٌ بإزاحة علتين للناس :

ـ علّتِهِم في معاشهم وحياتِهِمُ الدنيا .

ـ علّتهم في معادهم وحياتِهِمُ الأُخرى .

وهذا ما سنوضحه في دليل لزوم البعثة .

ومن هنا عرّف بعضُ المتكلّمين النبوة بأنها : « سفارةٌ بين الله وذوي العقول من عباده ، لإزاحة علّتِهِم في أمر معادِهِم ومعاشِهِم » .



= لأنه مُفَضَّل على الناس بِرَفْعَ منزلته . وإنْ قُرِيء بالهمزة (نَبِيء) ، فيكون إسماً من النبأ وهو الخبر . ولكنَّ الذي أَسْتَقْرِبُهُ هو أنْ يكونَ مأخوذاً ـ في كلا الحالين ـ من النَّبأ والإنباء ، وتكون قراءته من دون الهمزة ، تخفيفاً . ووجهُ الإستقراب أنّا نستخدم اللفظ من دون الهمزة ، ولا يصح أن يراد منه إلّا الإخبار ، مثل قولنا : « نَبيُّ الأُمّة » أي مخبرها عن الله تعالى . ونحو ذلك من الإضافات . والله العالم بالصواب .

الأمر الثاني

لزوم بعثة الأنبياء

إتّفق المسلمونَ وأكْثَرُ المِلَلِ على ضرورة بِعْثَةِ الأنبياء إلى الناس ، بمعنى أنّ حِكْمَةَ الخالق سبحانه تَقْتَضي إرسال الرسل لهداية البشر وإرشادهم إلى مسالك السعادة ، وتجنيبهم مهَاوي الضلالةِ والشقاوة .

ولم يُخالف في ذلك سوى البراهمة والأشاعرة .

أما البراهمة ، فإنهم أنكروا حُسْنَ البِعثة فضلاً عن ضرورتها ، لأدلة واهيةٍ يأتي ذكر أهمها والردّ عليه في الأمر الثاني .

وأما الأشاعرة ، فإنهم ـ تَبَعاً لإنكارهم الحُسْنَ والقُبْحَ العقليين ـ أنكروا لزومَ البِعثةِ على الله ، وجوزوا أن يترك الخَلْقَ بلا رُسُل وبلا تكليف . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا إنكار حُسْنِ البعثة ! .

دليل لزوم البعثة

دليلنا على لزوم بعثة الأنبياء على الله تعالى ، هو حكمته تعالى وتنزهه عن العبث واللغو في فعله .

وذلك أنه لو لم يرسل الله تعالى الأنبياء إلى الناس حاملين لهم نظم الحياة الإجتماعية الصحيحة ، ومُبَيِّنينَ لهم سُبُلَ العبادات المُقَرِّبةِ إليه

تعالى ، لاضمحلّ المجتمع الإنساني ، ولَضَلَّ البشرُ في متاهات الشرك والفساد . وهذا مبطل لغرضه تعالى من الخِلْقة ، ومستلزمٌ للّغْوِ والعبث في فعله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

توضيح الدليل في جهتين :

الجهة الأولى ـ إستقرار الحياة رهن القانون الكامل

إنّ المُطالِعَ لحياةِ البشر ، ماضيهم وحاضِرِهِم ، يُذْعِنُ ويُقِرُّ بأنّ الإنسان ذو نزعة فطريةٍ نحو الإجتماع والتمدُّن ونَبْذِ الوَحْدَةِ والإنفراد .

ونحن إذا رجعنا القهقرى إلى أعماق التاريخ ، نرى أنّ الإنسان البِدائي الذي كان يَقْطُن كهوفَ الجبال وأعماق الأدغال ، لم ينفك عن البحث عن أُناس مثله ليتآلف معهم ويُشكّلوا مجتمعات صغيرة تزيل عنهم وحشة الإنفراد ، وتكفل لهم البقاء .

ومن المعلوم المشاهَد أنّه عندما يتشكّل الناس في بيئات جماعيّة ، يحتاج كلُّ فرد منهم ، لأجل انتظام أُمور معاشه ، إلى التملّك وتخصيص بعض المستلزمات بنفسه ، وحراستها وإدامة بقائها ، من جهة . وإلى التعاون والتعاضد مع بني نوعه ـ لأنه غير قادر على تأمين كل ما يحتاج إليه بسعي نفسه ـ من جهة أُخرى . وهذا يستلزم ـ إستلزاماً طبيعياً ـ حصول التنافر والتعاند ، بحيث لو لم يجعل لهذا التنازع لجامٌ وضابطٌ وقانونٌ ، لانعدمت الحياة الإجتماعية من رأس ، ولانقلب هناء الحياة إلى تعاسة وشقاء .

ومن هنا كان لا بد لأجل استقرار حياة البشر وسعادتهم وترقيهم ، من وجود قانون دقيق ومُحْكَم يقوم بتحديد وظائف كل فرد وحقوقه ، ويُشَرّع الحدود والقيود التي يجب تحرك الجميع من خلالها .

ولكن وضعَ هكذا قانون ، له شروط عديدة ، منها ـ وهو أهمها ـ أن يكون المقنّن عارفاً كمال المعرفة بطبائع البشر وميولاتهم ورغباتهم وما يكبح

جماحها ويعدّلها ويضبطها . وعارفاً بعادات أبناء المجتمع والروابط الحقيقية التي تكفل لهم السعادة الدنيوية . وعالماً بما ينفعهم وما يضرُّهم في جميع الشؤون والموضوعات التي يواجهونها في حياتهم اليومية .

ومضافاً إلى ذلك ، لا بُدّ أنْ يكون المُقنِّن متجرداً عن ملاحظة كسب أي نفع شخصيٍّ يستفيده من تقنينه ، وإلا فلن يُنْصِتَ له أحد ، ولن ينقاد لقانونه مجتمع .

هذا ، مع أنّ القانون يحتاج في تنفيذه وإبصاره النور بعد جعله ، إلى ضمانات إجرائية تكفل تطبيقه بجميع حذافيره ، لتتحقق بعدها الغاية المنشودة من تقنينه . ومن المعلوم أنّ قَصْر الضمانات الإجرائية على الضوابط المادية الظاهرية ،كملاحقة الشُّرطَة والعقوبات البدنية والمالية ، غيرُ ناجعٍ بمفرده إلاّ إذا انضمت إليه المراقبة الباطنية الوجدانية المستمرة ، وكان إلى جانبه عقيدة بوجود عالم آخر يحشر إليه الناس بعد الموت ، ويلقى الإنسان هناك عقوبة كلِّ مخالفة إرتكبها لمواد هذا القانون .

ونحن مهما بحثنا وفتشنا ، وحسبنا وافترضنا ، لن نجد هذه الشروط مجتمعة عند أحد سوى خالق البشر ومفيض الوجود ، ومن بيده الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، العالم بالسرائر وما تُخفيه الضمائر ، وتميل إليه الطبائع : ﴿ **ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ** ﴾ .(١)

فاتضح إلى هنا أن وصول الإنسان إلى السعادة في حياته لا يتم إلاّ في ظل قانون متكامل ، سار في جميع جزئيات وجوانب حياة البشر . ومثل هذا القانون لا يقوم به إلاّ خالق البشر .

وحيث إنّ الله تعالى إنما خلق الإنسان ليكون سعيداً في دنياه وآخرته ـ لأنّ خَلْقَه للشقاء ، أو عبثاً بلا غاية خلاف الحكمة ـ والسعادة في الدنيا لا

---

(١) سورة المُلْك : الآية ١٤ .

تتم إلاّ في ظل القانون الكامل الذي لا يمكن لأحد وضعه إلاّ الله ، كان اللازم عليه تعالى ـ بمعنى الجري على مقتضى حكمته ـ إرسال من يُبلغ القانون إلى البشرِ ، وهم الأنبياء عليهم السلام .

وقد أشار تعالى إلى هذا الدليل في كتابه الحكيم بقوله ـ عَزَّ مِنْ قائل ـ:

﴿ لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ ، وأنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ . . . ﴾(١) .

فَعَرَّفَ الهدفَ من بِعْثَة الأنبياء بأنه إقامة القسط والعدل في المجتمعات ، لما فيه من تأمين السعادة الدنيوية للبشر ، وبالتالي تهيئة أرضيه تكاملهم وسعادتهم الأُخروية الخالدة .

الجهة الثانية ـ النبوة تعرّف سبل سعادة الآخرة

لمّا كان الهدف الأسمى من خلقة الإنسان ، تحلّيه بالكمالات المعنوية ، وتهذيب النفس وتطهيرها من دَنَس الشوائب المادية والشهوانية ، لِيَبْلُغَ بذلك أعلى درجات القرب إلى الله تعالى ، وينال به سعادة الأبد ، كما قال تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْس إلاّ ليعبدون ﴾(٢) ، أي ليصلوا إلى أعلى مراتب الكمال البشري ، وهي مرتبة العبودية الكاملة لله تعالى ، الضامنة للسعادة الأُخروية .

لما كان ذلك ، وكان هذا لا يُنال إلاّ بالوقوف على المعارف الحقة ، وطُرُق الأعمال العبادية الصالحة ، ومدارج نَبْذ التعلّق بالأعراض الدنيوية الزائلة ، وتنزيه العقل عن الإنزلاق في مهاوى الأهواء النفسانية المُضِلّة ، كل ذلك على الوجه الأتمّ والنهج الأصْوَب ، من دون مخالجة شكٍّ أو معارضة وَهْم .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

كان لا بُدّ حينئذٍ ـ تحقيقاً لحكمة الله تعالى في خلق البشر ـ من إرسال شخص ، لم يحصل له ذلك التعلّق المانع ، فيعلّمُهُم المعارف الحقّة ، ويُوضِحُها لهم ، ويُزيلُ عنهم الشُّبُهات ويرفعها ويدفعها ويعضُد ما اهتدت إليه عقولهم بِهَدْي الله وفطرته التي فطر الناس عليهم ، ويبين لهم ما لم يهتدوا إليه ، ويُذَكِّرهُمُ بالنعيم الموعود، ويحذّرهم العقاب وسوءَ المآل .

ثم يقرّر لهم العبادات البدنية والمالية ، والأعمال الخيِّرة الصالحة ، ما هي ، وكيف هي . كلُّ ذلك على وجهٍ يوجب لهم الزُّلفى عند ربهم ، وحسن المآب .

وهذا الشخص المفتقر إليه في انتظام أحوال المعاش وسعادة الآخرة ، الذي توجب الحكمة الإلهية إرساله إلى البشر ، هو النبيّ .



شبهات منكري البعثة

ظهرت عبر التاريخ مذاهب تُنكر لزوم إرسال الأنبياء على الله تعالى ، وتنفي ضرورته ، وأشهرها ـ عدا الملاحدة المنكرين للخالق ـ البراهمة . وهي تستدل على ذلك بأدلة ـ وإن شئت قلت شبهات ـ واهية ، نذكر فيما يلي أهم شبهتين منها ، ربما تَتلقّلقان على ألْسِنَةِ بعض أبناء العصر ، ونجيب عليهما .

الشبهة الأولى

إن الأنبياء إما أن يأتوا بما يوافق العقول ، أو بما يخالفها . فإن جاؤوا بما يوافق العقول لم تكن إليهم حاجة ، ولا فيهم فائدة ، وقد كفانا العقل ما نريد . وإن جاؤوا بما يخالف العقول ، قَبُح اتباعهم ، ووجب ردُّهم .

وهذه الشبهة باطلةٌ من جهتين :

الجهة الأولى : إنّا نقول : لم لا يجوز أنْ يأتي الأنبياء (عليهم السلام) بما يوافق العقول ومع ذلك لا يكون عنهم غنى ؟ فإن من جملة أهداف الأنبياء أن يعضدوا العقول ويؤيّدوها ويؤكّدوا أحكامها ، لأجل زيادة يقين الناس وثباتهم في طريق الحقّ . وحينئذ تكون الفائدة من بعثهم

حاصلة ، وإن جاؤوا بما يوافق العقول .

الجهة الثانية : إنّ العقلَ البَشَري قاصر عن إدراك التشريعات الصحيحة التي فيها انتظام المجتمع وسعادته ، كما هو عاجز عن معرفة سبل العبادات الصحيحة المنجية للإنسان عن الوقوع في براثن الشرك ومتاهات الضلال ، كما بيناه في دليل لزوم البعثة .

وعند ذلك لاينحصر ما يأتي به الأنبياء بما يوافق العقول أو يخالفها ، بل هناك ما لا تدركه العقول ولا تصل إليه ، فيأتي الأنبياء الناس به .

هذا ، وإنّ كثيراً من تشريعات الأنبياء الذي يتوهمه الناس قبيحاً ومخالفاً للعقول ، كالطواف حول البيت سبعة أشواط ، أو رمي الجمار ، أو لزوم الحجاب للمرأة ، أو ذبح الحيوان بقطع أوداجه الأربعة لتذكيته . . . إنّما يخيّل إليهم ذلك في بادىء النظر ، ولكن بمزيد من التدبّر والتأمّل فيها ، تظهر فوائدها النفسية والمعنوية ، وبتقدّم العلوم وترقّيها تظهر بجلاء الفوائد والمصالح الكامنة فيها ، وهذا يدل على عجز العقول بذاتها عن إدارك كيفيّات العبادات والمعاملات وتفاصيلها .

نعم ، العقول تُدرك بذاتها حُسْن بعض الأشياء كالعدل والإحسان ، وقُبْحَ بعضِها كالظلم والخيانة . ولكنّ معرفة هذه الأشياء غير كاف في إيصال الإنسان إلى الغاية التي خُلِق لها ، بل هو يتوقف على ما هو أوسع من ذلك ، ولا يمكن معرفته إلّا بتعليمٍ من رسل الله تعالى .

الشبهة الثانية

إن إثبات النبوة يستتبع أمراً مُسْتَقْبحاً عند العقلاء ، وهو اتباع الناس رجلاً مثلهم بدناً وروحاً ، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون . وخاصة إذا علمنا أنّ هذه التبعية تكون إلى حد التسليم التام والإستخدام المُطْلَق بِبَذْلِ النفس والنفيس في سبيل المبادىء التي يدعوهم إليها .

فـإذا كانت النبّـوة تستتبع مثـل هذا الأمـر القبيح ، إمتنـع على الخـالق الحكيم إرسال الأنبياء .

جوابها :

ليست هـذه الشبهـة بـالشيءالمستحدث ، بـل هي تكـرار لمنـطق المشركين عبر التاريخ ، الذي كانوا يواجهون به رسل الله كما يحكيـه القرآن الكريم في عدة آيات منها قوله :

﴿ وقالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الذين كفروا وكذّبوابِلِقاءِ الآخرة وأتْـرَفْناهُمْ في الحياة الدُّنيـا : ما هـذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ، يَـأْكُلُ مِمّـا تَأْكُلونَ مِنْـهُ ويَشْرَبُ مِمّـا تَشْرَبون * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُم إنَّكُمْ إذاً لخاسِرونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ وقـالـوا مـالِ هـذا الـرَّسـولِ يَـأْكُـلُ الـطَّعـامَ وَيَمْشـى في الأَسواقِ ؟! ﴾[2] .

وهذه الشبهة ـ كما لاحظْتَ ـ ناشئة من تَـوَهُّم أن الأنبياءَ كسـائرِ النـاس الـذين يعيشون بينهم ، من جميـع الجـوانب ، من دونِ أنْ يمتـازوا عنهم في شيءٍ منها .

وهو تَوَهُّمٌ خاطىءٌ ، وذلك أنّ الأنبيـاء وإن كانـوا مثلَ سـائر النـاس في البَـدَنِ والشّكلِ والجـانبِ الماديّ ومستَلْزَمـاته : فَهُمْ يـأكلون مما يـأكلون منه ويشـربون ممـا يشربـون ، ويصيبهم المَرَض والألم والجـوع والجراح والحـرّ والبـرد وو . . كمـا يصيبُهم ، إلا أنّهم يمتـازون عنهم في البُعْـد الـروحي والمعنوي بما أدركوه من معرفـة وحَصّلوه من يقين ، بلطفِ الله تعالى وعنـايته

---

(١) سورة المؤمنون : الأيتان ٣٣و٣٤ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧ .

ومنّه : ﴿ ولكنّ الله يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ مِنْ عِباده﴾[1]، وبما اجتهدوا به من عبادة وزهدٍ في الدنيا وزَهْرَتها ، فاتصلوا بعالم الغيب وتلقوا الوحي من السماء ، وكلّمهم ربّ العزّة والجَلال .

وبعد هذا ، أفَلا يكون للأنبياء حقُّ التقدّم على البشر ؟ ألا تكون متابعتهم واجبةً في منطق العقل، وموافِقَةً لحكمته تعالى أَتَمّ الموافَقة ؟ .

وقد أشار الذكر الحكيم في مُحْكم آياته إلى هذا الجواب عندما بَيّن أن رُسُل الله كانوا يجيبون به شبهة المشركين هذه ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وقالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، ولكنَّ الله يَمُنّ على من يشاءُ مِنْ عبادِهِ ، وما كانَ لنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بإِذْنِ الله ، وعلى الله فَلْيَتَوَكّلِ المُؤمِنونَ ﴾ .[2]



(١) سورة إبراهيم : الآية ١١ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١١ .

الأمر الرابع

كيف نثبت نبوّة مدّعي النبوّة

يميل كل إنسان ـ ميلاً فطرياً ـ إلى عدم الأخذ بأقوال الآخرين وادعاءتهم ، إلا بدليل يُثْبتها ويُبَرْهن على صحتها ، وهذا أمر وجداني .

وبناءً على هذا ، لو ادّعى إنسانٌ النبوةَ والسّفارة من قِبَل الله تعالى ، فما لم يُقِم دليلاً يُثْبِتُ صِدْقَه في دعواه ، كانت الدعوى فارغة ، ولا قيمة لها في سوق الإنقياد والإذعان .

ومن أهم الطرق التي تجلب اليقين بصدق مدعي النبوة ، إتيانه بالمعجزة ، فإنها لا تدع في النفس أدنى ريبٍ في نبوّته ، ولا تبقي للإنسان مفراً عن التسليم له والإنقياد إليه .

وللوقوف على حقيقة ما ذكرناه ، لا بُدّ لنا من البحث في جهتين :

الجهة الأُولى : تعريفُ المعجزة وبيان حدودها .

الجهة الثانية : بيان وجهِ دلالةِ المعجزة على صدق المدَّعي .

وإليك فيما يلي البحث في كل منهما .

***

الجهة الأولى : تعريف المعجزة

المعجزة في اللغة هي كـلُّ أمرٍ خـارقٍ للعادة يَعْجَـزُ الناسُ عن الإتيـان بمثله .

ولكنّ مرادنا من المعجزة في باب النبوة معنىً أخصّ من ذلك ، وهـو ما يكون دالاً عـلى نبوّة الآتي بها ، وأنّ الله تعالى أرسله إلى الناس .

وعلى هذا نُعَرِّفُ المعجزة بأنها :

« أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بدعوى النبوّة ، مع المطابقة ، وعَجْزِ الغير عن الإتيان بمثله »[1] .

وإليك بيان القيود الواردة في التعريف :

١ ـ المعجزة خارقة للعادة

الأُمور المستحيلة على قسمين :

أ ـ مستحيلةٍ عقلاً ، كاجتماع النقيضين .

ب ـ مستحيلةٍ عادةً ، كطلوع الشمس من مغربها .

وليس متعلَّقَ الإعجاز القسمُ الأول ، لاستحالته بالذات ، وعدم قـابليته لتعلّق القـدرة بـه ، كمـا سبق . وإنمـا متعلَّق الإعجـاز القسم الثـاني ، فــإن

---

(١) أضاف جميع المتكلمين في (المعجزة) قيد الإقتـران بالتحـدي . وهو عنـدي محلّ نـظر ، لعدم دخالته في تقرير الرابطة المنطقية القائمـة بين المعجزة وصـدق الدعـوى ، التي سيأتي بيانها ، لكفـاية دعـوى النبوة وعجز الآخرين عن مقـابلته . نعم ، التحـدّي مأخـوذ ضِمْناً في المعجزة ، حيث إنها شيء يفعله المدّعي أمام الناس ليُثْبِت نبوّته ، فلسانُ حالِها هو تحدّيهم بها . وأمّا أنْ يصـرّح بالتحـدي ، فلا لـزوم له . وغـاية مـا يمكن أن يقال هـو أن التصريـح بالتحدّي أبلغ في إيقاع أثر الإعجاز ، أعني به جلب إذعان الناس بصدق مدعي النبوة ، كما هـو حاصـل في معجزة القـرآن الكريم ، حيث يقـول تعالى : ﴿ فـأتـوا بسـورة مِنْ مِثْله ﴾ (البقرة: ٢٣) ، لا أنّه شرط في تحقق المعجزة الدالة على النبوة .

المعجزات أُمور مستحيلة في العادة ، وليست مستحيلة في العقل .

وإليك هذين المثالين توضيحاً لذلك :

(أ) يُعْتَبَرُ العمى وفُقدان البَصَر أحد الأمراض المستعصية التي يَعْسُر علاجها . وقد سعى الإنسان قديماً وحديثاً إلى الإستدواء من هذا المرض في بعض حالاته ، فاعتمد طرقاً مختلفة ، كانت فيما مضى بدائيّة تُسْتَخدم فيها الأعشاب الطبية وبعض المراهم والعقاقير ، ثم ترقت لتصل إلى حدود العمليات الجراحية الدقيقة التي تستخدم فيها الأشعة ، وتُزال بها أنسجة فاسدة من العين وتستبدل بأُخرى سليمة .

وكل عمليات العلاج هذه ـ بل وما سيصل إليه الإنسان بِتَطَوُّر التِّقَنِيَّة ـ تخضع لعوامل لا يمكن تجاوزها :

منها : القوانين الطبيعية : البيولوجيّة والسيكولوجية والفيزيولوجية وغيرها ، التي تتحكم بالبدن : أعضائِه وأجهزتِه وأعصابِه وخلاياه وأنسجتِه .

ومنها : لزوم الإستفادة من أدوات وتجهيزات مادية أثناء عمليات العلاج ، سواءٌ أكانت من جنس الأقراص أو المراهم ونحوها ، أم من جنس وسائل المعاينة والجراحة التي يباشر بها الطبيب المعالج العضو المريض ، وهي تزداد دقّةً بمرور الزمان .

وكلُّ هذه الأمور وغيرها يمكن التعبير عنها بالسُّنَن الطبيعية ـ وإنْ شئت قلتَ : (العادة) ـ التي يجري الكون عليها . فلو فرضنا أنّه تمّ إبراء أعمى بواسطة الإيحاءات النفسية أو بالمواد المشعة مثلاً ، لم يكن هذا الإبراء خارقاً للعادة لأنه قائم على التجارب والأدوات الماديّة ، جارٍ على وفق القوانين الطبيعية التي ذكرنا بعضها .

وأمّا أنْ يَتِمَّ إبراءُ هذا المرض بمجرد الدعاء ، ومن دون مراعاة لشيء

من تلك السنن الطبيعية ، فهو أمر مستحيل عادةً ، وإذا اتفق حصوله ، كان أمراً خارقاً للعادة الجارية في الطِّب والحاكمةِ على عمليات التداوي ، ومثل هذا الأمر يسمى « معجزة » .

(ب) إنّ نَقْلَ شيءٍ من بُقْعة إلى بقعة أُخرى ، يستحيل أنْ يَتِمّ من دون استخدام وسائل تخضع لقوة تحريكٍ ودفع ، سواءٌ أكانت مثل العضلات في الإنسان والدواب ، أم المحركات في السيارات والطائرات ، أم ما شاكل ذلك .

فإذا حصل أنِ انتقل جسمٌ كبير من موضعٍ من الأرض إلى موضعٍ آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات ، وبأسرع من لمح البصر ، وبمجرد تمتمة بعض الكلمات ، كان هذا أمراً خارقاً للعادة الجارية في الحركة ، أعني قوانين الديناميكا والفيزياء وغيرها ، فيكون « معجزة » .

ويمكنك بعد هذيْنِ المِثالين أنْ تستوضح الحال فيما ورد من معجزات الأنبياء وتُدرك أنها وإن لم تكن أُموراً خارقةً للمستحيل العقلي ، إلاّ أنّها أُمورٌ خارقة للمستحيل العادي الذي يألفه البشر وجرت عليه السُّنّة الكونية في كلِّ أمر من الأمور .

٢ ـ المعجزة مقترنة بدعوى النبوة

إن الإعجاز الدال على كون الآتي به نبيّاً ، لا بد أن يكون مقروناً بدعوى النبوة ، وذلك لأنّ وقوع الأُمور الخارقة للعادة ربما يتيسر لغير الأنبياء ، كالمرتاضين ، والأولياء أصحاب الكرامات .

والقرآن الكريم ينقل كرامات لبعض الأولياء ، منهم مريم (عليها السلام) ، إذ يقول : ﴿ **كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزقاً ، قال يا مَرْيَمُ أنّى لَكِ هذا ؟ قالَتْ : هُوَ من عِنْدِ الله ، إنّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ** ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٧ .

وينقل كرامةً عن جليس سليمان (عليه السلام) ، إذ يقول : ﴿ قَالَ يا أَيُّها المَلأُ أَيُّكُمْ يأْتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يأْتوني مُسْلِمينَ * قالَ عفْريتٌ مِنَ الجِنِّ أنا ءَآتِيكَ قَبْلَ أَنْ تَقومَ مِنْ مَقامِكَ وأَنّي عَلَيْه لَقَويٌّ أمينٌ * قالَ الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أنا ءَآتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمّا رآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ ربّي لِيَبْلُوَني ءَأَشكُرُ أَمْ أَكْفُرُ . . ﴾[1] .

ونحن ـ بعد أن اصطلحنا على تسميةِ الأمرِ الخارقِ للعادة ، الذي يَدُلُّ على النُّبوة ، بالمعجزة ـ نسمي هذه الأمور وأمثالها كرامات ، لا معاجز ، لأنها لم تكن مقترنة بدعوى النبوة .

٣ ـ المعجزة مطابقة للدعوى

يشترط في المعجزة أن تكون مطابقةً لدعوى النبيّ ، فإذا قال في مقام الإتيان بالمعجزة : سأفعل كذا ، فلا بد أنْ يقع كما قال ، لا أن يقع أَمْرٌ آخر .

وذلك لأنّ النبيَّ المرسل من قبل الله تعالى ، تُسَخَّر له الطبيعة وعالم التكوين ، فكلُّ ما يريد فِعْلَهُ لإثبات نبوته يقع ، فإذا وقع خلافُه أو ما يعاكسه ، انكشف أنّه لم يكن مُسَلَّطاً على الكون ، وأنّ الله تعالى الخالق والمدبر للوجود ، قد كذَّبَهُ وفَضَحَه ، وبالتالي فليس هو بنبيّ .

وقد نَقَلَ التاريخُ جُمْلَةً من الوقائع حَصَلَت لمُسَيْلِمَةَ الكذّاب ، ادّعى فيها أموراً فحصل خلافُها . ننقل فيما يلي واحدة منها :

قال الطَّبَري في تاريخه :

أَتَتْ « مُسَيْلِمَةَ » امرأةٌ تُكَنّى بـ« أُمّ الهَيْثَمْ » ، فقالَتْ : إنّ نَخْلَنا لَسُحُق ، وإنّ آبارنا لَجُرُز ، فَادْعُ الله لِمائِنا ونَخْلِنا ، كما دَعى مُحَمَّدٌ لأهلِ هَزْمان .

---

(١) سورة النمل : الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

فقال مُسَيْلِمَة : يا « نَهار » ما تقولُ هذه ؟ .

فقال نهار : إنّ أَهْلَ هَزْمان أَتَوْا مُحَمَّـداً ، فَشَكُوا بُعْـدَ مائِهِم ، وكـانَتْ آبارُهُم جُرُزاً ، ونَخْلَهم إنّها سُحُق ، فدعا لهم ، فَجاشَتْ آبـارُهُم ، وآنْحَنَتْ كُلُّ نَخْلَةٍ قَدْ انتَهَت ، حتى وَضَعَت جِرانَها لانتهائِها ، فَحَكَّتْ بِهِ الأَرْضَ حتى أَنْشَبَتْ عُروقاً ، ثُمّ قُـطِعَتْ من دونِ ذلكَ ، فَعـادَتْ فَسيلاً[1] مُكَمَّـماً[2] يُنْمى صاعِداً .

قال مُسَيْلَمَة : كيف صَنَع بالآبار ؟ .

قـال نهار : دعـا بِسَجل ، فَـدَعَا لَهُمْ فيـهِ ، ثُمّ تَمَضْمَضَ بفَمِـهِ مِنْـهُ ، ثُمّ مَجّهُ فيه ، فانطَلَقوا بِهِ حتى فَرّغوهُ في تِلْكَ الآبار ، ثُمّ سَقَوْهُ نَخْلَهُم .

فدعا « مُسَيْلِمَة » بِدَلْوٍ من ماء ، فدعا لهم فيـه ، ثُمّ تَمَضْمَضَ منه ، ثُمّ مـجّ فيه . فنقلوه ، فَأَفْـرَغوهُ في آبارهم ، فغـارَتْ مياهُ تلك الآبـار ، وخَـوى نخلُهم ، وإنما استبانَ ذلك بعد مَهْلَكَة[3] .

فمـا فعله مسيلمة ، وإن كـان خـارقـاً للعـادة ، ولكنـه حيث لم يـطابق دعواه ، لا يكون معجزة .

٤ ـ عجز الغير عن معارضتها

لما كانت المعجزة دليل النبيّ على نبـوته وإخبـاره عن الله تعالى ، لـزم أنْ تكون مما لا يمكن لأحـد الإتيان بمثلهـا ومعارضتهـا ، اذ لو أمكن ذلـك ، لانقطعت حُجَّتُه وبَطَلَ برهانُ نبوته .

وبهذا تمتاز المعجزة عن السحر والشَّعْبَذَة وما تُنْتِجه الرياضات النفسانية

(١) الفَسيل : صغار النخل .

(٢) مكمَّماً : ذو أكمام ، جمع كُمّ ، وهو الغلاف المحيط بثمار النخل .

(٣) تـاريخ الـطبري ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، ط بيروت ، ونقـل أيضـاً وقـائـع أُخـرى ، فلاحظها .

من الآثار الخارقة للعادة . فإنها جميعها لمّا كانت خاضعة لمناهج تعليمية لها أساتذتها وتلامذتها ، يمتهنها كلُّ انسان بالجُهْد الدؤوب والممارسة المستمرة ، فتكون قابلة للمعارضة والإتيان بمثلها ، فلا تكون معاجز .

وأما المعجزة ، فليست لها مبادىء تُتَدارس وتُمْتَهن بها ، بل تَحْدُثُ القدرةُ على فعلها في نفوس الأنبياء تلقائياً من دون تعليم بَشَرِيٍّ ولا ممارسةِ جُهْدٍ ، بل بتفضُّلٍ من الخالق تعالى ، أحكم الحاكمين ، تأييداً لنبيه في دعواه . فلذا يستحيل على أحد معارضة نبي من الأنبياء في معجزةٍ من معاجزه .

ويمكنك أن تلاحظ نموذجاً من ذلك ـ أعني أنّ ما قام به الأنبياء من خوارق العادات لم يكن مما تعلّموه ومارسوه أو رأوه من قبل ـ في ما ينقله القرآن الكريم في شأن موسى (عليه السلام) من أنّه أُمر بإلقاء العصى ، فألقاها ، فانقلبت حيةً تسعى ، ثم قيل له أمسِكْها ولا تخف ، فأمسَكَها ، فإذا هي تعود إلى حالتها الأولى ، ثم أُمر بادخال يده في جيبه وإخراجها ، ففعل ، فإذا هي تشع نوراً كأنّها الشمس على البسيطة ، فاعتراه خوف وهلع شديدان من جميع ذلك لعدم معرفته به من قبل ، فأُمِر بأَنْ يَضُمّ جَناحَيْه إلى نفسه ، فضمَّهما ، فإذا هو يحسّ بِبَرْد الطمأنينة وسكون النفس .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمّا أَتاها نُودِيَ من شاطِىءِ الوادِ الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا موسى إنّي أَنا الله رَبُّ العالَمينَ * وأَنْ أَلْقِ عصاكَ ، فَلما رآها تَهْتَزُّ كأَنّها جانٌّ وَلّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الآمِنينَ * أُسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْر سوءٍ ، واضْمُمْ إلَيْكَ جناحَكَ من الرَّهْبِ ، فَذانِكَ بُرهانانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فرعون ومَلَئِهِ إنَّهُمْ كانوا قَوْماً فاسقين ﴾[1] .

---

(١) سورة القَصَص : الآيات ٣٠ ـ ٣٢ . وذُكِرَت هذه الواقعة في آيات أُخرى من الذكر الحكيم، لاحظ النمل: ٩ـ١٢ ، طه : ١٧ ـ٢٣ .

وهكـذا عندمـا واجَهَ البحـر الأحمر هـارباً والمؤمنين بـه ، من فـرعـون وجيشه ، فرأى أنّ سُبُلَ الفرار مسدودة ، إذ البحرُ من أمامه والعدوُّ من خلفه ، خضع لله تعالى داعياً متوسِّلاً ، طالباً طريق النجاة ، فجاءه الأمر الإلهي بخرق سنَّـةِ الطبيعـة ، بضرب البحـر بعصاه ، فضـربه ، فـانفلق ، فكان كـلُّ فِـرْقٍ كـالطّود العـظيم ، وانعقد المـاء في قلب الغمر كـالحجارة ، فَجـازَ هـو وبني إسرائيل البحر .

يقـول تعـالى : ﴿ فَلَمّـا تَـراءَى الجَمْعـانِ قـال أَصحـابُ مـوسى إنّـا لَمُدْرَكونَ * قال كَلّا إنّ مَعِيَ رَبِّي سيَهْـدينِ * فَأَوْحينـا إلى موسى أنِ آضْـرِبْ بِعصاكَ البَحْرَ فَآنْفَلَقَ فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ ﴾[1] .

وهذه وأمثالهـا تُثبت لنا أنّ الأنبيـاء كانـوا يخرقـون سُنَنَ الكون من دون تعلُّم وجهدٍ وتدريب ، فلذا لم تكن سحراً ولا رياضة ، ولم تكن بالتـالي قابلة للمعارضة .

***

الجهة الثانية : وجه دلالة المعجزة على صدق المدعي

دلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة ، دلالةٌ عقلية برهانية ، منشؤهـا حكم العقل بأنه يَقْبُحُ ـ وبالتالي يستحيل ـ على الخالق أَنْ يُسَخِّـر الكون بيـد إنسان كاذب ، يقول إنه نبيٌّ الله ورسـوله إلى النـاس ، وليس بذاك . لمـا في تسخير الكون له ـ حينئذ ـ من إضلال الناس بإغوائهم على متابعة هذا الإنسان الذي يدّعي السفارة من الله كذبـاً ، ويأتيهم بتعـاليم وشرائـع مُخْتَلَقَة على الله تعالى .

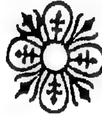
فالعقل ـ إذن ـ يقطع بأنّ كلَّ من يأتي بمعجزة فهو رسـول من الله تعالى إلى الناس صدقاً .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٦٠ ـ ٦٣ .

وهذه الدلالة تعتمد على القول باستقـلال العقل في تحسينـه وتقبيحه ، وإدراكه لحكمته تعالى واستحالة وقوع القبائح منـه ، والتي منها إغـواءُ الناس وإضلالُهُم ، المستلزمان للعبث في الخلقة .

وأما مع نفي استقلال العقل في هذه الأحكام ـ كما ترى الأشاعرة ـ فـلا يعود هناك مجال للإذعان بصدقِ نبيٍّ من الأنبياء ، إذ لا يبقى هناك مانع عقلي من أنْ يكون الله تعالى قد سخر الكون بيد كاذب ، ليفعل المعجـزات ويدعي السفارة من الغيب ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .



الأمر الخامس

صفـات النبـي

يشترط في الأنبياء الاتصاف بجملة من الصفات ، نجمعهـا في الامرين التاليين :

١ ـ العصمة .

٢ـ التنزه عن المنفرات .

ونبحث فيما يلي عن كل منهما .

الصفة الأولى : العصمة

العصمة في اللغة : المنع ، والإعتصام هو الإمتناع .

وفي مصـطلح المتكلمين ، العـصـمـة : قـوة راسخـة فـي النـفس (مَلَكَة) ، يمتنع بها الانسان عن اقتراف المعاصي وارتكاب الأَخطاء .

والأنبيـاء معصومـون عن ارتكاب الـذنوب عمـداً وسهـواً ، قبـل البعثـة وبعدها ، كما هم معصومـون عن الخطأ في تبليـغ رسالاتهم وبيـان ما نـَزَل به الوحي عليهم .

والبحث هنا يقع في جهتين :

الجهةالإولى : بيان حقيقة العصمة .

الجهة الثانية : بيان دليل لزوم اتصاف الآنبياء بها .

أ . حقيقة العصمة

ان الامتناع عن ارتكاب قبائح الأَفعال ، أَمر متفاوت الدرجات بين أَفراد الناس . وهذا التفاوت مرجعه إلى مجموعة من العوامل ، تُكَوّن في شخصية الإِنسان حوافز الاجتناب عن المعاصي ومطلق القبائح .

وتتلخص هذه العوامل بأمرين : التقوى ، والعلم بعواقب الأَعمال .

العامل الإول : التقوى الكاملة

التقوى هي حافز ذاتي يوجد في نفس الإِنسان ويدفعه إلى اتقاء وتجنب ارتكاب بعض الأفعال . ومنشؤها اعتقاد وإيمان خاص في صاحبها .

وعلى ذلك، فللتقوى مراتب مختلفة شدّة وضعفاً وفي جوانب ومجالات متعددة . فالإنسان الذي يعيش في بيئة اجتماعية مَدَنية ، ويؤمن بلزوم الإحترام المتبادل بين أبناء المجتمع ، ولو إحتراماً ظاهرياً ، تراه يُظهر الإنفتاح في وجوه الآخرين ، ويبتدىء من يلاقيه بالتحية ، ويتجنب سَيّءَ الألفاظ وشنيعها ، ونحو ذلك . وهو يفعل كل ذلك معتقداً ضرورة فعله ولزومه ، ويقبِّح ـ صادقاً ـ كلَّ من يتخلف عنها . فهو متّق في هذا المجال ، سمِّها ـ إن شئت ـ تقوى المعاشرة الظاهرية .

وبمقدار ما يكون مؤمناً بهذه المبادىء ، تزداد تقواه وشدة التزامه بها ، وإن كان منحلاً في مجالات أُخرى .

والإنسان الذي يعيش في بيئةٍ بَدَوِيَّةٍ صحراوية ، ويؤمن بمجموعة من المبادىء والقيم القَبَلية ، كإقراء الضيف ، ورعاية العهد ، ونُصْرَة الحليف ، ونحوها ، يلتزم بها أيّما التزام ، ويبذل نفسه ونفيسه في سبيلها ، ويتجنب مخالفتها . فهو مُتّق في هذا المجال ، وإن كان منحلا في مجالات أُخرى .

وبمقدارِ ما يكون مؤمنا بهذه القيم ، تزداد تقواه والتزامه بها واجتنابه فعل ما يضادها .

والإنسان المعتقد بوجود الله الخالق ، وبأنه أرسل إليه رسولاً جاء بتشريعات وتعاليم معينة ، تُوَلِّد تلك العقيدة في نفسه حافزاً على الإلتزام بها واجتناب مخالفتها ، وهو الذي نسميه بالتقوى . وكلّما ترسخت تلك العقيدة في ضميره ، اشتد ذلك الحافز الوجداني ، وقَوِيَ بالتالي التزامه بها وندر أن يخالفها .

ويمكننا أن نطلق على هذه الحالات الثلاث التي مثّلْنا بها ، وأمثالها ، إصطلاح « **العِصْمَة النسبية** » ، باعتبار أنّ صاحبها يتّقي مخالفة المبادىء التي يعتقد بها ، إتّقاءً غالبياً ، وفي الجملة . كما يمكنك أنْ تسميها « **العصمة العامة** » بإعتبار وجود هذه العصمة النسبية في كل صاحب مبدأ وعقيدة .

ولو فرضنا أنّ مثل هذا الإنسان ـ المؤمن بمبدأ وعقيدة ما ـ قد بلغ الغاية في الإعتقاد بتلك المبادىء ، حتى مازجت لحمه ودمه ، واستولت على ضميره ووجدانه ، فإنه ـ والحالة ذي ـ تبلغ تقواه الحد الأقصى ، ويستحيل أنْ تصدر عنه ـ عالماً عامداً ـ ولو مخالفة واحدة لما تمليه عليه تلك المبادىء التي يؤمن بها . فيكون هذا الإنسان معصوماً **على الإطلاق** . وهي العصمة الخاصة التي نثبتها في الأنبياء وأوصيائهم .

العامل الثاني : شهود عواقب المعاصي

نلاحظ عند عموم البشر ، حتى الذين ينكرون كلَّ الأُصول والقيم الأخلاقية ، أنّ الواحد منهم إذا علم علماً قطعياً بترتب خطرٍ ماحقٍ على فعلٍ ما ، فإنّه لَنْ يُقْدِم على فعله أبداً .

فلو فَرَضْنا أنّه سُنّ في بَلَدٍ تَحْكُمُه دولةٌ قويةٌ متسلّطةٌ ، قانونٌ قطعيُّ التنفيذ والإجراء بلا مهادنة ولا تردّد ، يقضي بأنّ كل من يغصب دارَ مواطِنٍ يُعْدَمُ فوراً ، فلن يقدم على هذا الفعل أحد .

أو عَلِم إنسان أنّ في السلك الكهربائي العاري الموجود أمامه ، طاقةً كهربائية عالية ، بحيث يساوق مَسُّهُ إياه مَوْتَه ، فلن يُقْدِم على مسّه قطعاً .

ولو قُدّر لإنسان أنْ يعلم ـ علماً لا يعتريه ريب ـ أنّ جمع الذهب والفضة وعدم إخراج حقوق الله منهما وإنفاقهما في سبيل الله ، إنما هو جمعٌ للنار والجِمار التي سيُكوى بها يومَ القيامة ، وارتقى علمُه إلى درجة الشهود العياني ، حتى رأى بأمّ عينه ، وهو في دار الدنيا ـ نفس هذا الذهب والفضة ناراً تستعر لتكويه وتحرقه ، فلن يُقْدِم على جمعهما كذلك ، أبداً .

وهكذا هي الحال في أولياء الله ، الذين اجتباهم لسرّه ، وأَطْلَعَهُم على غَيبه ، فإنهم يعلمون علماً يقينياً بالغاً حدَّ الشُهود ، بعواقب كلٍّ المعاصي وقبائح الأفعال ، فلا يُقْدِمون عليها عامدين ، قطعاً .

يقول الله تعالى ـ مشيراً إلى هذه المرحلة من المعرفة الشهودية ـ :

﴿ كلاّ لَوْ تَعْلَمونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجَحيم ﴾[1] ، أي لَتَرَوُنَّها في دار الدنيا ، لأنه أتبع الآية بـ(ثم) المفيدة للتراخي ، فقال : ﴿ ثم لَتَرَوُنّها عَيْنَ اليقين ﴾ ، وهي رؤية يوم القيامة .

قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصف أهل التقوى واليقين عند تلاوته قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصال ِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله ﴾[2] :

« فَلَمْ تَشْغَلْهُم تجارةٌ ولا بيعٌ عنه ، يقطعون به أيّام الحياةِ ، ويهتِفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقِسْط ، ويأتمرون به ، وينهَونَ عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطّلعوا غيوبَ أهل البرزخ في طول

---

(١) سورة التكاثر : الآيتان ٥ ـ٦ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٧ .

الإقامة فيه ، وحقَّقت القيامة عليهم عِداتِها ، فكَشَفوا غطاءَ ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنّهم يَرَوْنَ ما لا يرى الناس ، ويسمعونَ ما لا يسمعون . . . »[1] .

ومن هذا الذي ذكرناه عُلِمَ أنّنا إذا كنّا نقول إنّ الأنبياءَ وأوصياءَهم معصومون ، فإنما نعني به أنّهم ارتقوا في التقوى إلى ذلك الحدّ من الكمال ، الذي يترفعون فيه عن ارتكاب المعاصي وقبائح الأفعال ، كما قد ترقّوا في المعرفة إلى حدّ علم اليقين ، وهو مرتبة عظيمة من الشهود ، يرون فيه رأي العين عواقب المعاصي وقبائِحَ الصفات ، فيجتنبونها طُرّا .

ب ـ دليل لزوم العصمة

الدليل على لزوم عصمة الأنبياء ، هو أنّ الأنبياء إنما أُرسلوا إلى الناس ليعلموهم شرائع السماء وتعاليمها التي فيها الهداية إلى صراط الحق وسبيل السعادة .

وتحقيقُ هذا الهدف يتوقف على انقياد الناس للأنبياء وإطاعتهم لأوامرهم ومتابعتهم في أفعالهم ، وهذا مما لا يمكن أنْ يحصل إلاّ بوثوق الناس بالأنبياء ، بمعنى إطمئنانهم ـ بل يقينهم ـ بأنّ كلَّ ما يصدر عنهم من قول أو فعل تشريعي ، هو عين ما يريده الله تعالى ، ولا يتخطاه قيد أنْمُلَة . وهذا مما لا يمكن تحققه إلاّ بعصمتهم القطعيّة في جميع الجوانب.

فتحقُّق غرض بعثة الأنبياء ـ وهو هداية الناس ـ موقوف على متابعة الناس للأنبياء وانقيادهم لهم ، وهذا موقوف على حصول الوثوق بهم ، والوثوق بهم موقوف على تحقق عصمتهم عن المعاصي والأخطاء ، قولاً وعملاً ، وبدونه تنتقض غاية البعثة ، وتكون لغواً في لغوٍ ، وهو منافٍ لحكمته تعالى .

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٢٢ .

* الاستنتاج

يتضح مما تقدم بيانه في حقيقة العصمة ودليلها ، أمور :

الأول ـ لزوم عصمة الأَنبياء قبل البعثة وبعدها .

أما بعدها ، فواضح .

وأما قبلها ، فلأنّا نشاهد أنّ من يدّعي إمامةً على الناس ، ويتصدّى لقيادة أمةٍ ، ويأمرهم بمحاسن الأخلاق ، وينهاهم عن مساوئها ، ويطلب منهم أنْ يلتزموا بأمره ونهيه ، لا يَتَّبعه الناس ولا ينقادون إليه إذا علموا أنه كان في ماضيه فاجراً هتاكاً ، وفاسقاً خوّاناً ، وبالجملة : سالكاً مسلكاً يخالف ما جاءهم به ودعاهم إليه . خاصة إذا كانت المتابعة على نحو التسليم التام ببذل أموالهم وأنفسهم طوع أمره ، وفي سبيل ما يحمله من مبادىء ، كما هو حاصل في النبوة .

الثاني ـ عصمةُ الأَنبياء في جميع حالاتهم ، أَعني في السرّ والعَلَن . وذلك من جهات :

١ . إنّ الأَشخاص الذين يحتلون مواقع القيادة من المجتمع ، لا ينفك الناس عن مراقبتهم وتتبُّع أَحوالهم وخبايا أُمورهم ، كما أنّهم يكونون محاطين بالكثيرين من الخواص المقربين .

وأمثال هؤلاء ، مهما سعوا في التخفي في جناياتهم أو معاصيهم ، فإنها سرعان ما تشيع وتظهر للملاء ، وتوجب فضيحتهم وانفضاض الناس من حولهم .

٢ . إنّ العوامل المتقدم ذكرها ، التي توجد في النفس ملكة العصمة ، لا يتفاوت تأثيرها في امتناع صاحبها عن المعصية ، بين سرٍّ وعلن .

٣ . أَثْبَتَتْ العلوم النفسية الحديثة أنّ كل فعل يتخفّى الإنسان في القيام به ، أو يفكّر في فعله ولكن يخشى الإقدام عليه مخافة العواقب الإجتماعية ،

يتـرك أثره في سـريرة الإنسـان ، وينعكس في باطن شخصيتـه . ويبقى هنـاك مغموراً مضموراً ، حتى يجد لنفسه مُتَنَفَّساً فَيَظْهَرُ من حيث لا يَشْعُر صـاحبُه ، على صفحات وجهه أو فلَتات لسانه أو حركات اعضائه ، فيفضحه .

يقول أمير المؤمنين علي بن أبـي طـالب (عليـه السلام) : « مـا أضمر أحد شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه »[1] .

وعلى هذا فليست المعصية ، بل حتى مجرد التفكير فيها ، بمعـزل عن نفسية الإنسان وشخصيتـه ، بل لهـا آثارهـا السيئة على مُجْمَـل تصرُّفـاته وفي جميع حالاته من حيث لا يشعر .

ومن هنا يُعْلَم أنه يستحيل من الناحية العَمَلية تصـوُّرُ عصمة إنسـانٍ أمام أعين الناس ، وفسقه وفساده وراءها .

٤ . إنّ هنـاك من الأفعال مـا لا تُتصور فيـه حالتـا السرِّ والعَلَن ، بـل هو من حالات الخفاء دائماً . وهذه مثل الكذب والصدق ، فلا معنى لأن يقـال فلان صادق في كلامه في العلن وكاذب في السرّ ، بل هو إما متصف بصفة الكذب في كلامه أو الصدق .

فإما أن يقال الأنبياء كاذبون فيما يبلّغونه ، في كل حالاتهم سراً كانت أم علانية ، وهـذا ما ينفيـه الدليـل ولا يقول بـه أحد . أو صـادقون في ذلـك في جميع حالاتهم، وهو ما نريد إثباته . وأما التفصيل بين السر والعلانيـة ، فغير معقول ، وإنما هو بضاعة البسطاء .

الثالث ـ عصمة الأنبياء عن السهو والخطأ فيما يبلغونه من أحكام ، وفي سائر امورهم العادية . كأن يسهو النبي في عبادته ، أو يُخطىء في إقامة الحـدّ والعقوبة التي عينها في شرعه ، فيزيد فيها أو ينقص ، أو يَعِد إنسان بمـوافاتـه

---

(١)نهج البلاغة ، قصار الحكم ، الرقم ٢٦ .

في وقت معين ، ثم يَنْسى وَعْده ، ويتخلَّف عنه ، وأمثـال ذلك ، فـإن الأنبياء معصومون عنها .

والدليل على ذلك ، برهان حصول الـوثوق المتقـدم ذكره ، حيث قلنـا إنه من دون امتناع صـدور المخالفـة من النبي لشيءٍ مما جـاء به في شـرعه ، وامتناع فعله لقبيح من القبائح ، لا يحصل الوثوق في الناس بشيء من أقـواله وأفعـاله ، فَتَبْـطُل الغايـة من بِعْثته والغـرضُ من إرسالـه . فـلا بُـدّ من تحقق العصمة منهم في جميع شؤونهم وحالاتهم .

وهكـذا في المقـام نقـول : إنّ وقـوع السهـو من النبي في الأمـور التي تقدمت ، لا يُبقي في القلوب مجالاً للإطمئنان إلى صحـة شيء مما يـأتيهم به ليعملوا بـه، ولا لشيء ممـا يفعله ليقتـدوا بـه ، وذلـك بسبب تـطرُّق احتمـال السهــو والخطأ في كـل كلام يقـوله ، وكـل فعـل يفعله . ولا يحصـل ذلـك الإطمئنان وينتفي ذلك الإحتمال ، إلاّ بِسَدّ باب السهو عليه .

وأما ما نُسب إلى النبي الأعـظم من السهو في صـلاته ، فهـو مُخْتَلَقٌ لا أساس له من الصحة ، لاضطرابه متناً وسنداً، أولاً . وهو خبـر آحاد لا يجـوز الإعتمـاد عليه في بـاب العقائـد والأُصول ، ثـانيـاً . ومخـالفٌ لحكم العقـل الصريح ، الذي هو أساس النقل ، ثالثاً .

الـرابع ـ إن عصمـة الأنبياء عن ارتكـاب المعاصي عمـداً ، غير سـالبةٍ لاختيارهم ، بل العصمة واقعة بإرادة المعصوم واختياره التام ، مـع قدرتـه في الحين نفسه على فعل المعصية .

ويظهر لك ذلك مما ذكرناه في العصمة النسبيـة . فهل الـطبيب العارف بـأنّ شُـرْبَ هـذا النـوع من السُّم يؤدّي إلى المـوت قـطعـاً من دون أن يمكن علاجه ، فيمتنع عن شربه نتيجـة هذا العلم القطعي بالعاقبة ، هل ـ يـا ترى ـ هو مجبور في اجتنابه عن السُّم ، أو أنه اجتنبه باختياره التام ؟ .

لا ريب في صحة الثاني وبطلان الأول .

وهكـذا الحال في عصمـة الأنبيـاء والأوصيـاء . فـالعـوامـل المـوجبـة للعصمـــة ، التي جمعنـاهــا في التقـوى والعلم اليقيني الشهــودي بعــواقب الأفعال ، إنما توجِد في نفس المعصوم الأرضية الصالحة لاجتنـاب المعاصي والقبائح ، وليست عِلَلاً تامةً لذلك حتى تسلبه الإختيار ، ويكـون معها مجـرد أداة وآلة .

نعم ، هذا في عصمتهم عن ارتكاب المعاصي عمداً . وأمـا عصمتهم عن السهـو والخـطأ ، فهـو أمـر قهـريّ خـارج عن إرادة الأنبيـاء ، لأن السهـو والخـطأ أمران طبيعيـان للإنسـان . فالله تعـالى ، بـإيجـاب منـه ، يـزيـل من طبـائعهم عوامـل الوقـوع في السهو والخـطأ[1] ، حفـظاً لغـرضـه من إرسـال الأنبياء ، عن اللغو والعبث والبطلان[2] .

***

الصفة الثانية : التنزه عن المنفرات

يجب اتصاف الانبياء ، بكل ما يوجب نجاحهم في غـايتهم ، التي هي هـداية الناس . ومن ذلك تنـزُّهُهم عن جيمع مـا يُنَفِّر النـاس عنهم ، والتحلّي بكل ما يوجب انجذابهم اليهم ، سواء فيما يرجع إلى أنسابهم ، أم أبدانهم ، أم عقولهم ، أم أخلاقهم ، أم سيرهم .

واشتراطُ هذه الصفـات في الأنبياء من جهـة أنّ وجودهـا فيهم وتحلّيهم بها ، يهيّء أرضية انقياد الناس إليهم ، وبالتالي ضمـان نجاحهم في دعـوتهم

---

(١) وعلى هـذا ، فالنبي لا يسهـو في حـال من حـالاتـه ، لا في الصـلاة ولا في غيـرهـا . وأمـا التفكيك بينها بتجويز السهو في حالة الصلاة دون غيـرها من عبـاداته ، فَتـوهُّمٌ فاسـد ، لأن منشأ السهو إما هو منزوع من نفس النبي ، فإذن لن يسهـو أبداً . أو غيـر منزوع ، وإذن كمـا يجوز أن يسهو في صلاته يجوز أن يسهوَ في غيرها .

(٢) ولا يوجب هذا قدْحاً في فضيلة الأنبياء ، ضرورة أنّ غيرهـم ليس مؤاخَذاً على سهوه وخطئه .

وتحقيق الغاية من بِعْثَتِهم . ووجود خلافها فيهم يكون مناقضاً لتلك الغاية ومعطّلاً لدعوة الرسول .

وهذا يعطيك ضابطة كلية في إدراك ما يجب اتصاف الأنبياء به ، ولا ينحصر فيما ذكرناه ، وإنما هو من أبرز مصاديقه .

١ ـ فيجب تنزُّه الأنبياء في أنسابهم عن عَهَر الأُمهات وفجور الآباء ، لأن وليد هذه البيوت منفورٌ عنه ، بخلاف وليدِ البيوت الطيبة ، وسليلِ الأنساب الطاهرة ، فإن القلوب إليه تميل ، والنفوس طوع أمره تنقاد .

٢ ـ كما يجب تنزه الأَنبياء في أبدانهم وخِلْقَتِهم ، عن جميع الأَمراض والعاهات الموجبة لوحشة الناس ونفورهم عنه .

٣ ـ ويجب كذلك تنزه الأَنبياء عن نقص العقول ، فلا يتصفوا بالبَلادة ، وضَعْف الرأي ، والتردّد في الأُمور ، بل ينبغي أن يكونوا في أعلى درجات الذكاء والفطنة والحَزْم . كل ذلك للأَصل المتقدّم .

٤ ـ ويجب أيضاً تنزّه الأنبياء في أخلاقهم العامة عن سيئها ، كقَسْوَة القلب ، وفظاظة المعاملة والطمع والحسد ونحوها . وتحلّيهم بكمال الخُلُقيات الفاضلة ، مثل : لين العريكة ، والتواضع، والإيثار ، والحَمِيّة في الحق ، والأمانة ، والصدق ، ونحو ذلك . وكلُّها شرط لاجتماع الناس حوله ، كما قال تعالى في نبيه الخاتَم :

﴿ فَبِما رَحْمَةٍ من الله لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كنتَ فَظّاً غليظَ القَلْب لانْفَضُّوا من حولك ، فاعْفُ عنهُمْ واستَغْفِر لهم وشاوِرهم في الأمر ، فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل على الله ، إنّ الله يُحِبُّ المُتَوَكِلين ﴾[1] .

٥ ـ ويجب كذلك تنزه النبي في المجال القيادي عن سوء السيرة

---

(١) سورة آل عمران : الآية١٥٩ .

والمعـاملة ، فلا يستبدّ بـرأيـه ، بـل يشـاور أصحـابـه ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ وشاوِرْهُم في الأمر ﴾[1] .

ولا يستغل جهلَ الناس ، بل يسلُك دائماً سبيل هدايتهم وإرشادهم إلى الحق ، كمـا حصل مـع النبي الخاتم عنـد موت ولـده إبـراهيم ، إذْ انكسفت الشمس ، فقـال الناس : « قـد كُسِفَتْ لموت وَلَـدِه » . فأوقف النبي مـراسم دفنه ، وارتقى المنبر وقال : « أيّها الناس ، إن الشـمس القمر آيتان من آيات الله ، يجريان بأمره ، مطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا انكسفا أو أحدهما، صلُّوا » . ثم نزل المنبر ، فصلى بالناس الكسوف ، فلما سلّم ، قال : « يا علي ، قُمْ فَجَهِّز إبني »[2] .

ومن ذلك أنْ يعامل الناس بالسوية ، فلا يمايز بينهم لِطَبَقَةٍ أو شـرف أو مالٍ أو قرابة أو عرق ، وإنما الإنسان بما يحمل من ملكـاتٍ فاضلة ، وتقـوى وصلاح .

ومنه أيضاً أن لا يَسْلُك الأساليب الملتوية والمنحرفـة في نشر رسـالته ، كالخديعـة والإنتقام . ومـا حصل مـع النبي الخاتم في مكـة المكرمـة بعدمـا دخلها ظافراً ، وتمكّن من رقاب أَلَدّ أعدائـه الذين كـادوا له وطـردوه من أرضه وسفكـوا دماء خِيَـرَةِ أصحابـه ، يُعَدُّ نمـوذجـاً حيّـاً في هـذا المجـال ، حيث جمعهم وقال لهـم : ما تـظنّون أني فـاعل بكم » ، قـالوا : « نَـظُنّ خيراً ، أَخٌ كريم » ، فقال : « فـإني أقول لكم كمـا قال أخي يـوسف : لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ، إذهبوا فأنتم الطلقاء »[3] .

ونختم الكـلام بكلمـة جـامعـة عن رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) ، قال :

---

(١) سورة آل عمران : الآية١٥٩ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢٢ ، ص ١٥٦ . والسيرة الحلبية ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص١٣٢ .

« لا تصلح الإمامة إلّا لرجل فيه ثلاث خصال :

١ ـ وَرَعٌ يحجُزُه عن معاصي الله .

٢ ـ وحِلْمٌ يملك به غَضَبَه .

٣ ـ وحُسْنُ الولاية على من يلي ، حتى يكون للرعية كالأب الرحيم » .[1]

***

إلى هنا تبيَّنت أبرز جوانب مباحث النبوة العامة ، وحان أوان البحث في النبوة الخاصة والذي نقصد منه إثبات نبوة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) . على ضوء ما قدّمناه في مباحث النبوة العامة .



(١) أصول الكافي ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

المقام الثاني

النبــوّة الخاصّـة

بعد الفترة

بعـد ستة قـرونٍ من بعثه المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) في فلسطين رسولاً إلى بني إسرائيل ، بُعِث محمـد بن عبد الله (صلى الله عليـه وآلـه) في شبه جـزيرة العـرب ، في أُم قُراها مكة رسـولاً إلى الناس أجمعين حاملاً رسالة الهـداية والصـلاح والسعـادة ، خاتمـاً بها شـرائع من تقـدّم من النبيين ، لتكون شريعة البشر وقانونَهم إلى يوم الدين .

لمحة تاريخية عن الرسول والرسالة

في سنـــة ٥٧٠م ، وفي بيت عـريق في العــربيـة ، مشهــورٍ بـالكــرم والسَّخاء ، والسّتر والعفاف ، أعني أُسرةَ بني هاشم ، وُلِد محمـدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المُطَّلب بن هاشم ، نَبِيُّ المُسْتَقْبَل .

نشـأ يتيمَ الأَبوين بكفـالة جـدّه عبد المـطلب[1] ثم عمّـه أبي طـالب ، فاهتما بتربيته والإعتنـاء به أيمـا اهتمام ، فنشـأ بعيداً عن أجـواء مكة الفـاسدة

(١) توفي وللرسول من العمر ثمان سنوات .

وملاهيها وفجورها ، نقي الفطرة ، زكيّ النفس ، هاديء الطباع ، كثير التأمل والتدبّر فيما تناله حواسه من مظاهر الإبداع في الطبيعة الخلاّبة ، سمائها وأرضها ، وآيات العظمة والبهاء في النفوس البشرية ، وفيما يراه من ظلم وجَوْر واضمحلال في قومه وبني جِلْدته .

ولقد تركت بعض جوانب تلك البيئة المتخلفة حضارياً ، آثارها عليه . فنشأ أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يرَ أُستاذ معلّما ، ولا مثقِّفا مرشدا ، ولكن ـ مع ذلك ـ كانت فطرته الصافية ، وضميره الحيّ ، وعقله المتدبّر ، خير هادٍ له إلى الفضائل الخُلُقية والكمالات النفسانية . فعَرَفَه قومُه بمكارم الأخلاق ، ورأوا فيه كل مظاهر العفّة والنزاهة والصدق والأمانة ، حتى لقّبوه بـ« **الأمين** » .

ولما كانت سنة ٦٠٩ م ، فاجأ قومه بادعائه النبوّة والسّفارة من الله ، وأنّه يوحىٰ إليه بتعاليم فيها صلاح الناس وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وأنها جامعة لشرائع من سَبَقَه من الرسل ومكملة لها ، لتكون دين البشرية الخالد .

وصار محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو الناس إلى أُصولٍ تناقض كل المناقضة ما كانوا يعتقدونه . وهي تتلخّص بأن الخالق والمدبّر لهذا الكون واحد لا شريك له . على الناس أن يطيعوه ويعبدوه وحده ويَنْبُذوا ما سواه من الأصنام والأوثان والآلهة المختلقة وراءهم ظهرياً . وأنّ وراء هذه الحياة الدنيوية حياة أُخروية خالدة ، فيها يُثاب المطيعون على طاعتهم عطاءً ونعيما في الجنان غير مجذوذ ، وفيها يعاقب العُصاة على معاصيهم عقاباً أليماً في نار جهنم . وبيّن لهم حدود الله التي على أساسها يتقرر المطيعون الفائزون والعاصون المُعَذَّبون .

ولكن القوم لم يُعيروه آذاناً صاغية ، فواجهوه بشماته واستهزاء ، ثم ازداد عنادهم فآذوه والقِلّة التي آمنت به ، وضيّقوا الخناق عليهم ،

وحاصروهم . ثم اشتد مكرُهم ، فكادوا له ليقتلوه ، لكنه تمكنٍ من النجاة في اللحظة الأخيرة ومغادرة مكة إلى مدينة يثرب الواقعة على بعد (٤٠٠) كيلو متر إلى الشمال ، حيث كان له بعض الأنصار ، وكان ذلك سنة ٦٢٢ م .

إستقرّ محمدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أنصاره في يثرب ، وهناك شرع في تقوية بنيان دعوته وتعميمها ، فأرسل الوفود إلى مختلف قبائل العرب وملوك الدول المحيطة بالجزيرة العربية ، يدعوهم إلى دينه ومبادئه ، وخاض ـ في خِضَمّ ذلك ـ عدّة حروب مع قريش والعرب والروم[1] ، كان النصر حليفه في أكثرها . حتى قويت شوكته ، وكثر المؤمنون به ، فأَجْهَز على أُم القرى مكة وفتحها سنة ٦٢٩ م ، من دون قتال .

ولم تَمْض أشهر معدود حتى تمكن من إخضاع أرجاء شبه الجزيرة العربية ، وتوافد الناس إلى الدين الجديد أفواجا ، فبدأ يُعِدُّ الجيوش لنَشْر دعوته خارج الجزيرة ، ولكنّ المنيَّة وافته قبل إنجاز ذلك ، عام ٦٣١ م .

الدليل على نبوته

ما يَهُمُّنا في بحث النبوة الخاصة هو إثبات نبوة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وقد سبق وأنْ قلنا إنّ كلَّ مُدَّعٍ للنبوة لا يُقبل ادّعاؤه إلّا إذا أتى ببيّنة تُثبته . وهي ـ في مثل هكذا ادّعاء ـ يجب أن لاتَقْصُر عن مُعجزةٍ خارقة .

ووجه ذلك ما ذكرناه من أنّ الله سبحانه إذا أرسل إلى عباده رسولاً وأمرهم بإطاعته واتباعه ، وجب أن يعزّزه ويؤيّده بالأدلة الجليّة الدالة على نبوّته . وأجلُّ ما يمكن أنْ يَجْلِبَ إذعانَ الناس وإقرارهم بنبوّته هو أنْ يسلطه على عالم التكوين ، فيخرِقَ بيده نواميس الطبيعة . وعند ذاك لن يبقى في

---

(١) قاتل المسلمون الروم في عهد الرسول في معركة مؤتة التي استشهد فيها جعفر الطيار (رَضِيَ الله تعالى عنه) .

الضمائر الحية أدنى ريبٌ في اتصال الآتي بالمعجزة ، بالسماء ، وكونه نبياً محدِّثاً عن الخالق تعالى .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، قَرَنَ النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) دعواه بالمعجزة، وهي على قسمين :

الأول : معجزات آنيّة مَرْحلِيّة ، شاهَدَها أهلُ ذلك الزمان الذين بُعث فيهم النبي ، مثلُ : شقِّ القمر ، ونبوع الماء بين أصابعه ، وغير ذلك المئات التي نقلتها كتب التاريخ والسيرة .

الثاني : معجزةٌ خالدَة أبدية باقية على مرّ الدهور ، وهي القرآن الكريم .

وقد أيقن الناس بنبوّته ، مستندين إلى هذه المعجزات ، فآمنوا به ، واتبعوّه ، وشيَّدوا أركان دولته الإلهيّة . وبقيت معجزتُه الخالدة ، بعد ارتحاله ، برهاناً ساطعاً لجميع الأجيال الآتية إلى يومنا هذا ، وإلى يوم البعث ، تدُّل على نبوّته واتصال شرعه بالسماء .

فاللازم علينا نحن ، أن ندرك يقيناً بأن هذا الكتاب الذي تركه بين أيدينا هو معجزةٌ حقاً ، فنؤمن به حينئذ ، ونتّبعه . فهل هذا القرآن الذي نشاهده معجزة بتمام حدودها وأبعادها ؟ .

أجل ، هو كذلك . وإليك الإثبات .

القرآن معجزة

تقدّم أن للمعجزة حدوداً أربعة، إذا اجتمعت وتحقّقت كانت دالّةً دلالة عقلية قطعية لا تقبل الريب ، على أن الآتي بها نبي . وهذه الحدود هي :

١ ـ أن تقترن بدعوى النبوّة .

٢ ـ أن تكون خارقة للعادة .

٣ ـ أن يعجَز الآخرون عن الإتيان بمثلها .

٤ ـ أن تكون مطابقةً للدعوى .

والذي نقوله هو أنّ جميع هذه الحدود متحققه في القرآن الكريم .

١ ـ القرآن مقترن بدعوى النبوة

إقتران القرآن بدعوى النبوة من مُسَلَّمات تاريخ البشر ، أجمع عليه القاصي والداني ، والعدو والصديق .

كما أنّه صريحُ القرآن نفسه في آيات كثيرة ، منها قوله :

﴿ محمدٌ رسولُ الله ﴾(١) .

٢ ـ القرآن خارق للعادة

لكلِّ شيءٍ عادةٌ وسنةٌ طبيعية تحكُمه وتتسلَّط عليه ، فهو يجري وفقها ويخضع لقوانينها ، ويستحيل خروجه عنها ، إستحالة عادية .

فإبراء المرضى يخضع لمجموعة قوانين تقدِّم الإيعاز إلى بعضها ، ويستحيل حصول الإبراء خارج نطاقها ، فإذا حصل كان تطبيباً إعجازياً .

وتحريك جسم من مكان إلى مكان آخر ، يخضع لقوانين الحركة الديناميكية ، ويستحيل خروجه عن نطاقها ، فإذا حصل كان تحريكاً إعجازياً .

وهنا نقول :

إن انشاء المعاني وأدائها بالألفاظ ، يتبع قواعد لغوية اعتبرها البشر ، وقد تفنّنوا قديماً في أساليب البيان والتعبير ، فأبْلَغوا وأَصْقَعوا وأبْدَعوا . ولكن مع ذلك ، فإنّ لطاقةِ البشر في الأداء والتعبير ، حداً تتوقف عنده ، فتعقُم

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

عقـولهم عن تجـاوزه ، وتشّـل قـرائحهم عن تخـطّيـة ، إذ هـو غـايـة العقـل الممكن .

فهنـا ، إذا جاءنـا كـلام ـ مـركب من نفس الحـروف التي نستعملهـا ، ويخضع لعين القواعد التي اعتبرناها ـ ولكن مع ذلك تركع عنده عقول البشر، وتـذوب دونه مشـاعـرهم وأحـاسيسهم وقـرائحهم الـوقّـادة وأذهـانهم الصقيلة وتأملاتهم العميقة ، وبالإجمـال : يبلغ حداً ليس في وُسْـع الموجـود الممكن إنشـاؤه ، كان هـذا الكلام خـارقاً للعـادة ، فهـو كـلام إعجـازي . وإن شئت قلت : هو كلامٌ ، لكن ليس من جنس كلام المخلوق .

هـذا بعينه مـا ندعيـه في القرآن ، فـإنا نقـول إنه كـلامٌ ليس في وُسْـعِ مخلوقٍ الإتيان بمثله .

وليس من شيء أدل على صدق هذا الإدعاء من تحقّقه عياناً ومشاهدةً . وهذا هو القرآن أمامنا ، وهذه عقول المخلوقين أمامنـا ، هل يقـدر على إنشاء مثله أحد ؟ كلا ، لا .

ولقد بَهَرَ هـذا القرآن مُـذْ نَزَلَ إلى يـومنا هـذا ، جهابـذة لغة العـرب ، وأساطين أهل الأدب والفكر من البشر ، في فصاحته وبلاغته وتـأليفه وأُسلوبـه وعُمْقِ معانيه حتى كـأنّه المحيط الذي لا يُدْرَك آخـره ، ولا تنفـذ لَئـالِؤه ، ولا يَنْضُب ماؤه ، فأحسّوا بضعف فطرتهم أمـامه ، ووجـدوا في نفوسهم مـا يَغْمُر قـواهم الإبداعيـةَ ويخذلهـا ، مصادمـةً ، لا حيلةً وخداعـاً ، فأدركـوا وأيقنـوا استحالة أن يكون من إنشاء مخلوق .

وهذا برهان ساطع على كون القرآن خارقاً للعادة(١) .

---

(١) وهـذا هـو المسلك الصحيـح الـذي ينبغي سلوكـه في إثبـات إعجـاز القـرآن ، دون تمحّـل الأساليب التحليلية لاستخراج حقيقة إعجازه . لأن هذا القرآن إذا كان خارقاً للعـادة ، وفوق طاقة المخلوقين ، فكيف تصل العقول إلى كنه إعجازه ؟ .

نعم ، غاية ما يمكن للعقل القاصر سلوكه ، هو أن يحـاول إستخلاص الجـوانب الإعجازيـة=

ومن هـذا المنطلق تحدّى القرآن المخلوقين أجميعين على أن يأتوا بمثله ، بل بعشر سور مثله ، بل بسورةٍ من مثله ، إمعاناً في تضعيف طاقة البشر ، وتأكيداً لإعجاز القرآن وانتسابه إلى الله تعالى وصحة رسالة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال :

* ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذا القرآنِ لا يَأْتونَ بِمِثْلِهِ ولو كان بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظهيراً ﴾[1] .

* ﴿ أَمْ يقولون افتراهُ ، قُلْ فأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادعوا من استَطَعْتُمْ من دون الله إن كُنْتُم صادقينَ ﴾[2] .

﴿ وإن كنتُم في رَيْبٍ مما نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادعُوا شُهَداءكُمْ من دون الله إن كُنْتُم صادقينَ ﴾[3] .

٣ ـ عجز البشر عن الإتيان بمثله

من البديهي أنّ من يأتي بعقيدة تُصادم عقائد الناس وتُبْطِلُها ، بل ترميهم بالكفر وتجعل مصيرهم إلى جهنم والعذاب الدائم ، وتحقّر معبوداتهم بأشنع ما يكون ، بل تسحب من تحت أرجلهم بساط المال والثّروة والسلطة والقيادة ، من البديهي أن يواجهوه بما أُوتوا، ولا يتركوا حيلةً وسبيلاً يمكّنهم من النيل منه وإبطال دعوته إلاّ سلكوه .

وهـذا بعينه ما واجهته الرسالة الإسلامية التي جاء بها النبي محمد

= في القرآن ، كالفصاحة والبلاغة والنظم والأسلوب والكشف عن المغيبات وتشريعاته ووو . وكلها تقع في إطار بيان المجالات التي أعجز فيها القرآن ، ولكن هـذا شي ، وسرُّ إعجازه شيء آخر . ولو كان بإمكان عقولنا كشف لغز الإعجاز، لأمكننا إنشاء كلام مثله .

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) سورة هود : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

(صلى الله عليه وآله وسلم) من قريش والعرب . فَلَقَدْ جاءهم بكل ذلك ، ثم قال لهم إنّ دليل صحة ما أدّعيه هو هذا الكلام القرآني ، فأتوا بمثله إن كنتم قادرين .

وقد كان العرب أهل فصاحة وبلاغة ، والقرآن الذي تحداهم وأبطل عقائدهم به مؤلَّف من نفس الحروف التي هي المادة الأُولى لكلامهم ، فكان أمامهم طريقان لا غير لمواجهته :

طريقسهل بسيط يتمثل بإنشاء كلامٍ مثل القرآن في الفصاحة والبلاغة الاتقان .

طريقٌ صعبٌ وشاق ويتمثلُّ بمحاربته ومسايفته حتى يحصُلَ لهم الظَّفَرُ عليه .

ولكنهم عَدَلوا عن ذاك الطريق السهل ، وسلكوا هذا المسلك الوعر ، وما فيه من هلاك أموالهم وإهدار دمائهم وسبي نسائِهم وذراريهم . فعدولُهم عن ذلك الأمر الأسهل إلى هذا الأمر الأصعب ، دليلٌ على عجزهم عن المعارضة ، إذ العاقل لا يختار الأصعب إلّا مع عدم إنجاع الاسهل ، خاصةً إذا علمنا أنّ زمام نواصي اللغة العربية كانت بأيديهم ،وكانت المبارزة في إنشاء أبدع الكلام فَنّهم الرائج وشُغْلَهم الشاغل .

وهكذا القرآن اليوم ، يُكَفِّر كلَّ من يَدِين بغير الإسلام ، ويُصَرّح بأنّ مصيره إلى جهنم وبئس المصير ، ويُبْطِل مناهجهم التشريعية وقوانينهم الوضعية ، ويدعو شعوبَ العالم المظلومة إلى الثورة ودكّ عروش المستكبرين ، وهو يقول إن دليل صِدْقه في كل ذلك هو القرآن نفسه ، ويتحداهم على الإتيان بمثله إن كانوا قادرين .

ولكن رغم ما توصّلت إليه الحضارة البشرية اليوم من رُقِيٍّ وتَمَدُّن وتوسُّع مذهل في حركة الفكر والنشاط الجامعي والثقافي والإعلامي ـ رغم ذلك ـ لا يتجرّؤ أحد على المنازلة في حلبة التحدي البلاغي ،بل يسلك أعداء الإسلام

الطريق الأصعب المليء بالمكاره والآلام الذي فيه اتلاف ملياراتهم ، وتهديداً لاقتصادهم وبُنَى مَدَنِيَّتِهم . وما ذلك إلّا لعلمهم اليقيني بعجز القدرة البشرية عن الإتيان بكتاب وآيات مثل القرآن الكريم ، بل بسورة من مثله وإن كانت سطراً واحداً كسورة الكوثر المباركة .

٤ ـ القرآن مطابق للدعوى

إن لسان حال الرسالة ينطق بأن الرسول الأكرم قال للبشرية جمعاء : إني آتيكم بكلام فيه الهدى والنور ، على غاية الإتقان لفظاً ومعنىً إلى الحدّ الذي تعجزون فيه جميعاً ـ ولو ظاهَرَكم الجنّ ـ عن الإتيان بمثله ، ليكون دليلاً على نبوتي .

وحيث قد أثبتنا أنّ القرآن خارقٌ للعادة ، وأنّ الخلق جميعاً عاجزون عن معارضته ، يَثْبُتُ أنّه مطابق للدعوى .

وبذلك يظهر أنّ جميع حدود المعجزة متحققة في القرآن الكريم ، فيكون معجزة ودالاً دلالة قطعية لا تقبل الريب على نبوة رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

***

سؤال وجوابه

السؤال

إنّ ما ذكرتموه في وجه إعجاز القرآن ، لا يمكن أنْ يُدْرِكَه إلّا العرب ، بل الضالعون منهم في اللغة ، وأمّا غيرُهم فلا سبيل له إلى معرفته وإدراك أنّ القرآن معجز .

الجواب

الدليل الذي أثبتنا به إعجاز القرآن ، يُثْبِتُ ذلك لكلِّ إنسان ، عربيٍّ وغير عربيّ .

ووجهُ ذلك أنّ غير المتضلعين باللغة العربية ، أو غير الناطقين بها ، إذا علموا أنّ جهابذَة أهل اللسان قد عجزوا عن معارضة القرآن ، مع تَوَفُّـر جميع الدّواعي في أنفسهم لمعارضته ، يُدْركون عند ذاك أنّه مُعْجزٌ ، وأنّه لو كان من جنس كلام البشر لقَدِروا على مثله وعلى أفضل منـه . تمامـاً كما أنّ السَّحَـرَة لمّـا عَجِزوا عن معـارضة مـوسى (عليه السـلام) في معجزةِ عصـاه ، عَـرِف غيرهُمُ أنّ ما فعله مـوسى معجزةٌ وليس بسحـرٍ ، لأنه لـو كان سحـراً لعارَضَـه السَّحَرَةُ بمثله .

هـذا ، وإنّ المستشرقين قد غاصوا في مباني اللغة العربيـة وأُصولهـا ، وقواعدها وفنونها ، وأسسوا معاهد وجامعات للإستشراق ، وهم يدركون تمـام الإدراك تحـدّي القرآن ، ومـع ذلك سلكـوا في مـواجهـة هـذا الـدين طـريق الـدسائس والأكـاذيب ، وبذلـوا جهوداً وأمـوالاً طائلةً جـداً في سبيل تشـويـه الحقائق التاريخية وتزويـرها ، وتـربية مَنْ هم على شـاكِلَتِهم من أبناء العـربية ـ ولا يزالون كذلك إلى الآن ـ بُغْيَةَ النيل منه وإبطاله ، من دون أنْ يَجْرُؤوا ولو مرةً في الزمان على معارضة القرآن . وهذا أدل دليل لكل إنسان ـ عربياً كان أم غير عربي ـ على كونه معجزة ، وكونه كلام الخالق تعالى لا كلام المخلوق .[1]

***

وإلى هنا ينتهي البحث في النبوّة بقسميها ، ونشرع فيمـا يلي بالبحث في الإمامة .

* * *

---

(١) ولك أن تعيد ـ بأشد منه ـ في دول الكفر والإستعمار العالمي التي تـرى الإسلام دينـاً خطيـراً يهدد كيانها ومطامحها التوسّعيّة ، وقد ألمعنا إلى ذلك فيما تقدّم .

الفصل الخامس
الإمامة

تعريف الإمامة

الإمامة : « ولاية إلٰهيّة ، عامّة ، خلافة عن الرسول »

المـراد من الٰهية : أنّها بتفويض وتنصيص من الله تبارك وتعالى .

ومن عامّة : شمـول وظائف الإمـام التشريعيـة والإجرائيّة لشؤون الدين والدنيا أجمع .

ومن خلافة عن الرسول : الإمامة المنفـردة عن النبوة ، التي هي محـل بحثنا ، لا الإمامة المجتمعة مع النبوّة ، فـإنّ النبيّ ـ وهو المـوحىٰ إليه لتبليـغ رسالة الله ـ قد يكون ذا وظيفة إرشاديّة فحسب ، وقد يكون ـ إضافة إلى تلك ـ إماماً ذا ولاية إجرائيّة .

واستيفاء البحث في المقام ، يتوقف على بيان الأُمور التالية مُقَدِّمَةً :

١ ـ الإمامة من أصول الدين .

٢ ـ وظائف الإمام وصلاحيّاته .

٣ ـ مواصفات الإمام .

٤ ـ كيفيّة تعيين الإمام ، وأنه لا يكون إلّا بالنصّ الشرعي .

فإذا اتضحت هذه المقدمات ، ننتقل إلى المقصود من هذا الأصل ، وهو يقع ضمن أبحاث ثلاثة :

البحث الأول ـ أن الإمام بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

البحث الثاني ـ الأئمة بعد عليّ (عليه السلام) .

البحث الثالث ـ ولاة الأمر والحُكّام .

ثم بعد الفراغ من هذه الأبحاث ، نطرح سؤالاً مهمّا كثير التراداد على الألسن ، حول خلاف المسلمين في الإمامة ، ونجيب عنه جواباً قالعاً لكلّ رَيْبَة ، وشافٍ من كلّ شكّ ، بإذنه تعالى .

وإليك فيما يلي بيان كلٍّ من هذه الأُمور .

* * *

الأمر الأول ـ الإمامة من أصول الدين

بعث الله النبيَّ محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بشريعةٍ خاتمة لِما تَقَدَّمها من الشرائع ، وعامّة لجميع البشر على اختلاف طوائفهم وأعراقهم ، لتكون دين الله الخالد لجميع شعوب العالَم .

وقد أدّى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان مُقَدَّراً له من بيان أُصول الدِّين وفروعه ، وتشكيل نواة المجتمع البشريّ الإسلاميّ الصالح ؛ أدّاه بالتمام والكمال ، ثم ارتحل إلى ربّه .

ارتحل الرسول الأكرم والرسالة لَمّا تستكمل بعدُ جميع أَهدافها لأنّ غايتها القصوى لم تكن لستوعبَ حياةُ النبيِّ الأكرم بلوغَها . فكان والحال هذه ، لا بدّ من قيام أشخاص كاملين ، بعد النبي الأكرم ، بإكمال المسير الذي بدأه ، بأن يُبَيِّنوا جميع أحكام شريعة الله تعالى ، وينشروا دين العدل

الإلهي ، في كافّة مجالاته : الإداريّة والإقتصاديّة والأمنيّة ، بين النـاس ، إلى أن تتحقق كامل أهداف الرسالة ببسط شرع الله في جميع أصقاع المعمورة .

وهؤلاء الأشخاص هم **الأئمة** ، ووجـودهم يُعَدّ ـ في منطق العقل ـ من أوجب الواجبات ، إذ بـدونهم تبقى الرسـالة مبتـورةً ، ولا تنال هـدفها الـذي لأجله أُرْسِلَت ، وتنتفي بالتالي فائدة بعثة النبيّ الخاتم وتكون لغواً وعَبَثاً . والله تعالى حكيم ، منزّهٌ عن فعل ذلك .

وبهـذا يتضح أنّ ضـرورة الإمامـة لا تَقِلُّ عن ضـرورة النبوّة ، بـل همـا متلازمتان لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى . فتكون الإمامة ـ حينئذ ـ من أصـول الدين ، والإعتقاد بها من أركان العقائد الإسلامية .

****

الأمر الثاني ـ وظائف الإمام وصلاحياته

قـد ظهر لـك مما تقـدّم أنّ الإمامـة ـ في حقيقتها ـ إستمـرار لـوظـائف النبوّة ، في كافّة مجالاتها . وأنّ المسؤوليات التي تقع على عاتق النبيّ ، هي نفسهـا الواقعـة على عاتق الإمـام . وبالتـالي ، فالصـلاحيّات التي يتمتـع بها النبي ، والمجـالات التي يَحِقّ لـه فيهـا إعمـال أمـره ونهيه ، وعلى البشـر إطاعته ، هي نفسها للإمام .

نعم ، يمتاز النبي عن الإمام بأن النبي يقول ما يقوله ، ويفعل مـا يفعله ، بوحيٍ وإرشادٍ مباشر من الله تعـالى . بينما الإمـام يقول ويفعـل بتعليمٍ مُسْبَقٍ من النبيّ .

ويمكن للمتتبـع في سيرة الـرسول الأكـرم (صلوات الله عليـه وآلـه) أن يستكشف المسؤوليات الي كان يتولّاها ، والصلاحيّات التي كان يتمتع بهـا ، وبالإمكان تلخيصها في الأمور التالية :

١ ـ تفسير كتاب الله العزيز ، وشرح مقاصده ، وبيان متشابهاته ، وتقرير قَصَصِه وحِكَمِه وأخلاقه وعقائده وبراهينه .

٢ ـ بيان حكم الله تعالى في الموضوعات التي كانت تحدث وتستجد ولم يكن قد نزل فيها حكمٌ مُسْبَق .

٣ ـ صيانة الدين في عقائده وشرائعه ومفاهيمه ، عن الشُّبُهات المُضِلّة والتشكيكات الباطلة التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين .

٤ ـ صيانة المسلمين عن الإنحراف في عقائد الدين وشرائعه ومفاهيمه ، بمراقبتهم المستمرة على جميع هذه الأصعدة وتصحيح أية أخطاء تظهر في أفكارهم وأفعالهم .

٥ ـ حفظ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي المتعدد الطوائف ، حيث كانت تظهر بين الفَيْئة والأُخرى ، من بعض الأفراد ، بعض النزعات القَبَلِيّة والأهواء الجاهلية الموروثة .

٦ ـ إدارة أُمور الدولة الإسلاميّة التي أوجد (صلى الله عليه وآله وسلم) نواتها ، في المجالات السياسية والإقتصادية والأمنية ، في جميع آفاقها وأبعادها .

وبناءً على ما قدّمناه لك ، يكون الإمام مسؤولاً عن هذه الوظائف ، ومتمتعاً بنفس هذه الصلاحيات الإجرائيّة .

****

الأمر الثالث ـ مواصفات الإمام ومؤهلاته

الآن وقد وقفت على حقيقة الإمامة ومكانتها ووظائف الإمام وصلاحيّاته ، يمكنك أن تدرك ما يلزم أنّ يتصف به الإمام من مؤهلات وما يشترط أنْ يكون فيه من مُوَاصَفات . وهي ، بعبارة جامعة : كلّ الكمالات التي يُشْتَرَطُ اتصاف النبي بها، وأبرزها: العصمة، والإحاطة بأصول الشريعة

وفروعها ، والمعرفة التامّة بكتاب الله وسنّة نبيّـه ، وقدرتـه على دفع الشبهـات وصيانة الدين ، والحكم بالعدل .

فلو لم يكن الإمام معصوماً عن المعصية والخطأ ـ كالنبيّ ـ فكيف يكون مبيّناً لشريعة الرسول وهادياً للناس إلى الحق ،حيث لا يؤمن ـ حينئذٍ ـ من كذبه أو خطائه ؟ . وكيف يكون له على الناس حق الطاعة والتسليم التام ؟ .

ولو لم يكن الإمام عالماً بأُصول الشريعة وفروعها ، لكان حاكماً بالظن والإستنباط والرأي القياس والإستحسان . ومع هذا ، كيف يكون صائناً للدين من الإنحراف في شرائعه وعقائده ومفاهيمه . وكيف يقضي بالحق والعدل بين الناس ؟ .

شبهة

قد يقال بأن العلم بسنة الرّسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحاديثه الشريفة ، كافٍ في الإمام ، خصوصاً مع تصريح القرآن الكريم بتحقّق إكمال الدين وإتمام النعمة ، في آية كريمة نزلت على الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في أواخر حياته المباركة ، وبالتحديد في الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة ، وهي قوله سبحانه : ﴿ اليومَ يَئِسَ الذينَ كَفَروا مِنْ دِينِكُمْ ، فلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْن ، اليومَ أكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً ﴾ .(1)

فإذا كان الدين كاملاً برحلة الرسول الأكرم ، كَفَتْنا سُنَّتُهُ الشريفة ليعملَ المسلمون وأئمتهم بها ، ولا شيء وراءها يحتاج إلى بيان وقيّم عليه .

جوابها

إن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لحق بالرفيق الأعلى ،

---

(1) سورة المائدة : الآية ٣ .

ولمّا يُبَيِّن سوى جزءٍ يسير من الأحكام يتناسب والظروف المكانية والزمانية ، والموضوعات التي كان يواجهها المسلمون ءانذاك . وهي مما لا يمكن أن تكفي بحال ـ على فرض صيانتها من الدّس والتحريف ـ في هداية الامة وجيمع شعوب العالَم ، في جميع الأزمان المستَقْبَلَة . فإذا فرضنا وقوع الدّس والتحريف فيها ـ كما قد حصل فعلاً ـ لم يبق للإعتماد عليها مجال .

وأما الآية الكريمة المذكورة ، فإن ظرف نزولها والقرائن الموجودة فيها ، تدلّ على أنّ المراد من إكمال الدين وإتمام النعمة ، إحكام أصول الدين ودعائمه ، وضمان استمراريته وبقائه ، بإبطال ما كان يطمع فيه المنافقون ـ الذين هم كافرون في الواقع ـ من تَزَلْزُله وبطلانه بوفاة الرسول الأكرم ، كما هو شأن كل الدَّعَوات الدنيوية ، فإنها تفنى بموت دُعاتها . تمّ ترسيخه وإحكامه بإعلان عليّ بن أبي طالب ـ في ذلك اليوم الذي نزلت فيه الآية الكريمة ـ إماما وخليفةً على المسلمين بعد رسول الله . وبذلك يئس الذين كفروا ، وتمت النعمة على المسلمين .

هذا ، ولكن أهل السنة ـ إنطلاقاً من فهمهم المغاير لحقيقة الإمامة ، حيث إنهم يعتقدون أنها سياسة زمنية لرعاية شؤون المسليمن الدنيويّة ، كما نعهده من رؤساء الدول ـ لم يشترطوا في الإمام تلك الكمالات التي اشترطناها ، بل اكتفوا باشتراط :

ـ أن يكون بالغاً عاقلاً مسلماً ، سليم الحواسّ والأعضاء .

ـ أن يكون قُرَشياً . لما رووا عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : « **لايزال الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عَشَرَ خليفة كلّهم من قريش** » .[1]

ـ أن يكون من العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قضاة

---

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، كتاب الإمارة ، باب الناس تبع القريش ، ص٣ .

المسلمين . وبعضهم اكتفى بأن يكون عالماً بما يلزمه من فرائض الدين .

- أن يكون شجاعاً ، بصيراً بأمر الحرب ، وإدارة الدولة .

- أن يكون عادلاً . واكتفى بعضهم بأن يكون متقيا لله في الجملة . وجوّز بعضهم كونه فاسقاً وجاهلاً ، كما يأتيك .

وقد عرفت أنّ شأن الإمام ومقامه أعلى وأعظم من مجرد إدارة الدولة ، وأنه - بالأصل والأساس - مسؤول عن بيان شريعة الله ، وإكمال مسيرة الرسالة بإتجاه هدفها الإلهي الذي لأجله أُرسلت . ولا يقوم بأعباء ذلك سوى شخص مثالي له ما للنبي من الصفات والكمالات ، بلا أدنى تفاوت سوء في الإيحاء إليه .

* * *

الأمر الرابع - كيفية تعيين الإمام

مما بيّناه في حقيقة الإمامة ، وأن الامام يجب أن يكون شخصاً مثاليّاً من الأمة ، له القابلية لتحمّل أعباء وظائف النبوّة ، وإكمال المسيرة التي بدأها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الغاية التي أرادها الله تعالى ، وهي نشر الدين ووراثة المؤمنين للأرض ، والحكم بالعدل بين الناس ، وهداية البشر إلى الكمال الذي خُلِقوا له .

ومما يستلزمه ذلك ، من لزوم كون هذا الشخص معصوماً عن المعصية والخطأ ليكون مفروض الطاعة على الناس ، وكونه عالماً علماً تاماً بأصول الشريعة وفروعها ، وعارفاً كمال المعرفة بكتاب الله وسنّة الرسول ، وغير ذلك مما تقدم .

من جميع ذلك ، يظهر بوضوح أنَّ مثل هذا الشخص المثالي لا يمكن نصبه إماماً على الناس إلّا بتعيين من الله تعالى . ولا تتحقق إمامة أحد - بالمعنى الذي بيّناه لك - بإيكال أمرِ تعيينه إلى الناس بالإنتخاب وغيره .

ولكن أهل السنة ، انطلاقا من فهمهم المغاير لحقيقة الإمامة ، سلكوا

مسلكاً آخر في كيفية تعيين الإمام ، فقالوا بأنه ينتصب نصباً شرعياً تجب فيه إطاعته ، بأحد الطرق الثلاثة التالية :

١ ـ **البَيْعة**. وهي تعني الإنتخاب، ولكن لا بصيغته الديموقراطيّة المعروفة في أزماننا هذه ، بل بأن يصفّق المسلمون بيد المُرَشَّح ، قائلين لـه : بايَعْنـاك بـإمرة المسلمين ، أو نحـو ذلـك . وتكفي مبـايعـة شخص واحـد من وجهـاء المسليمن له ، ليتعيّن خليفةً مفروض الطاعة . كما حـدث في تعيين أبي بكر للخلافة ، فإنه لم يبايعه أحـد في السقيفة إلاّ عمـر ، وأما بقيـة الحاضـرين ، فمنهم من ضُرب حتى أُدمي ، ومنهم من سكت عن الإعتراض ثم بـايع خـوفاً على نفسه .

وقال بعضهم : بل لا بُدَّ في عقد الخلافة مبايَعَةً من خمسـة أشخاص ، يعقدها أحـدهم برضـا الأربعة ، لأنّ أبـا عُبَيْدة الجـرّاح ، وأُسَيْد بن حَضيـر ، وبِشْر بن سَعْد ، وسالم مولى أبي حُذَيْفَة ، تابعوا عُمَر في بَيْعته لأبي بكـر قبل خروج الناس من السقيفة .

ولم يتـأنّ أبو بكـر بعد هـذه البَيْعة المختصـرة ، في التصدّي للحكـم ، ولم ينتظر مبايعة الأصحاب ـ في المدينة وفي الأقطار ـ له .(١)

٢ ـ **الإستخلاف والعهد** . فـإذا عيّن الخليفة شخصـاً ـ كائنـاً من كان ـ للإمامة من بعده ، انتقل الأمر إليه بعد موته أو خَلْعِهِ نَفْسَه .(٢)

ومن هـذا القبيل كـانت خلافـة عمر ، حيث إن أبـا بكر دعـا عثمان بن عفّان ، فقال له : « أُكْتُب عهدي » فكتب عثمان :

---

(١) لاحظ ما قاله إمام الحرمين الجويني في الإرشاد، ص ٤٢٤ . وما ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية، ص٦ـ٧(ط الحلبي بمصر) . وما ذكره إبن قتيبة من وقائع السقيفة المحزنه في الإمامة والسياسة ، ج١ ، ص١١ . وما ذكره الـطبري منهـا في تاريخـه ، ج٢ ، ص٤٥٩ ، في وقائع السنة الحادية عشر للهجرة .

(٢) شرح المقاصد ، للتفتازاني ، ج ٢ ، ص٢٧٢ ، ط إسطنبول .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا ما عهـد به أبـو بكر بن أبي قحـافة ، آخـر عهـده في الـدنيـا ، نـازحـاً عنهـا . . . إني أستخلف عليكم عمـر بن الخطاب ، فإنْ تَرَوْه عَدَل فيكم ، ظنّي ورجـائي فيه ، وإنْ بَـدَّل وغيّر فـالخير أردت . . . »[1] .

٣ ـ **القهر والإستيلاء** . فإنّ من يتصدّى للإمامة بالحرب والنار ، ويقهـر الناس بشوكته ، تنعقد له الخلافة ، وإن كان فاسقاً أو جاهلا [2] .

وهذه الأمور بغنىً عن التعليق عليهـا . وإنما نكتفي بـالإشارة إلى أنهـا ـ كما يظهر وَجِيّاً لكل من يواجهها ـ وُضِعَت على أساس تصحيح خلافة بعض الخلفاء ، ولـم ينطلق واضعوها من أساس فكري منطقي لتُصَحَّحَ عليـه خلافـة الخلفاء ـ إن طابقته ـ كما كان ينبغي .

إنّ حقيقـة الإمامـة ـ التي عرّفنـاك عليها ـ وعـظمة المقـام الذي يتـولّاه الإمـام ، لا يمكن أن يُسْتَوْفَيَا ـ بمقتضى أبسط المحـاسبـات العقليـة ـ بهـذه الـطرق التي ذكروهـا . بل إن تـرك الشـارع المقـدّس الأمـة بـلا راعٍ ، أمـر مرفوض في منطق العقل ، ومحكوم باستحالته على الحكيم تعالى ، وإن هو إلّا كتَـرْك قطيـع الضأن في مفـاوز الهلاك ومرامي المجهول، فـريسـة أنيـاب الذئاب ، بلا قيّوم عليهـا يحرسهـا ويكلؤها . فكيف يسـوغ لجماعـة السنّة أن ينسبوا إلى الله تعالى هذا الإهمال والتهاون والتضييع لـرسالتـه وهدايتـه ، مع عنايته ببيان أحكام موضوعات قد تبدو تافهة في معيشة الإنسـان ؟ إنّ هذا ممـا يقضي منه العجب .

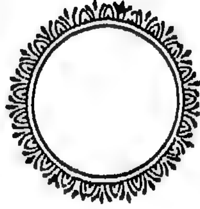
غير أنّا نعتقد بحزم ، ثبوتياً ـ كما مرّ عليـك ـ وإثباتيـاً ـ كما يـأتيك ـ أنّ الـرسول الأكـرم (صلى الله عليه وآلـه وسلم) لم يترك أمّتـه إلّا وقد عيّن لهـا

---

(١) الإمامة والسياسة ، ج١ ، ص١٨ . ورواه إبن سعـد في طبقاتـه الكبرى ، ج٣ ، ص٢٠٠ وابن الأثير في تاريخه « الكامل » ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، باختلاف يسير .

(٢) شرح المقاصد ، ج٢ ، ص٢٧٢ .

رعاتها المثاليين ، وقادتها الربّانيّين ، ليخلفوه في اكمـال مسيرتـه ، وهم أئمة الهـدى الإثنا عشـر : أوّلهم " **علي بن أبي طالب** " ، وآخـرهم " **المهدي بن الحسن العسكري** " إمام زماننا ، عليهم جميعاً صلوات الله وتحيّاته . وهذا ما نثبته للباحث الكريم ، فيما يلي .



البحث الأول

الإمام بعد رسول الله علي بن أبي طالب

إذا كان التحليل العقلي يقضي بضرورة وجود إمامٍ معصومٍ منصوصٍ عليه من جانب صاحب الشريعة ليُكْمِل المسيرة التي بدأها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فإن الآثار الإسلامية تطابق ذلك الأصل العقلي ، وتُثبت نَصْبَ عليٍّ بن أبي طالب ، إبنِ عمِّ الرسول ، للخلافة والولاية من بعده .

وتتنوّع هذه الأثار بين آيات الكتاب الحكيم ، والسنّة النبويّة الشريفة ، واحتجاجات عليّ (عليه السلام) نفسه بذلك . وفيما يلي نقتطف من كلٍّ منها ثمرةً ، فيها الغناء من الدلالة على ذلك .

١ ـ ولاية عليّ (عليه السلام) في الكتاب

قال تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ إنّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسولُهُ والذين آمَنُوا الذين يُقيمونَ الصلاة ويُؤْتون الزكاة وهم راكعون ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

الوليّ في اللغة ، هو : الأولى بالتصرف في أمر من أُمور غيره .

فوليّ الصغير هو أوْلى الناس بالتصرف في شؤونه الماليّة .

ووليُّ النُّصرة (الناصر) هو الأولى بالتصرف في أمر المنصور من حيث تقويته في الدفاع . وإن شئت قلت : هو أولى الناس بالدفاع عمن التزم نصرته .

ووليُّ الصُّحْبَة (الصاحب) هو الأولى بأن يؤدّي حقوق الصُّحْبة من غيره . وهكذا .

والله سبحانه وليّ عباده ، من حيث إنه ـ لمكان كونه الخالق ـ الأولى بالتصرف في أُمور دنياهم بالتدبير والرزق ، وفي أُمور دينهم بالتشريع والهداية . ويعبّر عنهما بالولايتين التكوينيّة والتشريعيّة .

وفي هذه الآية الكريمة ، أُثبت الله تعالى الولاية لنفسه ولرسوله وللذين آمنوا ، لاجميعهم ، بل الذين اتصفوا بوصف خاصّ ، وهو إعطاؤهم للصدقة وهم في حالة الركوع من الصلاة .

وهذا الوصف بعينه لم يتحقق إلاّ في شخص علي بن أبي طالب ، كما وردت بذلك الآثار المتضافرة[1] .

والولاية التي أثبتها الله تعالى لنفسه ، هي نفسها أثبتها للرسول ولعليّ (عليهما السلام) . وتمتاز ولايته تعالى عن ولايتيهما ، أن ولاية الله سبحانه ثابتة بالأصل ، لمكان خالقيّته تعالى وربوبيّته . والأخيرتان فرعيّتان بإذنه تعالى ، لمكان اصطفائهما وتفضيلهما على الخلق .

---

(1) الآثار الواردة في ذلك ، من السّنّة الشيعة ، كثيرة . لاحظ ـ لتسهيل الوقوف عليها ـ البحث الروائي الذي ذكره العلامة الطباطبائي في الميزان ، ج٦ ، ص١٥ـ٢٥ ، الطبعة الثانية ـ الأعلمي ، ١٩٧١م ، بيروت .

وما هذه الـولاية إلاّ حقيقـة الإمامـة ، التي وقفت عليها ، فتكـون الآية ـ بضميمة الآثار ـ مثبتةً لإمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

٢ ـ ولاية عليّ (عليه السلام) في السنّة

روى الطَّبَري ، والأسكافي ، وابن الأثير ، والخازِن ، وأحمد وغيرهم بـأسانيـد صحيحة ، عن علي بن أبي طـالب ، أنه لمّـا نزلت هـذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبين ﴾[١] ، دعاني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقال لي :

« يـا عليّ ، إن الله أمرني أنْ أُنـذر عشيرتي الأقـربين ، فَضِقْتُ بـذلـك ذَرْعاً ، وعرفت أنّي متى أُبـاديهم بهذا الأمـر ، أرى منهم ما أكـره ، فصمدّت عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقال : يا محمّد ، إنك إن لا تفعـل ما تؤمـر به ، يعذّبك ربُّك .

فـاصنع يا عليّ لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رِجْلَ شاة ، واملأ لنا عسا من لبن ، ثم اجمع لي بني عبـد المطّلب حتى أُكلِّمَهُم وأُبَلِّغَهُم مـا أُمرت به . »

ففعلت مـا أمرني بـه ، ثم دعوتهم لـه ، وهم يـومئـذ أربعـون رجـلاً ، يزيدون رجلاً أو يَنْقُصونه ، فيهم أعمامه . . . .

إلى أن قـال : فـأكلوا حتى مـا لهم بشيء حـاجـة . ثم قـال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

ـ « أَسْقِهِمْ » .

فجئتهم بـذلـك العسّ ، فشـربـوا حتى رووا منـه جميعـاً . ثم تكلّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال :

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

ـ « يا بني عبد المطلب ، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفْضَلَ مما قد جئتم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدْعُوَكم اليه ، فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؟ » .

فأحْجَمَ القومُ عنها جميعاً . وقلت : « أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه » .

فأخذ برقَبتي ، ثم قال :

ـ « **إن هذا أخي ، ووصيّي ، وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه** » .

وفي رواية أُخرى : قال ذلك القول ثلاث مرات ، كلُّ ذلك أقوم إليه ، فيقول : « إجلس »(1) .

ويُعرف هذا الحديث بحديث الدار ، وحديث بدء الدعوة . وهو من المستفيضات الروائيّة ، وحادثته من المسلّمات التاريخية .

ودلالته على نصّ الرسول بالخلافة لعليّ ، في غاية الوضوح .

٣ ـ تظلّم عليّ (عليه السلام) من غصب الخلافة

قال علي (عليه السلام) في خطبته المشهورة ، المعروفة

(1) لاحظ تاريخ الطبري ، ج٢ ، ص٦٣ ـ ٦٤ . و« نقض العثمانية » ، لأبي جعفر الأسكافي ، على ما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج١٣ ، ص٢٤٤ . و« الكامل » لابن الأثير ، ج٢ ، ص٢٤ . و« تاريخ أبي الفداء عماد الدين الدمشقيّ » ، ج ٣ ، ص ٤٠ . وتفسير « الخازن » لعلاء الدين البغدادي ، ص٣٩٠ . ومسند الإمام أحمد ، ج١ ، ص ١١١ ، وص١٥٩ .

وجاء في الكثير من كتب التاريخ والحديث ، فمن أراد التوسّع فليلاحظ :

ـ الغدير ، للعلامة المتتبع الأميني (رحمه الله) ، ج٢ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٩ .

ـ المراجعات ، للعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين (رحمه الله) ، المراجعة ٢٠ ، والمراجعة ٢٢ .

بـ« الشَّقْشَقِيَّة »[1] :

« أما والله ، لقد تقمّصها[2] ابن أبي قُحافة ، وإنَهَ لَيَعْلَمُ أنَّ مَحَلّي منها مَحَلُّ القُطْبِ منَ الرَّحا ، يَنْحَدِرُ عنّي السَّيْلُ ولا يَرْقى إليّ الطَّيْرُ . . . فَصَبَرْتُ وفي العَيْنِ قَذىً وفي الحلق شجاً ، أرى تُراثي نَهْباً[3] ، حتى مضى الأَوّلُ لِسبيلِهِ ، فأدْلى بها إلى آبن الخطّابِ بَعْدَهُ ، فيا عجباً ! بَيْنا هو يَسْتَقيلُها في حياتِه ، إذْ عَقَدَها لآخَرَ بعد وفاته ! لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها !! . . . فَمُنِيَ الناسُ ـ لَعَمْرُ الله ـ بِخَبْطٍ وشِماسٍ ، وَتَلَوُّنٍ واعتراض . فَصَبَرْتُ على طولِ المُدَّة ، وشدّة المِحْنة .

حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها في ستّة زعم أنّي أحَدُهُم . فيا لله ولِلشّورىٰ ، متى اعتَرَضَ الريبُ فِيَّ مع الأَوّلِ منهم حتى صِرْتُ أُقْرَنَ إلى هذه النظائر !! . . . »[4] .

---

(١) وهي الخطبة الثالثة من كتاب نهج البلاغة ، الذي جمع فيه الشريف الرضي خطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

(٢) أي لبسها كالقميص (المعبّر عنه في أيامنا بالدشداشة) ، إشارة إلى شدّة حرصه وتعلّقه والتصاقه بها . ويشير إلى هذا المعنى أيضاً في قوله الآتي : « لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها » و ـ بطبيعة الحال ـ من كانت هذه حاله ، فلن يراعي لوصايا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حرمة ، ولو في هذا المجال الذي يتضارب والأطماع الشخصيّة .

(٣) كنّى عن الخلافة بـ« التراث » ، وهو الموروث من المال . وفي هذا إشارة عميقة إلى حقيقة الخلافة والإمامة ، وأنها عهد الله تعالى الذى أعطاه المصطفين من ذرّية إبراهيم (عليه السلام) ، كما أشار اليه تعالى في قوله :
﴿ إنّي جاعِلُكَ للناس إماماً ، قال : ومن ذرّيتي ، قال : لا ينالُ عهدي الظالمين ﴾ (سورة البقرة الآية ١٢٤) .

(٤) نحبّذ رجوع الطالب إلى الخطبة بأسرها ، وحفظها ، لما فيها من الحقائق التي تكشف عن شدّة مظلوميّة عليّ (عليه السلام) وهضم حقوقه ، وبالتالي تحطيم الإسلام الذي أراده الله ورسوله للناس ، فلم يحتضنه إلّا عَلِيٌّ والأئمة الأحد عشر من ذرّيته . هذا، وإن في نهج البلاغة الكثير من الكلمات التي يتظلّم فيها علي (عليه السلام)من غصب الخلافة ،=

فإذا كان هـذا منطق عليّ ، وهـو ربيب حضن الرسـول ، وأمين سرّه ، وخـازن علومه ، وأزهـد الناس وأتقـاهم وأورعهم في دين الله ودنيـا النـاس ، بعده ، فماذا يقول المُنْصِفُ إذْ تقرع أسماعه هذه الخطبة ؟ .

ألَنْ يقرّ لعليّ ـ بالإنحصار ـ بالولاية المنصوصة ؟ .

ألَنْ يذعن بأنهم ظلموه وانتزعوا منه حقه الإلهي بالإمامة ؟ .

أجل والله ، إنه أقل الإنصاف .

****



= ويصـرّح بـانهـا منصـوصـة في أهـل البيت . لاحظ منهـا مـايـلي : الـخـطب ٢و٦و١٢٦و١٥٠و١٧٢و٢١٧ والكتاب ٣٦ .

الأئمة بعد عليّ (عليه السلام)

عرفت فيما مضى أنّ الإمامة ضرورة عقلية ، وأنه يجب على الله تعالى ـ إكمالاً لغرضه من البعْثة ـ أنْ يَنْصِب للناس إماماً معصوماً ، له ما للنبيّ من الكمالات ـ سوى الوحي ـ إلى أن تتحقق أهداف الرسالة الخاتمة كاملةً ببسط الدين والعدل الإلهي على كافة أرجاء المعمورة .

وهذا الدليل يقتضي لزوم وجود إمام معصوم في كلّ زمان ، إلى أن تتحقق تلك الغاية .

وعرفت أنّ الإمام المعصوم يستحيل انتصابه على الناس إلّا بنصّ من صاحب الشرع أو من إمام معصومٍ متقدّم .

كما قد عرفت ـ والحمد لله ـ أنّ الإمام بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عليّ بن أبي طالب ، بنّصٍ من الله تعالى في كتابه ، ومن رسوله الكريم في سُنّته .

فاذا اجتمعت لديك هذه المقدّمات ، سهل عليك معرفة الأئمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يومنا هذا ، وعدّتهم إثنا عشر إماماً ، نصّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عَدَدِهم وأسمائهم ، كما نصّ كلّ إمام على الإمام الذي يليه . وفيما يلي نُبَيّن هذين الأمرين .

١ ـ عدة الأئمة : إثنا عشر

تواترت الأحاديث من طرق الفريقين على أنّ خلفاء رسول الله واوصياءه والأئمة الذين يلون أمر المسلمين من بعده ، إثنا عشر إماماً .

منها ـ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لا يزالُ الدينُ قائماً ـ يقاتِل عليه عصابة ـ[1] حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة ، كلُّهم من قريش »[2] .

ومنها ـ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أنا سيّد النبيّين ، وعليٌّ سيد الوصيين ، وإن أوصيائي بعدي إثنا عشر ، أوّلهم علي ، وآخرهم القائم المهدي »[3] .

وغير هذين النموذجين الكثير جداً من الأحاديث .

ولا يمكن حملها على إثني عشر خليفة من أصحاب الرسول ، لأن الذين تولّوا الخلافة منهم أقلّ من ذلك .

كما لا يمكن حملها على الخلفاء الذين أعقبوهم من ملوك بني أُميّة أو بنيّ العبّاس ، لزيادتهم عن ذلك العدد كثيراً ، ولظلمهم الفاحش ، الذي تغنينا أسفار التاريخ المملوءة به عن إثباته .

---

(١) في رواية أحمد .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٩ ، ص١٠١ . وصحيح مسلم ، ج٦ ، ص٣ . وسنن الترمذي ، ج٤ ، ص ٥٠١ . وسنن أبي داود ، ج ٢ ، ص٤٢١ . ومسند أحمد، ج٥، ص ٨٦و٨٩. وجامع الأصول ، ج٤، ص٤٤٠و٤٤٢ . وذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة أن رواية : الخلفاء بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إثنا عشر خليفة كلهم من قريش ، قد رويت في الصحاح والمسانيد من عشرين طريقاً . (ينابيع المودّة ، للقندوزي الحنفي ، ج٣ ، ص١٠٤ ، نشر الأعلمي أفست عن ط اسطنبول) . وقد روى هذا الحديث بصور اخرى كثيرة ، أشرنا إليها في الإلهيات ، ج٢ ، ص٦١١ـ ٦١٣ ، الطبعة الأولى .

(٣) أخرجه القندوزي في ينابيع المودّة ج٣ ، ص١٠٥ . وفي هذا الكتاب روايات كثيرة من طرق السنة في هذا المجال ، فلاحظها .

فلم يبق إلا أن يكونوا من أهل بيته ، وقد ثبتت في عليّ (عليه السلام) ، فتكون من بعده في العلماء من بنيه ، الذين نَصّ عليهم عليّ (عليه السلام) ونصّ كلّ منهم عليه .

٢ ـ أسماء الأئمة (عليهم السلام)

روت الشيعة الإماميّة نص إمامٍ إمامٍ على من يقوم مقامه إلى إثني عشر إماماً . وحيث إن ابتداء التنصيص كانَ من عليّ (عليه السلام) ـ الذي نصبه الله ورسوله إماماً ـ تكون إمامتهم ثابتة على نحو اليقين .

فقد نصّ أمير المؤمنين عليّ[١] على إمامة وَلَدِهِ الحَسَن[٢] من بعده ، ثم الحُسَيْن[٣] من بعد الحسن .

ونصّ الإمام الحسين بن علي على إمامة ولده عليٍّ السجّاد ، زين العابدين[٤] .

ونصّ الإمام عليّ بن الحسين على إمامة ولده محمد ، الباقر[٥] .

ونصّ الإمام محمد بن عليّ على إمامة ولده جعفر ، الصادق[٦] .

ونصّ الإمام جعفر بن محمّد على إمامة ولده موسى ، الكاظم[٧] .

ونصّ الإمام موسى بن جعفر على إمامة ولده عليٍ ، الرضا[٨] .

---

(١) (٢٣ قبل الهجرة ـ ٤٠هـ) .
(٢) (٣هـ ـ ٦٠هـ) .
(٣) (٤هـ ـ ٦١هـ) .
(٤) (٣٨هـ ـ ٩٥هـ) .
(٥) (٥٧هـ ـ ١١٤هـ) .
(٦) (٨٣هـ ـ ١٤٨هـ) .
(٧) (١٢٨هـ ـ ١٨٣هـ) .
(٨) (١٤٨هـ ـ ٢٠٣هـ) .

ونصّ الإمام علي بن موسى على إمامة ولده محمّد ، الجواد [1] .

ونصّ الإمام محمد بن عليّ على إمامة ولده عليٍ ، الهادي [2] .

ونصّ الإمام عليّ بن محمد على إمامة ولده الحسن ، العسكريّ [3] .

ونص الإمام الحسن بن عليّ على إمامة ولده محمّد ، المهدي [4] .

وهذا التنصيصات مستفيضة، رواها وأخبر عنها الأُمناء الصادقون من أصحاب الأئمة (عليهم السلام) خالفٍ عن سالف ، وضبطوها في كتبهم ومجاميعهم الحديثيّة ، وتحفّظوا على إبلاغها لكل نسلٍ نسلٍ ، ونقلوا معاجزهم الباهرة التي وقعت منهم في مقامات إثبات إمامتهم ، وهي بحدّ ذاتها كافية لإثبات إمامتهم ، للدليل عينه المتقدّم في بحث إثبات النبوّة . وبإمكان الباحث الكريم الرجوع إلى كتبهم العديدة المدّونة في هذا المجال ، ومن أسهلها تناولاً كتاب الكافي لثقة الإسلام الكليني ، المتوفّى عام ٣٢٩ للهجرة .

الإستدلال من وجه آخر

وبالامكان الإستدلال على إمامتهم عليهم السلام بوجه آخر ، وهو أنّ مخالفي الشيعة روَوْا تلك الأخبار الكثيرة الي تقدّمت الإشارة إليها ، والتي تصرّح بان الأئمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إثنا عشر إماما . فإذا ثبت هذا العدد ، كان القائل بإمامة من يطابقة ، هو الصادق من بين جميع الطوائف ، وليس غير الشيعة الإماميّة تقول بذلك دون غيرهم ، فيثبت إمامة

---

(١) (١٩٥هـ - ٢٢٠هـ) .

(٢) (٢١٢هـ - ٢٥٤هـ) .

(٣) (٢٣٢هـ - ٢٦٠هـ) .

(٤) ولد عام ٢٥٥هـ ، ولا يزال حيّاً يرزق منتظراً الإذن الإلهي بالخروج .

هؤلاء الكرام بأعيانهم .[1]

****

الإمام المهدّي

تسلّم الإمام المهدّي منصب الإمامة عام ٢٦٠ للهجرة ، واضطرته ظروف الجَوْر والظلم والمطاردة من جهة ، وحالة الإضمحلال الفكري والاخلاقيّ في المجتمع الإسلاميّ خاصّة والبشريّ عامّة ، المانعة من تمكينه التام لأداء وظيفته الرساليّة مباشرةً ـ وهو آخر الأئمة المذخورين ـ من جهة ثانية ، اضطرّه ذلك إلى الإستتار وتفويض أُمور الإمامة الإجرائيّة والتشريعيّة ـ بالحد الذي سنشير إليه ـ إلى الفقهاء المتضلّعين بحديث الرسول والأئمة، كما سنتطرق إليه في البحث الآتي .

وستستمر غيبته هذه إلى أن تتحقق مقتضيات ظهوره ، وتزول أسباب استتاره ، فيحقّق عند ذاك الغاية الإلهيّة المرضيّة من بعثة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فيملأ الأرض هداية ونوراً ، وقسطاً وعدلاً .

****

(١) أورد هذا الدليل ، الشيخ الطوسي في كتابه : « الإقتصاد فيما يتعلّق بالإعتقاد » ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، ط النجف ـ ١٣٩٩هـ . وما ذكرناه توضيح جلّي لما أفاده قدّس سرّه .

البحث الثالث

ولاة الأمر والحكّام

تولّى الإمام المهدي (عليه السلام) الإمامة عام ٢٦٠ للهجرة ، خلفاً عن والده الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) ، في ظرف حرج للغاية بالنسبة لأهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم ، حيث بلغت ملاحقة العلويين والشيعة وتعذيبهم والتنكيل بهم أَشُدَّها . وأضحى بيت الإمام العسكري محاصَراً والإمام فيه مُقام إقامة جبرية ، لا يسمح له بالخروج منه ، ولا مقابلة الناس إلّا بحضور جواسيس السلطة العباسيّة الحاكمة . وحيث بُثّت العيون والآذان لتترصد بدقّة وَصِيّ الإمام العسكري ، للفتك به في مهده ، وقلع مادّة القلق التي طالما أرّقت أجفان الخلفاء وسلبتهم أمنهم وطمأنينتهم .

فكان من الطبيعي أن لا يجهر الإمام المهدي بنفسه أمام الملاء ، حرصاً على ما تبقّى من معالم النبوّة وآثار الرسالة المحمّديّة . وهذا ما حصل بالفعل ، حيث ابتدأ الإمام (عليه السلام)أمره بالاستتار عن الناس ، والإكتفاء بالاتصال بخواصّ شيعة والده ليُذهب الحيرة من نفوسهم ، وتنعقد الكلمة على إمامته .

ثم بعد أن تمّ له ذلك ، عيّن وكلاءَ عنه ليكونوا الواسطة المباشرة بينه وبين المؤمنين ، وهم :

١ ـ الشيخ أبو عَمْرو ، عثمان بن سعيد العُمَري .

٢ ـ الشيخ أبو جعفر ، محمد بن عثمان .

٣ ـ الشيخ أبو القاسم ، الحسين بن روح النَّوْبَخْتي .

٤ ـ الشيخ أبو الحسن ، علي بن محمد السَّمُري .

وقد كانت جميع أُمور الإمامة الإرشادية والإجرائيّة تتمّ بواسطتهم :

فكانوا يتلقون استفتاءات الناس في الأحكام الشرعية ، واستيضاحاتهم في الامور الدينيّة العامّة ، ويجيبونهم عليها بما عرفوا من أحاديث الائمة (عليهم السلام) . فإن أشكلت عليهم ، أرجعوها إلى الامام (عليه السلام) ، ليقوم هو بنفسه بالإجابة عنها ، بما عُرِف بـ" التوقيعات " .

كما كانوا يرسلون الجُباة لجمع الأموال والحقوق الشرعية من المؤمنين ، وصرفها في حوائج الناس وإدارة أُمورهم العامة بالمقدار الذي كانت تسمح به الظروف ، وإيصال قسم منها إلى الإمام (عليه السلام) .

واستمرت الحال على ذي ـ لا يقابل الإمام إلا وكلاءه وبعض الخواصّ ـ حتى سنة ٣٢٩ هجرية . وعرفت هذه الفترة بـ" **الغَيْبَة الصُّغْرى** " للإمام المهدي .

وفي تلك السنة ـ وقُبَيْل وفاة آخر الوكلاء (رضوان الله عليهم) ـ صدرت توقيعات شريفة من الناحية المقدّسة ، تنبيء بوفاة آخر الوكلاء ، وانقطاع التوكيل الخاص بعده وتؤذن بوقوع الغيبة الكبرى ، حيث لن يكون فيها بإمكان أحد من الناس الإتصال بالامام (عليه السلام) ، إلى أن تحين الساعة المقدّرة بأمر الله ومشيئته ، ليَظْهَر (عليه السلام) ، ويُبيد حكم الطاغوت ويقيم حكم الله تعالى وحده في الأرض ، ويملأها قسطاً وعدلاً .

ولكن الإمام (عليه السلام) لم يترك الأُمة هَمَلاً ضائعةً بلا راع ، بل أَوْكَلَ شؤون الإمامة الإرشادية والإجرائيّة إلى الفقهاء العدول العارفين بسنّة

رسول الله والأئمة (عليهم السلام) . فقد جاء في التوقيع الشريف :

« وأما الحوادث العامّة ، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا ، فإنهم حجّتي عليكم ، وأنا حجّة الله عليهم » .(١)

وهذا ما يُسّمى بـ" النيابة العامة " ، وبها يكون الإمام قد أعطى الولاية لكلّ فقيهٍ عادل عارف بفقه وحديث الأئمة ، لإدارة شؤون المسلمين ورعاية مصالحهم ، بما يضمن هدايتهم وإبعادهم عن الفساد والإنحراف ، وحفظ وحدتهم وتماسكهم ، وانتظام روابطهم الإجتماعية وتحقيق أمنهم الإقتصادي والعسكري في أماكن تواجدهم ـ حيثما أمكنهم ذلك ـ ورجع الناس فيها إليهم . إضافةً إلى القضاء بينهم ، وإقامة الحدود ، وبيان الأحكام ، وصيانة الدين عن التحريف في مفاهيمه وعقائده .

ومن هنا يُعلم أنّ فترة الغيبة الصغرى وتعيين الوكلاء الأربعة(رحمهم الله) كانت ضروريةً لايجاد حالة المراس العملية للفقهاء في تَوَلّي المسؤوليات المشار إليها ، وحالة الإعداد النفسي والتربوي لعامّة المؤمنين للرجوع إلى الفقهاء عندما تقع الغَيْبة الكبرى .

وبعملية النيابة العامة هذه ، لم يحصل أيّ خلل في الأصل العقلي الذي أوجبنا على أساسه ضرورة الإمامة .

نسأل الله تعالى أن يعّجل في فرج وليّه الحجة المنتظر ، ويَجْعَلَنا من أخْلَصِ أنصاره وأتباعه ، بحق محمد وآله الطاهرين .

****

---

(١) كمال الدين ، الباب ٤٥ ، ص٤٨٤ .

سؤال وجواب

ما فائدة البحث عن إمامة عليّ في هذا العصر ؟

السؤال

إن البحث في إمامة علي بن أبي طالب ، أمْرٌ قد تجاوَزَه الزمن ، فقد طوى التاريخ تلك الحقبة المُرَّة ، ولم يَعُدْ للبحث في إمامته (كرّم الله وجهه) وعدمها ، أيّة فائدة سوى تعميق هوّة الشقاق وتسعير حدّة الخلاف بين المسلمين .

الجواب

يتردد هذا السؤال على لسان لفيف من الدعاة إلى الوحدة من أهل السنّة الذين يرغبون بتوحيد الصفوف بين أبناء الأمة الواحدة . ولكنه ـ في الحقيقة ـ ناشيء من عدم تفهّم صحيحٍ لحقيقة الإمامة ، وماهيتها .

إن هؤلاء يتصوّرون أنّ النزاع في إمامة فلانٍ أوفلان ، نزاعٌ حول رئاسة هذا الشخص أو ذاك ، كما هو المشاهد في هذه الأعصار في عمليات الصراع على كرسيّ الرئاسة ، فلا معنى لبقاء النزاع بين أتباعهم ، بعد موت المتبوعين وارتحالهم عن الدنيا .

ولكن الحقيقة أنّ المسألة أعمق من هذا ، وترتدي ثوباً مغايراً له

تماماً . لأنّ الإمامة ـ كما عرفت ـ ليست مجرد رئاسة دنيوية على الأُمة ، بل هي رئاسة إلهية عليها ، وهي تعني استمرار أداء الوظائف الرساليّة التي كان النبيُّ مُكَلَّفاً بها ، في جميع أبعادها الدينيّة والدنيوية ، لغاية تحقيق أهداف الرسالة الخاتمةِ كاملة ، وهي بسطُ حكومة الله تعالى في الأرض، وهداية البشر إلى الشريعة القويمة والدين الوَسَط الذي يحقق لهم سعادة الدّارَيْن .

فالإمام ـ بالدرجة الأولى ـ مبيّن لشريعة الله تعالى ، ومُفْصِحٌ عن سُنَّةِ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وليس مجرد مدير يسوسُ الرَّعِيَّة ، ويوفّر لها أَمْنَها ومأكلَها ومَشْربها . وعلى هذا ، لا يكون النزاع في إمامة فلان أو فلان ، نزاعاً في رئاسة هذا أو ذاك ، بل يعود إلى إثبات المُبَيِّن لشرع الله وسُنّة الرسول ، والهادي للأُمة بقوله وفعله ، إلى الغاية المشرقة التي أُرسلت لها الرسالة الخاتِمَة .

وانطلاقاً من هذا الذي ذكرناه ، يُعْلَم أَنّ ما نثبته بالكتاب والسنّة من قيادة العترة الطاهرة وإمامتها للأُمّة ، هو إثباتٌ لأمرٍ خالدٍ خُلودَ الدهر ، ودعوة لتحويل الوجه والعمل شطر من يُبَيِّنونَ شَرْعَ الله ، ويفسّرون الكتابَ الحكيم والسنّةَ المطّهرة ، كما دعا اليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذْ قرنهم بكتاب الله ، في حديث الثّقلين المتواتر : « **أيُّها الناس ، إنّي تاركٌ فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلّوا بَعْدِي أبداً : كتابَ الله ، وعِتْرَتي أَهْلَ بيتي . لن يَفتَرِقا حتى يَرِدا عَلَيَّ الحَوْضَ ، فانْظُروا كيف تَخْلُفوني فيهما .** »[1]

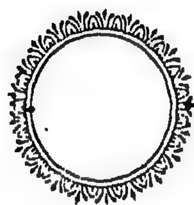
وإذْ جَعَلَ النجاةَ في التمسُّك بِعُرْوَتِهم ، في حديثه الشريف : « **إنّما مَثَلُ أهْلِ بَيْتِي فيكُمْ كسفينةِ نوحٍ ، مَنْ تَخَلَّفَ عنها هَلَكَ** »[2] .

***

(١) لاحظ مصادر هذا الحديث الشريف في المراجعة الثامنة من كتاب المراجعات ، للعلامة المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين .

(٢) المصدر السابق نفسه .

بهـذا ينتهي بحث الإمامـة ، بجوانبـه الأساسيـة ، ونأتي فيمـا يلي إلى الأصل الأخير من أصول الدين ، ألا وهو « المعاد » .



الفصل السادس

المعاد

المعاد

تمهيد

بعد تَصَرُّم الحياة ، ودمارِ الكَوْن ، واندثار الموجودات ، وفناءِ الإنسان ، وانطواء صفحة هذه النَّشْأة الدُّنْيَوِيَّة المُؤَقّته ، تنفتح صفحة نشأة أُخرى أَبديّة ، لا خاتمة لها : الأَرض فيها غير الأرض ، والسماءُ فيها غير السماء ، والحياةُ فيها غير الحياة ، والإنسان فيها غير الإنسان، إنه ـ حينذاك ـ موجود خالد ، إما سعيد في نعيم لا يزول ، أَوْ شَقِيٌّ في عذابٍ لا ينقضي ، وبكلمة جامعة : إنها دار الحيوان .

كلّ من رأى تلك الحياة الدينا ، من أول أُناسِيِّها إلى آخرهم ، هو الآن محشور ، لِيَبْدَأ هذه الحياة الخالدةَ : فإن وَرَدَ مَحْشَرَه بقلب سليم ، فهنيئاً له جناتُ الفِرْدَوْس نُزُلاً ، يدخُلُها بسلام ويحياها بأَمْن . وإنْ ورد مَحْشَرَهُ بقلبٍ خبيث ، فَتَعْساً له في نُزُل الحميم ، يُدْخُلُها مذموماً مدحوراً ، ويُصَلّى فيها جحيماً وسعيراً .

إنها إذن ، منتهى سعيِ الإنسان في الدينا ، وخاتمة نضاله المستميت لإشباع جوعه ، وإرواء ظمائه ، وسَتْر عورته ، من حِلِّهِ أو حرامه .

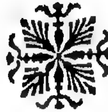
لقد كانت الدينا دار ابتلاء ، وفترة تمحيص ، ولحظة اختبار ، في

مهمهة عمياء ، كشف الآن عن غطائها ، وتبّدت خاتمتها ، واذا بما قدّمت - يداه حاضراً ، ليُجْزاهُ ثواباً أو عقاباً .

بل كأنّ الإنسان لم يُخْلَق إلاّ لهذه الحياة الخالدة ، ولم تكن تلك إلا مفازةً في طريقها ، وقد تجاوَزَها الآن ، إما بنجاح أو خسران .

هل هذا كلّه مجرّد ادّعاء ، وخيالات وأوهام ؟ أم إنّه أمْرٌ قام عليه الدليل والبرهان ؟ .

الجواب : إنه يقينٌ لا يَعْتَوِره شَكّ ، بل ضرورةٌ حتميّة لا مَناص منها . وإليك الدليل .



الدليل على وجود نشأة اخرى

إثبات المعاد سهل للغاية ، ولا يحتاج إلى مزيد مؤنة . وذلك أنّا بعد أنْ أثبتنا وجود الخالق ، ثم رسالة نبيّه الخاتم وإعجاز القرآن الكريم ، الدالّ على أنّه كلامه تعالى ، نتصفّحه ، فنرى فيه من الآيات الدالّة على القيامة والمعاد والحشر والحساب والجنّة ونعيمها، والنار وجحيمها ، والمتحدّثة عن بعض المشاهد التفصيليّة لما يحصل فيها ، نرى ما يربو على المئات منها ، فيكون هذا دليلاً قاطعا على قيامة الناس بعد الموت إلى حياة أُخرى .

ولكن مع ذلك ، نورد دليلاً عقلياً ، يضفي على المعاد صبغة الوجوب ، والضرورة الحتميّة ، وهو التالي .

المعاد مقتضى الحكمة الإلهيّة

بالإمكان بيان هذا الدليل بعدّة وجوه ، نذكر وجهين منها ، وهما :

أ . صيانة الخلقة عن العبث

ذكرنا في مباحث الحكمة من الصفات الثبوتيّة الفعليّة ، أنّ العقلَ مستقل في الحكم بحسن الأفعال وقبحها ، من دون أنْ يحتاج في ذلك إلى ورود ترخيصٍ شرعي بذلك ، كما يقول الأشاعرة .

ومن هناك ، يحكم العقل بحكمة الخالق ولزوم كون أفعاله كلِّها ذَوَاتِ غاياتٍ ، وقُبْحِ وقوعِ الأفعال العَبَثِيّة اللُّغويَّة الخالية من أيّةِ فائدة ، عنه تعالى .

وهو بهذا الحكم إنما يكشف عن واقعيّةٍ في ذات الله تبارك وتعالى ، وأنّه متّصف بهذه الصفة . لا أنّه ـ كما قد يُتَصَوَّر ـ يُصْدِرُ حُكْماً على الله تعالى يَحُدُّ من فاعِلِيَّتِهِ المُطْلَقَة . بل هو فاعلٌ تامٌّ في الفاعلية ، له أنْ يفعلَ ما يشاء ، إلاّ أنه حكيم لا يفعل إلاّ ما كان ذا غاية وفائدة لكائناته ، لا لذاته الكاملة بالكمال المطلق ، والغنيّة عن كل شيء .

وانطلاقاً من هذا الأساس ، نقول :

إنّ الله تعالى خَلَقَ الإنسان ، وزوّده بالمدارك والحواسّ ، وأسباب التفكير والمعرفة ، وأهبطه إلى هذه الدنيا ، ليعيش قساوتها ، وتعتصره مرارتها ، ويكدح ليله ونهاره مبتغياً لقمة عيشه في محيط الشقاء والبلايا : « المَوْلودُ المُؤَمِّلُ ما لا يُدْرَكْ ، السالكُ سبيلَ مَنْ قد هَلَك ، غَرَضُ الأسقامِ ، ورَهينَةُ الأيامِ ، وَرَمِيَّةُ المصائِب ، وعَبْدُ الدنيا ، وتاجِرُ الغُرور ، وغريمُ المنايا ، وأسيرُ الموتِ ، وحليفُ الهُمومِ ، وقرينُ الأحزانِ ، ونُصُبُ الآفات ، وصريعُ الشَّهَوات ، وخليفةُ الأموات » .[1]

وفوق ذلك ، لم يتركه هملا يعيش على هواه ، بل قَيّد تصرفاتِه ، وحَدَّ من اختياراتِه ، بتشريعات أنزلها إليه ، وتكاليفَ وضعها عليه ، وهي تتصادم ورَغَباتِه في الجموح والإنطلاق .

وحينئذ نقول :

إذا كان الخالق حكيما ، فلا بد ـ إذن - أنْ تكون ثمة غاية من خَلْق

---

(١) اقتباس من كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، في وصيته لولده الحسن (عليه السلام) . نهج البلاغة ، الكتاب ٣١ .

الإنسان ، وإلا كان خلقه مع هذه المَشَقّات والتكاليف ، لغواً وعَبَثاً . فما هي تلك الغاية ؟ .

هل هي منحصرة بإطار الحياة الدنيا التي يعيشها ، بأنْ يحياها ولا غير . ولكن لا يخرج بذلك عن دائرة العَبَثِيّة ، لما عرفته من طبيعة هذه الحياة ، ويكونُ الإنسان مخلوقاً ـ حينذاك ـ لكي يوضع عليه التكليف ، ويعاني الشقاء بلا ذنب ، ليس إلا . وهو عينُ العبث ، تنزّه الخالق الحكيم عنه .

فإذا لم تكن الغاية هي الدنيا ، فلا بد أنْ تكون حياة أخرى ، ويكون بلاء هذه وتكاليفها ، مَعْبَراً اليها ، وأُنبوب اختبار وتمحيص للعباد ، ومِضْمارَ سباقٍ لتحصيل الكمالات النفسيّة والمعنويّة ، والإكتساء بزيّ العبودية لله وحده ، والفوز ـ في النتيجة ـ بكأس النجاة والسعادة الأوفى .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنا لاتُرْجَعونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[2] .

ب ـ العدل الإلهي

ويمكن طرح دلالة الحكمة الإلهية على ضرورة المعاد ، بصورة أُخرى ، وهي أن الخالق الحكيم ، عادلٌ ، يستحيل عليه أن يظلم ، وإنما يعطي كلَّ ذي حقّه .

ونحن نرى أنّ العباد على صنفين :

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .
(٢) سورة المُلْك : الآية ٢ .

ـ صنف قد بذلوا المشاقّ في سلوك طريق امتثال أوامر الله تعالى ونواهيه ، والإنضباط بما أودعه الله تعالى في عقول الناس من معرفة طرق الخير والشّر .

ـ وصنف آخر ، تهاونوا في ذلك ، فسلكوا طرق المعصية والفساد ، ومخالفة أوامر المولى وإرشادات الفطرة الإلهية .

فهنا لا يخلو الأمر من أحد وجوه :

ـ أنْ يُهْمِلَهم المولى ، من حيث الثواب والعقاب .

ـ أنْ يُسَوِّيَ بينهم ، بأنْ يُثيبَ الجميع ، أو يعاقب الجميع .

ـ أن يفرّق بينهم ، بأنْ يثيبَ العاصي ، ويعاقب المطيع .

ـ أن يفرّق بينهم ، بأن يثيب المطيع ، ويعاقب العاصي .

والأول عَبَثٌ ، وقد تقدّم الكلام فيه .

والثاني والثالث خلاف العدل .

فتعيّن الرابع ، وهو مقتضىٰ العدل الإلهي .

ولكن حيث إنّ هذا التفريق العادل غير متحقق في هذه النشأة الدنيويّة ، فلا بُدّ أنْ تكون ثمّة نشأة أُخرى يتحقق فيها عدله تعالى : فيُثيبُ فيها المطيعين، ويُعاقِبُ العاصين .

وإلى هذا الدليل يشير تعالى في كتابه العزيز بقوله :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحَات ، كالمُفْسِدينَ في الأرضِ ، أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقينَ كالفُجّارِ ﴾ .(١)

وقوله تعالى :

---

(١) سورة ص : الآية ٢٨ .

﴿ وقال الذينَ كفروا لاتَأتينا الساعَةُ ، قُلْ بلَىٰ وربِّي لَتَـأْتِيَنَّكُمْ . . . . * لِيَجْزِيَ الذينَ آمنَـوا وعَمِلوا الصالحـاتِ ، أُولئكَ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ * والذين سَعَوْا في آياتِنا مُعَاجِزينَ أُولئِكَ لَهُمْ عذابٌ مِنْ رِجْزٍ أليمٌ ﴾ .[1]

فـالآيـة الأُولى تُصَـرِّحُ بـأن مقتضى العـدل الإلهي التفـريق بين العبـاد بالثواب والعقاب ، بإثابة المطعين وعقابِ العاصين ، وأنّه يستحيل عليه تعالى أنْ يعامل الجميع بالسويَّة .

والآية الثانية تشير إلى هذه الإثابـة والمعاقبـة ليست في الدنيـا ، بل في نشأة أُخرى .



(١) سورة سبأ : الآية ٥ .

كيفية معاد الإنسان

قد وقفت على الأدلة العقلية والسمعية على وجود حياةٍ أُخرى ينتقل إليها الإنسان بعد الموت ، ولكن قد يُتساءل : كيف يعاد الإنسان ؟ هل يعاد بروحه أو بجسده فقط ؟ أو بهما معاً ؟ .

إنّ غايةَ ما دلّنا عليه الدليل العقلي المتقدّم ، هو ضَرورة بعث الإنسان إلى حياةٍ أُخرى ليلاقي فيها جزاءَه على ما عَمِلَهُ ، إما ثواباً أو عقاباً . وهو قاصر عن أنْ يُعيّن أيّ شيء هو المُعاد خاصّة إذا عرفنا أنّ الإنسان ليس هو مجرّد هذا الهيكل الجسماني ، وليست كلُّ مشاعره وأحاسيسه وأفكاره وخيالاته مجرّد إنفعالات عصبيّة نتيجة عملياتٍ فيزيوكمياتية تجري في الخلايا والإنزيمات ، ليكون المَعاد جِسمانياً فحسب . بل الإنسان المخاطَب بـ« زيد » و« عمرو » ، هو هذا الهيكل الجسماني إضافة إلى روح منفصلة عنه ، متعلّقة به تعلُّقاً تدبيرياً . فإذا مات أندثر البدن وبقيت تلك الروح .

فإذا آن المَعاد ، هل يُعاد ذلك الجسد المعدوم ليُحْشَر مع تلك الروح سويّة إلى الحساب ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ أو يختصّ المعاد بالروح ؟ . لا سبيل إلى إثبات أي منهما بالبرهان العقلي ، وإنما السبيل إليه هو السمع .

ولقد دلّتنا آيات القرآن الكريم على أنّ المُعادَ يوم القيامة هو الإنسان :

بروحه وجسده الدنيوي ، كليهما ، لا يفوت أيٌّ منهما ، كما لا يُنْقَص من أحدهما شيء .

ويمكن تصنيف الآيات الدّالة على ذلك إلى أصناف ، أهمها :

١ ـ ما يدلُّ على بَعْثِ أجزاء البَدَنِ وأعضائه .

٢ ـ ما يَدُلّ على شهادة أعضاء البدن الدنيوي يومَ القيامة .

٣ ـ ما يدلّ على وقوع عذابٍ ونعيم ، جسمانيّين وروحيّين .

فمن الصنف الأول ، قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَة فإذا هو خَصيمٌ مُبِينٌ * وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ ، قال : مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهي رميمٌ * قُلْ يُحْيِيها الذي أَنْشَأَها أَوّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلّ خَلْقٍ عَليمٌ ﴾(١) .

فهذه الآيات تَـدُلُّ على إعادةِ الحياةِ إلى رفاتِ أجسادِ المَوْتى ، ومِنَ الواضِحِ أنّ عودة الجَسَدِ تُرافقه عودةُ روحه .

ومن الصنف الثاني ، قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْديهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانوا يَعْمَلونَ ﴾(٢) .

ومن الصنف الثالث ، قوله تعالى : ﴿ كُلّما نَضِجَتْ جُلودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلوداً غَيْرها ، لِيَذوقوا العذابَ ﴾ .(٣)

فإنّ الشطر الأول من الآية يدلّ على وقوع عذابٍ جسماني ، والشطر الثاني منها ـ الذي يذكر تذوّق العذاب ـ يدلّ على وقوع عذابٍ روحي .

وقوله تعالى : ﴿ وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ .(٤) والحسرة

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٧ ـ ٧٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٤) سورة مريم : الآية ٤٠ .

أَلَمٌ نَفْسِيٌّ وعـذابٌ روحي ، وتتجلىّ في مواطن عـدّة ، منها مـا يحكيه قـولـه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجوهُهُمْ في النارِ ، يقـولونَ يـا لَيْتَنا أَطـعْنا الله وأَطَعْنـا الرَّسولا ﴾[1] . وغيرها من الآيات.

وتحكي الآيات القرآنيـة صوراً رائعـة لأهل الجنّـة ، مزيجـة من النعيم الجسمـاني والروحـاني ، منها قـوله تعـالى : ﴿ إنّ أصحابَ الجَنَّـةِ اليـومَ في شُغُلٍ فاكِهونَ * هُمْ وأَزْواجُهُمْ في ظلالٍ على الأرائِـكِ مُتَّكِئونَ * لهم فيهـا فاكِهَةٌ ولَهُمْ ما يَدَّعونَ * سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعدَ الله المؤمنينَ والمؤمناتِ جَنّاتٍ تَجْـري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِـدينَ فيها ومسـاكِنَ طَيِّبَةً في جَنّـاتِ عَدْنٍ وَ رِضْـوانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ ، ذلك هُوَ الفَوْزُ العظيمُ ﴾[3] .

وفي رضـوانِ الله ، لذة روحيـة أكبر من جميـع اللذائذ الجسمـانية التي يتنعم بها أهل الجنة .

فـالمعـادُ إذَنْ ، للجسـد والـروح معـاً . وهـذا من ضـروريـاتِ دين الإسلام ، لأن آيات القرآن الكريم ـ التي أوردنـا شيئاً يسيـراً منها ـ دالـة عليه بنحو لا يقبل التأويل .

***

هذا تمام ما أردنا إيراده من أُصول الدين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٦ .
(٢) سورة يس : الآيات ٥٥ ـ ٥٨ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

الفهارس

فهرس الآيـات

اللّهَ يأْتي بالشمسِ من المَشْرِقِ فأْتِ بهـا من المغـربِ فَبُهِتَ الـذي كَفَـرَ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾	٢٥٨	٢٠
﴿ آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليـه من ربِّـه والمؤمنـونَ كُـلٌّ آمَنَ بـاللّهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِـهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بين أحَدٍ مِنْ رسلِهِ وقالـوا سَمِعْنا وأَطَعْنـا غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصير ﴾	٢٨٥	٧٠
سورة آل عمران		
﴿ شَهِـدَ اللّهُ أنَّـه لا إلـهَ إلاّ هُـوَ والمـلائكـةُ وأُولـوا العِلْمِ قـائِمـاً بـالقِسْطِ لا إلـهَ إلاّ هُـوَ العـزيـزُ الحكيم ﴾	١٨	١٤٤
﴿ قُلْ إن تُخْفوا مـا في صُدورِكُم أو تُبْـدوهُ يَعْلَمْـهُ اللّهُ ويَعْلَمُ مـا في السمـاواتِ ومـا فـي الأرضِ واللّهُ على كلِ شيءٍ قدير ﴾	٢٩	٩٩
﴿ إنَّ اللّهَ اصطفى آدَمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآل عِمْرانَ على العالَمين ﴾	٣٣	١٧٦
﴿ فَتَقَبَّلَهـا ربُّهـا بِقَبـولٍ حَسنٍ وأَنْبَتَها نباتاً حَسَناً وكَفَّلها زكريّـا كُلَّما دَخَـلَ عليها زَكَـرِيّا المحـرابَ وجدَ عِنْدَها رزقاً قال يا مريمُ أنّى لكِ هذا قـالَتْ هو مِنْ عنـدِ اللّهِ إنَّ الله يرزُقُ من يشاءُ بغير حساب ﴾	٣٧	٢١٠
﴿ فَبِمـا رحمـةٍ من اللّهِ لِنْتَ لهم		

تسقطُ من وَرَقَـةٍ إلاّ يعلَمُها ولا حَبّـةٍ في ظلمــاتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلاّ في كتابٍ مبين ﴾	٥٩	٩٩
﴿ وتلك حُجَّتُنـا آتيناهـا إبـراهيمَ على قومِهِ نَرْفَعُ درجـاتٍ من نشاءُ إنَّ ربكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾	٨٣	٢٠
﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصـارُ وهو يُـدْرِكُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾	١٠٣	١١٥
﴿ قـل هـل عِنْـدَكُمْ من عِلم فتُخْرِجوهُ لنا ﴾	١٤٨	٢٠
سورة الأعراف		
﴿ أرْجِهْ وأخاه ﴾	١١١	٤٨
سورة الأنفال		
﴿ فلَمْ تَقْتُلوهُمْ ولكنَّ اللّهَ قَتَلَهُـمْ ومـا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكنّ اللّهَ رمى وليُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَناً إنَّ اللّهَ سميعٌ عليم ﴾	١٧	١٥٨
سورة يونس		
﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُرُّ دعـانا لِجَنْبِه أوْ قاعداً أو قائماً ﴾	١٢	١٠٣
﴿ حتى إذا كُـنْـتُـم فـي الـفُـلْكِ وجَرَيْنَ بهم بِريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحوا بهـا جاءَتْها ريحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الموجُ من كُـلِّ مكانٍ فـظَنّوا أنَّهُم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللّهَ مخلِصين له الدين ﴾	٢٢	١٠٣

وأيـديهِمْ وأرْجُلُهم بمـا كـانـوا يَعْمَلون ﴾	٢٤	٢٨٢
﴿ يُسَبِّـحُ لـه فيهـا بـالـغُـدوّ والآصـالِ * رجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تجـارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ الله ﴾	٣٦و٣٧	٢٢٠
سورة الفرقان		
﴿ وقالوا مالِ هذا الرسولِ يأكُل الطعامَ ويمشي في الأسواق ﴾	٧	٢٠٥
﴿ وتَـوَكَّـل على الحيِّ الـذي لا يموت ﴾	٥٨	١١١
سورة الشعراء		
﴿ أرْجِهْ وأخاه ﴾	٣٦	٤٨
﴿ فلمّـا تَـرآءا الجمعـانِ قـال أصحابُ موسى إنّا لَمُدْرَكـونَ * قال كلّا إنّ مَعِيَ ربِّي سَيَهْدين * فـأوْحَينا إلى موسى أنِ آضْرِبْ بِعَصـاكَ البحرَ فـآنْفَلَقَ فكـان كـل فِـرْقٍ كـالـطّودِ العظيم ﴾	٦١ - ٦٣	٢١٤
﴿ وأنْذِر عَشيرَتَكَ الأقربين ﴾	٢١٤	٢٥٣
سورة النمل		
﴿ قـال يا أيُّهـا الملؤا أيُّكُمْ يـأتينِ بِعَـرْشِها قبـلَ أنْ يأتـوني مُسْلِمين * قـال عفريتٌ من الجنِّ أنـا آتيـك بـه قبـل أن تَقومَ من مقـامك وإنّي عليـه لَقَـوِيٌّ أمين * قال الـذي عنـده علمٌ		

من الكتابِ أنا آتيك به قبل أن يَرْتَدَّ
إليكَ طَرْفُكَ فلما رءآه مستقراً عندَه
قال هذا من فضلِ ربي ليبلُوَني
ءأشْكُرُ أم أكفُر ﴾ ٣٨ ـ ٤٠ ٢١١

سورة القَصَص

﴿ فلَمّا أتىٰ نُوديَ من شاطىءِ
الوادِ الأيمن في البُقْعَةِ المبارَكَةِ من
الشجرةِ أنْ يا موسى إني أنا اللّهُ ربُّ
العالَمين * وأنْ ألقِ عصاكَ فلمّا
رءاها تهتزُّ كأنّها جانٌّ ولّى مُدْبِراً ولَم
يُعَقِّبْ يا موسى أقْبِلْ ولا تَخَفْ إنّكَ
من الآمنين * أُسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِك
تخرُج بيضاءَ من غير سوءٍ وآضمُمْ
إليكَ جناحَكَ من الرُّهْبِ فذانِكَ
بُرهانانِ من رَبِّكَ إلى فرعونَ ومَلإيْه
إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ ٣٠ ـ ٣٢ ١٣٠, ٢١٣

سورة العنكبوت

﴿ قل سيروا في الأرضِ فآنظروا
كيف بَدأ الخَلْقَ ثم اللّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأةَ
الآخرةَ إنَّ اللّهَ على كل شيءٍ قديرٌ ﴾ ٢٠ ٦٤
﴿ ولا تُجادلوا أهْلَ الكتابِ إلا
بالتي هي أحسنُ ﴾ ٤٦ ٢١

سورة الروم

﴿ أوَ لَمْ يَتفَكّروا في أنْفُسِهم ما
خَلَقَ اللّهُ السماواتِ والأرضَ وما

بينهما إلا بالحقِّ وأجلٍ مسمى ﴾	٨	٦٣
سورة لقمان		
﴿ ولو أنّما في الأرضِ من شَجَرةٍ أقْلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ من بعده سبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَت كلماتُ اللّهُ ﴾	٢٧	٩٦
سورة الأحزاب		
﴿ إنّما يريدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويُطَهّرَكُمْ تطهيراً ﴾	٣٣	٣٦
﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وجوهُهُم في النارِ يَقولون يا لَيْتَنَا أطَعْنا اللّهَ وأطَعْنا الرَّسولا ﴾	٦٦	٢٨٣
سورة سبأ		
﴿ عالمُ الغيبِ لا يَعْـزُبُ عنه مثقالُ ذَرّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ولا أصغَرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ في كتاب مبين ﴾	٣	٩٩
سورة فاطر		
﴿ والذين سَعَوْا في آياتِنا مُعاجِزينَ أولئكَ لَهُمْ عذابٌ من رِجْزٍ أليم ﴾	٥	٢٧٩
﴿ يا أيّها الناسُ اذكروا نَعْمَتَ اللّهِ عليكُم هل مِنْ خالقٍ غَيْرُ اللّهِ يرزُقُكُمْ من السماءِ والأرض لا إله		

إلاّ هُوَ فأنّى تُؤفَكون ﴾	٣	١٥٣
﴿ أو لم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كانَ عاقبةُ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم وكانوا أشَدّ منهم قُوّةً وما كان اللّهُ لِيُعْجِزَهُ من شيءٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ إنّه كان عليماً قديراً ﴾	٤٤	١٠٦
سورة يسٓ		
﴿ أوَ لَمْ يرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْناهُ من نطفةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبين * وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال من يُحيِي العظامَ وهِيَ رميمٌ * قل يُحييها الذي أنشأها أوّل مَرّةٍ وهو بكلّ خَلْقٍ عليمٌ ﴾	٧٧ - ٧٩	٢٨٢
سورة الصافات		
﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلون ﴾	٩٦	١٥٣
﴿ فاَستَفْتِهِم ألِرَبِّكَ البناتُ ولهم البنون * أم خَلَقْنا الملائكةَ إناثاً وهم شاهدون * ألا إنّهم من إفْكِهِمْ ليقولونَ * وَلَدَ اللّهُ وإنّهُمْ لكاذبون * أصْطَفىٰ البناتِ على البنينَ * ما لكم كيف تحكُمون * أفلا تَذَكّرون * أم لكم سُلْطانٌ مُبين * فأْتوا بكتابِكُمْ إن كنتم صادقين ﴾	١٤٩ - ١٥٧	٦٦, ٦٧

نَشْراً * فالفارِقاتِ فَرْقاً * فـالمُلْقِياتِ ذِكْراً ﴾	١ ـ ٥	١٧٢

سورة الغاشية

﴿ أفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كيف خُلِقَتْ * وإلى السماءِ كيف رُفِعَتْ * وإلى الجبالِ كيف نُصِبَتْ * وإلى الأرضِ كيف سُطِحَت ﴾	١٧ ـ ٢٠	٦٤

سورة البلد

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عينَيْن * ولِساناً وشَفَتَيْن * وهَدَيْناهُ النَّجْدَين ﴾	٨ ـ ١٠	١٣٩

سورة الشمس

﴿ ونَفْسٍ وما سوّاها * فألْهَمَها فجورَها وتقواها * قد أفْلَحَ من زكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها ﴾	٧ ـ ١٠	١٥٨

سورة التكاثر

﴿ كلّا لو تعلمونَ عِلْمَ اليقينِ * لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾	٥و٦	٢٢٠

سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هو اللّهُ أَحَدَ ﴾	١	١٦٧
﴿ ولم يَكُنْ له كُفُواً أحد ﴾	٤	١٦٨

فهرس الأحاديث الشريفة(١)

(١) المرويات عن النبي الأكرم وعترته الطاهرة ، والمذكور هنا هو ما جاء في هذا الكتاب ، وفيه بعض المرويات المختلقة ، راجع المورد للتثبُّت .

يجريان بأمره ، مطيعان لـه ، لا ينكسفان لمـوت أحد ولا لحياته ، فإذا انكسفا أو أحدهما ، صلّوا . ثم نـزل المنبر فصلى بـالناس الكسـوف ، فلما سلّم ، قـال : يا علي ، قم فجهّز إبني » ٢٢٧

« لا يزال الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش » ٢٤٦

« يا علي ، إنّ الله أمرني أن أنـذر عشيرتي الأقـربين ، فضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمـر أرى منهم ما أكره ، فصمدت عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقـال : يا محمـد إنك إن لا تفعـل مـا تؤمـر بـه يعـذبـك ربك . فاصنع يا علي لنا صاعـاً من طعام ، واجعـل عليه رِجْلَ شاة ، واملأ لنا عساً من لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغّهم ما أمرت به .

ففعلت ما أمرني بـه ثمْ دعوتهم لـه وهم يومئـذٍ أربعون رجـلاً ، يزيـدون رجلاً أو ينقصـونه ، فيهم أعمـامه . . . إلى أن قـال : فأكلوا حتى مـا لهم بشيء حاجـة . ثم قال النبي : أسقهم . فجئتهم بـذلـك العسّ ، فشـربـوا حتى رووا منــه جميعــاً . ثـم تكـلـم رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا بني عبـد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضـل مما قـد جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقـد أمرني الله تعـالى أن أدعوكم إليـه ، فأيكم يؤازرني على هـذا الأمـر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟

فـأحجم القوم عنهـا جميعـاً ، وقلت : أنـا يـا نبي الله أكون وزيرك عليه . فأخـذ برقبتي ثم قـال : إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه » ٢٥٣ , ٢٥٤

« لا يزال الدين قائماً ـ يقاتل عليه عصابة ـ حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش » ٢٥٨

« أنـا سيد النبيين ، وعلي سيد الوصيين ، وإنّ أوصيائي بعدي إثنا عشر ، أولهم علي وآخرهم القائم المهدي » ٢٥٨

« إنما مَثَلُ أهلِ بيتي فيكم كسفينة نوح ، مَن تخلّف عنها هلك » ٢٦٨

الإمام علي بن أبي طالب

« الحمد للّه القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب ، متخلصة إليه سبحانه ، فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجوز الإعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » ٥

« الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده » ٨٧

« وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلّمة له » ١٠٥

« يقول لما أراد كونه كن فيكون ، لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع ، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثّله » ١٢٩

« أشهد أنه عَدْلٌ عَدَلَ » ١٤٥

« واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ،

ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته » ١٧٢

« ما وحّده من كيّفه ، ولا حقيقته أصاب من مثّله ، ولا إياه عنى من شبّهه ، ولا حمده من أشار إليه وتوهمه » ١٨٠

« فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ، ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحقّقت القيامة عليهم عداتها ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون » ٢٢٠ ـ ٢٢١

« ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه » ٢٢٣

« أما والله ، لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، وأنه ليعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحا ، ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إلي الطير ، . . فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهباً ، حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده ، فيا عجباً ! بينا هو يستقيلها في حياته ، إذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشدّ ما تشطرا ضرعيها ! ! . . . فمني الناس ـ لعمر الله ـ بخبط وشماس ، وتلوّن واعتراض . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة .

حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها في ستة ، زعم أني أحدهم . فيا لله وللشورى ، متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذا النظائر ! ! . . . . » ٢٥٥

« المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد

هلك ، غـرض الأسقام ورهينـة الأيام ورميّـة المصائب ، وعبـد الدنيـا ، وتاجـر الغرور ، وغـريم المنايـا ، وأسيـر المـوت ، وحليف الهمـوم ، وقـرين الأحـزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات » ٢٧٦

الإمام محمد الباقر

« إنَّ الله تبـارك وتعالى كـان ولا شيء غيـره ، نـوراً لا ظـلام فيه ، وصـادقاً لا كـذب فيه ، وحيـاً لا موت فيـه ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك لا يزال أبداً » ١١١

الإمام جعفر الصادق

« كلِّم أهـلَ المدينـة ، فإني أحب أن يـرى في رجـال الشيعة مثلك » ٢١, ٣٣

« سأل هشام بن الحكم الإمام الصادق (عليه السلام) عن أسمـاء الله تعالى واشتقـاقها ، فـأجابـه ثم قـال لـه : أفهمت يـا هشام فهمـاً تـدفـع بـه وتنـاضـل بـه أعـداءنـا والمتخذين مع الله عز وجل غيره .

قال هشام : نعم . فقال (عليه السلام) : نفعك الله به وثبّتك يا هشام .

قـال هشام : فـوالله ما قهـرني أحد في التـوحيـد حتى قمت مقامي هذا » ٢٢

« قـال يونس بن يعقـوب : ورد رجـل من أهـل الشـام على الإمام الصادق (عليه السلام) يريد مناظرة أصحابه .

فقال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : يا يـونس لو كنت تحسن الكلام كلّمته .

فقلت : يا لها من حسرة . فقال لي : أخرج فانظر من

ترى من المتكلمين فأدخله .

فـأدخلت حمــران بن أعين ، والأحــول الـطاقي ، وهشام بن سالم ، وقيس بن الماصر .

وكـان المجلس منعقـداً في خيمـة صغيـرة في طــرف الحرم يستقر فيها الإمام (عليه السلام) أياماً قبـل الحج ، فـأخرج الإمـام رأسه من خيمتـه ، فإذا هـو ببعير يخبّ . فقال (عليه السلام) : هشام وربّ الكعبة .

فورد هشام بن الحكم ، وهو أول ما اختـطت لحيته ، فوسّع له الإمام (عليه السلام) وقال : ناصرنا بقلبه ولسانه ويده .

ثم أمـر الإمام (عليـه السلام) أصحـابه واحـداً واحـداً بتكليم الشــامي وكــان هشــام بن الحكم أجــودهم في المناظرة ، حتى انتهى الأمر إلى إيمان الشامي .

وعنـدها التفت الإمـام (عليه السـلام) إلى أصحابـه ، وشرع يبيّن لهم مرتبة كلٍ منهم في المجـادلة حتى انتهى
إلى هشام بن الحكم ، فقال له : مثلك فليكلم الناس » ٣٣, ٢٣, ٢٢
« رحم الله الطيار ، ولقّـاه نضرة وسـروراً ، فلقد كـان
شديد الخصومة عنّا أهل البيت » ٢٣
« روي عن الصادق (عليه السـلام) أنه نهى رجـلاً عن الكـلام وأمـر آخـر . فقـال لـه بعض أصحـابـه : جعلت فداك ، نهيت فلاناً عن الكلام ، وأمرت هذا به ؟!

فقال (عليه السلام) : هذا أبصر بالحجيج وأرفق منه » ٢٥
« فقلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : جعلت فداك ، إني سمعتـك تنهى عن الكلام وتقـول : ويـلٌ لأصحـاب الكلام ، يقولون هذا ينقاد ، وهذا لا ينقاد ، وهذا ينسـاق

وهذا لا ينساق ، وهذا نعقله وهذا لا نعقله .

فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : إنما قلت فـويل لهم
إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون » ٢٦

« إن الإيمـان يشارك الإسلام ولا يشـاركه الإسـلام ،
إنّ الإيمـان ما وقـر في القلوب والإسلام مـا عليه التنـاكح
والمواريث وقفى الدماء » ٧١

« قال الإمام الصـادق (عليه السـلام) لنوتي يعمـل في
البحر : يا عبد الله ، هل ركبت سفينة قط ؟ قال : بلى .

قال (عليه السلام) : فهل كُسِـرَت بك حيث لا سفينـة
تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟ قال : بلى .

قـال (عليـه السـلام) : فهـل تعلّق قلبـك أنّ شيئـاً من
الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك ؟ قال : بلى .

قال (عليه السلام) : فذلك الشيء هو الله القـادر على
الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث » ١٠٤

« كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك » ١٠٥

« العلم ليس هـو المشيئـة ، ألا تـرى أنـك تقـول :
سأفعل كذا إن شاء الله ولا تقول سأفعل كذا إن علم الله » ١٢٤

« المشيئة مُحْدَثَة » ١٢٥

« لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين » ١٥٩

الإمام موسى الكاظم

« كلِّم النـاس ، وبيِّن لهم الحق الذي أنت عليـه وبيِّن
لهم الضلالة التي هم عليها » ٢١

« الإرادة من الخَلْق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من
الفعل ، وأما من الله تعالى ، فإرادته أحداثه لا غير ، لِأنه

لا يـروّي ولا يهمّ ولا يتفكر . وهـذه الصفات منفيـة عنـه وهي صفات الخلق .

فإرادة الله الفعل لا غير ذلك ، يقـول له كن فيكـون ، بلا لفظ ولا نطق بلسان ، ولا همّة ، ولا تَفَكُّر ، ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له » ١٢٥

الإمام علي الرضا

« وَوَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوْضِعَه بِعِلْمِهِ » ٩٧

« روى الصـدوق عن الإمـام أبي الحسن الـرضـا (عليه السلام) ، قال : سألتـه فقلت له : الله فـوّض الأمر إلى العباد ؟

قال (عليه السلام) الله أعز من ذلك . قلت : فأجبرهم على المعاصي ؟

قال : الله أعدل وأحكم من ذلـك . ثم قال ، قـال الله عز وجل : « يا ابن آدم ، أنا أولى بحسنـاتك منـك وأنت أولى بسيئاتك مني ، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك » ١٥٩ , ١٥٨

« ألا أعـطيكم في هـذا أصـلاً لا تختلفـون فيـه ولا تخـاصمون عليـه أحـداً إلا كسـرتمـوه ؟ قلنـا : إن رأيت ذلك .

فقـال : إنّ الله عـز وجـل لم يـطع بـإكـراه ولم يعصَ بغلبـة ، ولم يهمل العبـاد في ملكـه ، هـو المـالـك لمـا ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن ائتمر العبـاد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعاً ، وإن ائتمروا بمعصيته فشاء أن يحـول بينهم وبين ذلك فعـل ، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه » ١٥٩ , ١٥٨

ثم قال (عليه السلام) : « مَن يَضْبِط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه » ١٥٨، ١٥٩

الإمام علي الهادي

« بسم الله الرحمٰن الرحيم ، عصمنا الله وإياك من الفتنة ، فإن يفعل فقد أعظم بها نعمة ، وإن لا يفعل فهي الهلكة . نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب » ٢٥

الإمام الحسن العسكري

« إجتمع إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري قوم من مواليه والمحبين لِآل محمد (صلّى الله عليه وآله) وقالوا له : يا بن رسول الله ، إنّ لنا جاراً من النصّاب يؤذينا ويحتج علينا في تفضيل الأول والثاني والثالث على أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويورد علينا حججاً لا ندري كيف الجواب عنها والخروج منها .

فقال (عليه السلام) لبعض تلامذته : مرَّ بهؤلاء إذا كانوا مجتمعين يتكلمون ، فتستمع إليهم ، فيستدعون منك الكلام ، فتكلّم وأفحم صاحبهم واكسر عربه ، وفلّ حدّه ، ولا تبقِ له باقية » ٢٣

الإمام المهدي المنتظر

« وأما الحوادث العامة ، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا ، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم » ٢٦٥

فهرس الأعلام

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الفرق والمذاهب

فهرس الأماكن والبلدان

المحتويات

الفصل الأول
وجوب المعرفة

الفصـــل الثانـي
إثبات الصانع

الفصـــل الثالـث
صفات الصانـــع

البـاب الأول
الصفات الثبوتيـة الذاتيـة

الباب الثاني
الصفات الثبوتية الفعلية

الباب الثالث
الصفات السلبية

الفصل الرابع
النبوة

الفصل الخامس
الإمامة

الفصل السادس
المعاد

الفهـــارس





